وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الجزائر -2-

كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية

قسم التاريخ

الرحلة والرحالة في الدولة العثمانية *VOLNEY نموذجا*

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر

تخصص الدولة العثمانية و المشرق العربي

أعضاء لجنة المناقشة

الدكتورة فتيحة الواليش...رئيسا
أ.الدكتورة نادية طرشون....مقررا
الدكتورة زكية زهرة.....عضوا
الدكتور شكيب بلحفري..عضوا

تحت إشراف الدكتورة :
نادية طرشون

إعداد الطالبة :
خيرة الطار

السنة الجامعية 2012 /2013م

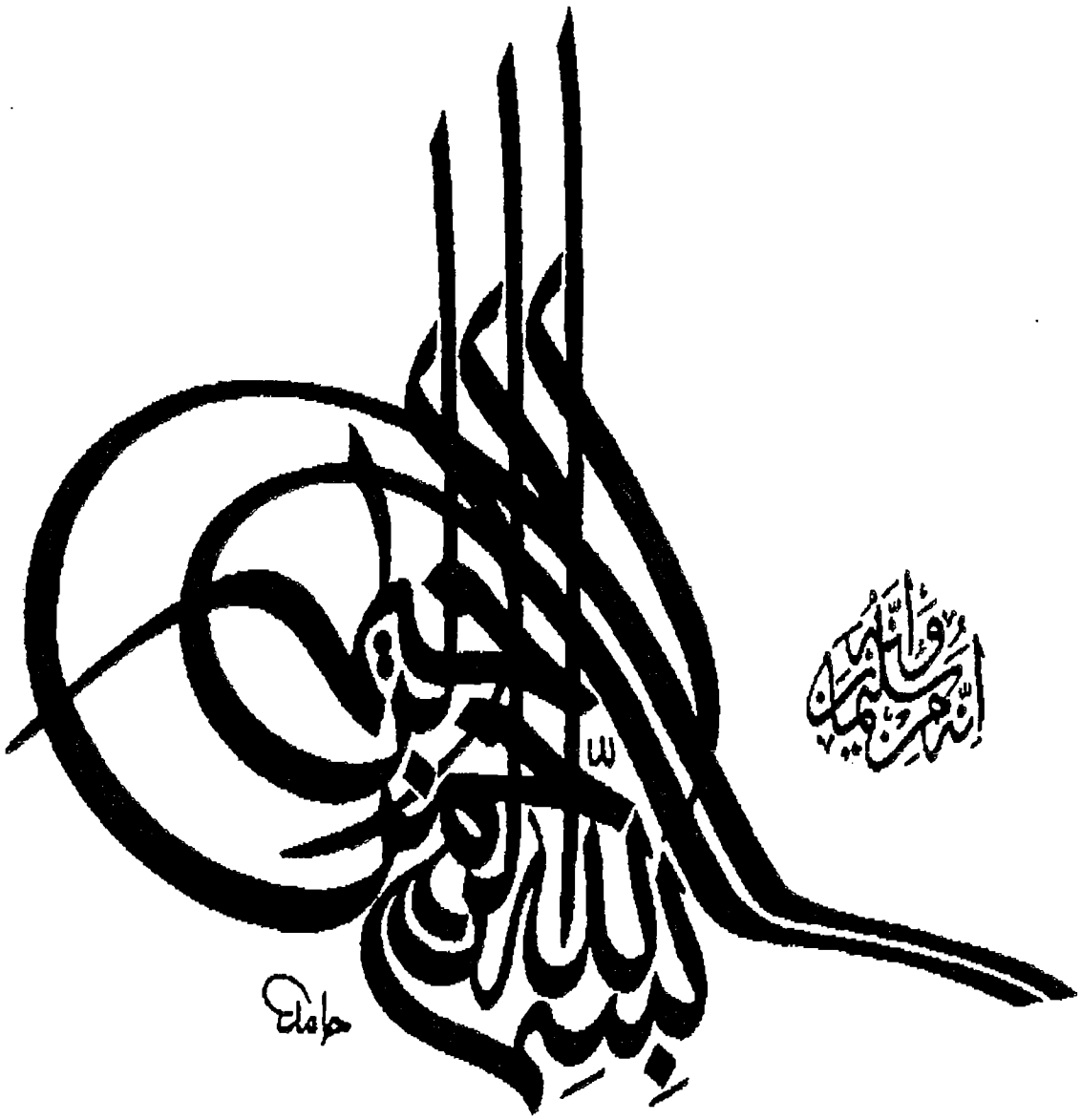
بسم الله الرحمن الرحيم
إنه من سليمان وإنه

الإهداء:

إلى أمي وأبي
أغلى ما لدي في هذا الوجود...

إلى كل عائلة الطـار...
إلى عصافير عائلتي المغردة دوما:هبة، أيمن، محمد، دعاء
أنيس وعبد الوهاب...

إلى كل زملاء الدراسة والتدريس
إلى كل أمين مع الغير، نقي في الحياة

إلى روح شقيقتي فاطمة الزهراء...
إلى ياسمينة معهد التاريخ الفقيدة عائشة غطاس

أهدي ثمرة هذا المجهود

كلمة شكر وعرفان

إلى كل من ارتقى إلى سلم الإحسان وأتمه.

إلى كل أساتذتي بدءا من مدرسة عبد الحميد بن باديس بحجوط إلى جامعة الجزائر :

أستاذتي المشرفة نادية طرشون التي تكبدت معي طول مدة البحث.

أستاذي الفاضل الغالي غربي الذي علمني فأحسن تعليمي.

إلى كل أساتذة معهد التاريخ

إلى كل من قدم لي العون و النصح

إلى زملائي في الدراسة فيصل، مباركة، بومدين، الهادي، علي، جميلة

ألف شكر

قائمة المختصرات

ج : الجزء

مج : المجلد

ط : الطبعة

د .ط : دون طبعة

تر : ترجمة

تح، تحقيق

د.د.ن : دون دار نشر

أرسيكا :مركز الأبحاث للتاريخ و الفنون و الثقافة الإسلامية .

T Tome
V :Volume
S.h Sans Auteur

المقـــدمـــة

المقـــــدمة

إن الرحلة قديمة قدم الإنسان ذاته، عرفها منذ العصور الغابرة وان اختلفت دوافعها وتباينت وسائلها وتنوعت مادتها.

فمن هيرودوت اليوناني إلى ابن جبير وابن بطوطة المسلمين مرورا بماركو بولو البندقي فكريستوف كولومبس البرتغالي الجنوي وصولا إلى فولني وسافاري الفرنسيين وانتهاء إلى كل رحالة القرنين الثامن عشر وتاسع عشر، فان كتاباتهم أيا كانت توجهاتهم الفردية ونزعاتهم الشخصية تصور إلى حد كبير بعض ملامح حضارة العصر الذي عاشوا فيه،كما تصف الكثير من عناصر ثقافة البلدان التي ذهبوا إليها وأحوال الشعوب التي اختلطوا بها .

وأيا كانت دوافع الرحلة المعلنة منها والخفية، فقد اتصفت معظمها ولو بدرجات متفاوتة بدقة الملاحظة والوصف والتقصي في تسجيل المشاهدات بأمانة وصدق، كما حرص معظم الرحالة على التفرقة بين المشاهدة والرواية عند تسجيل معلوما تهم، غير أن ما يؤخذ عليهم هو انتقالهم إلى الإنتقاد الذي عادة ما يكون محملا بقدر كبير من التحيز و التعسف بل و إلى حد التهكم والسخرية لكونهم نشأوا في إطار مختلف من التقاليد و العادات.

مع حلول القرنين15و16م، وتطور حركة الكشوف الجغرافية وظهور الثورة الصناعية في القرن 18م- ازدهرت الرحلة خاصة الأوربية منها حيث فضل الرحالة الأوربيون الخروج إلى مختلف بقاع العالم لاكتشاف أسراره و الإنتفاع بثرواته .

فإذا كان العالم الجديد محل اهتمام الرحالة و المغامرين خلال القرنين15 و16م، فان الشرق كان دوما محط أنظار وشغف الأوربيين لزخمه الحضاري –الحضارات القديمة- ، الديني –الأماكن المقدسة في فلسطين- و الإقتصادي – تجارة الحرير- لتزداد هذه الأهمية في فترة حكم الدولة العثمانية التي ساهمت بفتوحاتها في شرق أوربا المسيحي على تسهيل عملية الترحال على الأقل بالنسبة للأوربيين الذين تضاعف اهتمامهم بالشرق في القرن 18م ولكن هذه المرة لأغراض سياسية، مستغلين في ذلك بداية الضعف العثماني بكل ما حمله من زيادة النفوذ المحلي و الأجنبي على حد سواء .

ولعل من أبرز رحالة القرن 18م، الرحالة الفرنسي **قسطنطين فرانسوا شاسبوف** المعروف ب**فولني** الذي زار مصر و بلاد الشام وألف كتابا عنها بعد عودته-وهو موضوع دراستنا-أعطاه عنوان :

<< Voyage en Syrie et en Egypte Pendant Les Années : 1783 1784 1785 >>

ضمنه وصفا دقيقا لكل مظاهر الحياة في هذا الفضاء العثماني مستغربا أسباب تدهوره رغم رصيده الحضاري و حيوية موقعه الجغرافي.

1- دوافع اختيار الموضوع : :

إذا كانت الرحلة هي مظهرا من مظاهر حركة الإنسان وتعبيرا صادقا عن رغبته في اكتشاف المجهول، فهي مصدرا هاما في كتابة التاريخ، حيث تبقى محور اهتمام الدارسين والمؤرخين .

ونتيجة لدور الرحلة في رصد وتدوين الأحداث التاريخية على اختلاف أنواعها، ولخطورتها في نقل الحقائق والوقائع خاصة إذا كان الرحالة أوربي و الوجهة الدولة العثمانية في القرن 18م ارتأينا أن يكون موضوع دراستنا :" **الرحلة و الرحالة في الدولة العثمانية: فولني نموذجا".**

إن اختياري لهذا الموضوع، يعود لاهتمامي به منذ فترة سابقة من دراستي الجامعية، ولفكرة نماها في الأستاذ الدكتور الغالي غربي، حيث انصب اهتمامي على كل ما تعلق بالدولة العثمانية وعلاقتها بالغرب المسيحي خلال مراحل ضعفها .

وضعت لموضوعي إطارا محددا بالزمان و المكان، فمصر وسوريا هما إطار البحث لأنهما مركزا أحداثه والفترة الممتدة خلال النصف الثاني من القرن 18م(1783-1784-1785م) هي إطاره الزمني .

وبعد أن اتسعت مطالعاتي للموضوع، صممت على السير فيه لمجموعة من الأسباب يمكن إبرازها على النحو التالي:

أ-حداثة موضوع البحث، فكل الدراسات التاريخية العربية التي تناولت الدولة العثمانية خلال هذه الفترة، لم تدرس كتاب الرحالة فولني بقدر ما أخذت عنه أفكاره وأحكامه من دون تدقيق أو تمحيص أو مقارنة .

ب-خطورة المرحلة التي زار فيها فولني الدولة العثمانية، ونحن نعلم جيدا أن القرن 18م هو منعرج حاسم لكل القوى السياسية الموجودة آنذاك في العالم سواء تعلق الأمر بالنسبة للدولة العثمانية أو أوربا ولكن كل في اتجاه مختلف .

ج -إيماني باستحالة تناول التاريخ العثماني في كل من مصر وسوريا بالإعتماد حصرا على المصادر العربية، بل هناك ضرورة حتمية لتصفح المؤلفات الأوربية المسيحية، لاسيما وأن التواجد الأوربي بهاتين الولايتين كان مبكرا وارتبط ببداية حصوله على الإمتيازات الدينية .

د-أهمية كتاب فولني ودوره المباشر في توجيه الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م.

2-الإشكالية :يعتبر هذا البحث مساهمة جد متواضعة لإبراز جانب من جوانب الرؤية الأوربية الإستعمارية- بزعامة فولني -لأوضاع مصر وسوريا خاصة ومن ورائهما كل الولايات العثمانية .

إذ لعب هذا الرحالة دورا مهما كمراقب،ومتتبع للأحداث وموجها لسياسة فرنسا الخارجية، كما يشكل هذا الموضوع دراسة لمرحلة جد هامة من المراحل التاريخية، السياسية و الإقتصادية التي مر بها هذا الجزء من العالم الإسلامي، وهو مساهمة في محاولة إبراز حجم التحديات الخارجية والصراعات الداخلية التي ما انفكت تواجهها الدولة العثمانية .

انطلاقا من هذا، فالإشكالية التي حاولت معالجتها في هذا البحث، مستوحاة في نظري من أن الرحالة فولني وكتابه -رغم السلبية ونظرة الإحتقار المرافقة لأفكاره وآرائه دوما و التي تنم عن رغبته الإستعمارية التي نلمسها بشكل سافر في كل وصف لقلعة مصرية أو مدينة سورية - كشف وأبان عن عيوب الدولة العثمانية في هاتين الولايتين :فماهو دور رحلة فولني وكتابه في التأريخ للدولة العثمانية خلال النصف الثاني من القرن 18م؟، وما مدى صحة أفكاره ومواقفه من مصر وسوريا سياسيا، اقتصاديا، واجتماعيا مقارنة بغيره من الكتابات العربية و الأوربية المعاصرة له ؟وما هي تأثيراته المباشرة في تغيير مسار ومستقبل هاتين الولايتين العثمانيتين؟

3-خطة البحث ومحتوياتها :على ضوء دراستي لكتاب رحلة فولني وحيثياتها، ارتأيت تقسيم الموضوع إلى مقدمة، مدخل، ثلاث فصول، خاتمة، ملاحق وفهرس.

خصصت المقدمة للتعريف بالموضوع من حيث أسباب اختياره وأهميته وطرح الإشكالية مع تحديد الإطار الزمني و المكاني للموضوع مبرزة الصعوبات و المشاكل التي اعترضتني، ومصادر البحث و المنهج الذي اتبعته .

في **الفصل التمهيدي** من هذا البحث المعنون ب"تطور الرحلة وأهميتها"، تطرقت فيه إلى نشأة الرحلة وتطورها مع ذكر دور كل من العرب المسلمين والأوربيين في هذا

التطور مدعمة هذا بنماذج لأهم الرحالة الأوربيين الذين قدموا إلى الدولة العثمانية قبل مجيء فولني. أما في **الفصل الأول** والموسوم بـــ"رحلة فولني إلى مصر وسوريا "فقد خصصته لدراسة حياة هذا الرحالة ونشأته، محددة مسار رحلته، صعوباتها ونتائجها لأنتقل في **الفصل الثاني** إلى تقديم تفاصيل كتابه عن الولايتين السابق ذكرهما، مركزة على الأوضاع السياسية الإقتصادية والإجتماعية من حيث هيمنة المماليك في مصر وحكم الأتراك في سوريا مع كل ما ترتب عنهما .

أما في **الفصل الثالث** و الذي عنونته"بكتاب فولني و الكتابات المعاصرة له"فقد خصصته لمقارنة أفكار فولني في كتابه بأمثاله من الكتابات المعاصرة له سواء كانت عربية أو أوربية مركزة على كل من عبد الرحمان الجبرتي، البديري الحلاق، سافاري و جون أنتيس.

أنهيت بحثي هذا بخاتمة ضمنتها جملة من الإستنتاجات حول أهمية هذه الرحلة وخطورتها وتتمة لهذه الدراسة، فقد ألحقت بها قائمة للملاحق و المصادر والمراجع بالعربية و الأجنبية المختلفة التي اعتمدت عليها، مع فهرس للموضوع .

4- مصادر البحث :جمعت مادة البحث من خلال اطلاعي على كل ما توفر لي من مصادر أرخت أو تناولت الفترة التي عاش فيها الرحالة فولني .فقد اعتمدت بالدرجة الأولى على ماكتبه هذا الرحالة بدءا من:

-Voyage en Syrie et en Egypte pendant les Annees ;1783,1784,1785 هيأ لي المادة الأوفر، لأنه تضمن أغلب أوضاع مصر وسوريا، وكان بحق المدونة آرائه حول الأساسية لكل أفكاره.

- Les Ruines: ألفه فولني بعد عامين من كتابه موضوع الدراسة، أي سنة 1789، تحدث فيه عن استبداد الحكم العثماني، وضمنه تأملاته حول مستقبل الأوضاع في الولايات العثمانية بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية.

- **Tableau sur le Climat et le Sol des Etats-Unis d,Amerique**، قارن فيه بين رحلتيه الأولى إلى الشرق والثانية إلى أمريكا من حيث الأسباب و الأهداف، كان عمره فيهما سبب الإختلاف الأكبر لمضمونهما .

إضافة إلى هذه المؤلفات، كان من الضروري تصفح مصادر أخرى أرخت لهذا الرحالة، وبينت وجهة رأيها المخالفة لآرائه ونخص بالذكر هنا :

- **Volney 1757-1820** لصاحبه: ليون سيشي**Léon Séché** تناول فيه بكل التفاصيل حياة فولني نشأته ومولده، فكان بحق كتابة بيوغرافية لهذا الرحالة .

- **Description De l ,Egypte** للقنصل الفرنسي دي مايه **DeMaillet** ، تناول فيه مختلف مظاهر الحياة في مصر العثمانية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وتكمن أهمية وقيمة هذا الكتاب في كون صاحبه مقربا من دائرة اتخاذ القرار السياسي في الحكومة الفرنسية .

- **Les Lettres d,Egypte** للرحالة كلود ايتيان سافاري الذي عاصر فولني واختلف معه في العديد من الأفكار و الملاحظات، وكأن كلا منهما زار منطقة مختلفة .

- **مذكرات رحالة عن المصريين** للرحالة البريطاني جون أنتيس، الذي زار مصر في نفس فترة فولني وكتب مذكراته عن فترة بقائه فيها، منتقدا كتاب فولني .

كما قدمت لي المصادر العربية معونة كبرى في إثبات مدى صحة آراء فولني أو نفيها وفي مقدمتها كانت مؤلفات :

- **عجائب الآثار في التراجم و الأخبار** لعميد المؤرخين المسلمين خلال القرن الثامن عشر، عبد الرحمان الجبرتي، الذي لا تكمن أهمية كتابه في كونه معاصرا للأحداث بل تزيد إلى مكانته و علاقته المقربة من الحكام المماليك .

- **يوميات البد يري الحلاق** التي تعد من أهم المؤلفات التي تناولت تاريخ دمشق وبلاد الشام في القرن الثامن عشر .

اعتمادا على كل هذه المصادر، استعنت بجملة من المراجع الأساسية في التاريخ العثماني، ككتاب المجتمع الإسلامي و الغرب لجب وبوون، المدن العربية الكبرى لأندري ريمون ومجموعة مؤلفات فاضل البيات، من دون إهمال بعض المقالات والرسائل الجامعية .

5- منهج البحث:حاولت في هذه الدراسة، الإعتماد على المنهج التاريخي الوصفي و النقدي باستخدام التحليل و النقد في عرض الوقائع التاريخية.ونتيجة لاختلاف طبيعة الموضوع عن غيره

من المواضيع السابقة، ارتأيت اعتماد الأساوب الخبري في نقل تفاصيل رحلة فولني بكل ما صاحبها من وصف وتعليق، أرفقناه بالتحليل و المقارنة مع كتابات رحلية أخرى عاصرت فولني لإضفاء نوع من المصداقية والعلمية على ما كتبه هذا الرحالة .

6- صعوبات البحث : لم تكن معالجة هذا الموضوع بالأمر السهل، فقد واجهت عدة صعوبات، ارتبط بعضها بظروف العمل، وبعضها الآخر بصعوبة العثور على المصادر مما اضطرني إلى البحث عنها باقتنائها من مصر. وقد تحملت لتحقيق تلك الغاية أعباء مالية، ذلك أن الجمع بين اكتساب العلم وتوفير المال أمر عسير، يضاف إلى ذلك أن الموضوع جديد والدراسات الحديثة حوله نادرة وهو ما صعب من مهمتي .

وإنني إذ أتقدم بهذا البحث الذي بذلت فيه جهدا متواضعا، أتمنى أن أكون قد وفقت في وضع لبنة في صرح البحث العلمي متحرية الموضوعية قدر المستطاع بإبراز الإيجابيات وعدم التغاضي عن السلبيات، وما قدمته ليس عملا متكاملا ولكنه محاولة متواضعة لإثراء الدراسات المتخصصة لمثل هؤلاء الرحالة، وما توصلت إليه من نتائج لا تعدو أن تكون مساهمة محدودة وبداية لبحث علمي لا يزال يحتاج إلى كثير الجهود، ويمكن أن يصل فيه الباحثون إلى نتائج مختلفة اعتمادا على ما توفر من وثائق .

الفصل التمهيدي

نشأة الرحلة وتطورها

أولا : مفهوم الرحلة

ثانيا : تطور أدب الرحلة

ثالثا : نماذج عن الرحالة الأوربيين في الدولة العثمانية قبل فولني

أولا:- مفهوم الرحلة:

عرف الإنسان الرحلة أو الترحال والتنقل بفطرته، أي منذ بدء الخليقة، فمنذ أن وطأت أقدامه هذه الأرض وهو يسعى جاهدا لاكتشاف ما يحيط به من أسرار في رحلات استكشافية صعبة الظروف، قاصدا التعرف على المجهول، وسعيا وراء الماء و الرزق له ولحيواناته[1].

إن الحديث عن الرحلة يقتضي التعريف بأمرين و التفريق بين معنيين:

أ/ الرحـــلة: كحركة انتقال لشخص أو مجموعة أشخاص من مكان لأخر، وهذا هو المعنى اللغوي للكلمة حيث ورد على لسان ابن منظور شارحا الرحلة: رحل الرجل: سار و رجل رحول و قوم رحل أي يرتحلون كثيرا[2]، وهو المعنى الذي أشار إليه القرآن الكريم في سورة قريش من خلال رحلتي الشتاء و الصيف[3]. و بهذا المعنى يكون العديد من الأشخاص قديما و حديثا قد أنجزوا رحلات لا تعد و لا تحصى، لأن الحركة والتنقل من متطلبات الحياة و من طبيعة البشر غير أننا لا نعرف أي شيئ عن كل هذه الرحلات، لأن ليس كل من ارتحل دون رحلته، وهذا المعنى الأول لا يهمنا، بقدر ما يهمنا المعنى الثاني أي :

ب/ الرحـــلة: كتابة، حيث يحكي فيه الرحالة أحداث سفره و ما شاهده و عاشه من أحداث مازجا بين انطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم:

فالرحلة هي تدوينا دقيقا ويوميا للمشاهد والملاحظات، وإذ نحن نحدث الفرق بين المعنيين لا ينبغي أن ننفي العلاقة بينهما، بل إن بينهما، لأن كتابة الرحلة تستلزم القيام بسفر، ولا يمكن تصور كتابة رحلية دون وجود رحلة إلا في الرحلات الخيالية كرسالة الغفران لأبي العلاء المعري[4].

إن الكتابة الرحلية تواكب انتقال الرحالة إلى أماكن متعددة واصفا إياها في كل المجالات وذاكرا ما لقيه من صعوبات وغرائب، و عليه فمكونات الخطاب الرحلي تظهر جليا في ضرورة توفر العناصر التالية:

1-أوليا جلبي، سياحتنامة مصر، ترجمة محمد علي عوني، دار الكتب و الوثائق العلمية، القاهرة، 2003 ص5.

2-ابن منظور، لسان العرب المحيط ، المجلد1، دار لسان العرب ، بيروت ، ص 179 .

3-القرآن الكريم ، سورة قريش ، ص 158.

4-الرحلة، مجلة الفكر العربي، العدد 32، ماي 1983، ص59.

أ- المعرفة: تزخر الرحلات بالعديد من المعارف المتنوعة، فمنها ما هو ديني، تاريخي جغرافي وأدبي، مما يجعل الرحلة مقصدا للعديد من الباحثين. فكثيرا ما خضعت هذه المعرفة لتأثير شخصية و تكوين الرحالة .

ب- السرد: لا يمكن للرحالة أن يستغني عن السرد مادامت الرحلة تنقل إلى المتلقي أحداثا وأفعالا ووقائع قامت بها الذات الكاتبة، وتبدأ من نقطة الانطلاق ثم العودة إليها.

ج- الوصف: لا تكاد أي رحلة تخلو من الوصف للأحداث الساكنة، فالوصف يتطلب انتباها ودقة ملاحظة من الواصف، وعادة ما ينجذب الرحالة إلى وصف الأشياء الغريبة و غير المألوفة لديه والجديدة عن عاداته[1].

و من هذا يمكننا استخلاص أبرز خصائص الكتابة الرحلية:

- هيمنة بنية السفر التي تؤطر الأحداث و تنظمها.
- الذاتية، فكل الكتابات الرحلية ، بدت فيها شخصية الرحالة ودوره في الأحداث.
- السرد بضمير المتكلم المفرد أو الجمع.
- الواقعية: فالرحالة رجل واقعي عاش في فترة معروفة والأشخاص الذين تحدث عنهم واقعيون والأماكن التي وصفها حقيقية.
- تعدد المضامين: بتنوع مواضيع الرحلة من دينية، تاريخية، اجتماعية، سياسية إلى غيرها.

إن الرحلة قديمة قدم الإنسان الأول الذي اضطر للاستكشاف و التنقل لتحقيق هدف واحد هو البقاء والمحافظة على حياته [2]، وهوما أكدته الحضارات الإنسانية القديمة بدءا بملوك مصر الفرعونية الذين سجلوا على جدران الدير البحري بمصر العليا سفن الملكة حتشبسوت و هي عائدة من رحلتها.

كما كان للفينيقيين رحلات بحرية كبيرة جابوا فيها مياه الأطلسي، وخلفهم الإغريق الذين اهتموا اهتماما بالغا بوصف البلدان والأقاليم من خلال الرحالة هيرودوت [3] الذي ورغم دقة ملاحظاته

1- مجلة الفكر العربي، العدد 32، ماي 1983، ص59.

2- نيقولا زيادة، الجغرافيا و الرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب ، 1987، ص07 .

3- هو أول المؤرخين اليونانيين، اسمه مركب من لفظين : هيرا= معبودة اليونان، دوت: أعطى و منح فالإسم يعني هدية هيرا، ولد في مدينة هاليكارناسوس Halicar nassus إحدى مناطق غرب آسيا الصغرى بين 490-480 ق.م اشتهر برحلاته إلى عديد المناطق: اليونان، مصر، بلاد الرافدين، فلسطين: تاريخ هيرودوت تر، عبد الإله صلاح المجمع الثقافي،=

إلا أنه أخطأ في تحديد منابع نهر النيل، حين وضعها في جبال الأطلس [1].

أما في العهد الروماني، برز الجغرافي سترابون[2] الذي زار ايطاليا، اليونان ومصر، وعرف بانتقاداته الكبيرة لهيرودوت خاصة فيما تعلق بوصف دلتا نهرا لنيل وهو ماأكده نيقولا زيادة في كتابه.ليأتي دور العرب المسلمين الذين لا يمكن أن تتكلم عن تطور الرحلة وخطابها من دون ذكر دورهم الراشد في تطوره، حيث يشير الدكتور حسين محمود حسين: **" إن الفتوحات الإسلامية هي نقطة البداية مع أن عرب الجاهلية كان لهم رحلاتهم التجارية إلى العراق والشام واليمن كما كانت لشعرائهم رحلاتهم داخل الجزيرة وخارجها، ومع أنها لم تكن مدونة، إلا ما ورد في مضامين الشعر، إلا أنها تكون أفادت العرب فوائد علمية في فتوحاتهم"** [3]

و السؤال الذي يستوقفنا هنا: لماذا اهتم العرب المسلمون بالرحلة خاصة وأن الدولة الإسلامية مع منتصف القرن الثاني للهجرة (8 م) فقدت وحدتها السياسية؟

ثانيا : تطور أدب الرحلة :

1- دور العرب المسلمين في تطور الرحلة:

إن الإسلام دين حضاري متنور، و دوله متفتحة و منفتحة، و لأن التحضر و التفتح يكفل التقدم و يؤمن حركة الحياة و يدعمها، و يبشر بحياة أفضل، فلقد أمسك المسلمون بزمام الرحلة وتحمسوا لها بل و التهب نشاطهم[4] في وقت كانت فيه أوربا تغط في نوم عميق.

صحيح أن الخلافة الإسلامية مع القرن الثامن الميلادي، فقدت وحدتها، لكن روابط

=أبو ظبي، 2002، ص20-27، كما يرجى العودة إلى تاريخ هيرودوتس الشهير، تر، حبيب أفندي سنرس، المجلد ا، مطبعة القديس جاورجيوس، بيروت، 1886-1887.

1- نيقولا زيادة، المرجع السابق، ص19.

2- مؤرخ و جغرافي قديم (62-20 ق.م)، له مؤلف مشهور :الجغرافيا في 17 جزء، سورية و فلسطين تحت الحكم العثماني، قسطنطين باز يلي، دار التقدم موسكو، 1989، ص19.

3- حسين محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، ط2، دار الأندلس، لبنان، 1983، ص10.

4- صلاح الدين الشامي، الرحلة عين الجغرافي المبصرة في الكشف الجغرافي و الدراسة الميدانية، ط2، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999، ص11.

الدين واللغة والثقافة ظلت تجمع المسلمين الذين شعروا بوحدة الإنتماء رغم شساعة الإمتداد[1] وانطلاقا من هذا يمكننا تحديد دوافع الرحلة عند العرب المسلمين كما يلي:

1-1 : دوافع الرحلة عند العرب المسلمين :

أ- الحج: وهو أعظم دوافع الرحلة بتدفق آلاف المسلمين على الحجاز من كل الأقطار الإسلامية فكان الحجاج عند عودتهم يخبرون عن الطرق التي سلكوها و الأحداث التي صادفوها ومنهم من دونها للإنتفاع من التجربة و نصحا لتفادي النقائص المسجلة.

ب- طلب العلم: كانت الرحلات والأسفار من أولى السبل لطلب العلم في تلك العصور لندرة الكتب، انطلاقا من معنى حديث الرسول الكريم: " **أطلبوا العلم و لو في الصين**" فضلا على تعدد مراكز الثقافة في ديار الإسلام [2].

ج- التجارة: لعبت دورا هاما في تنوع الرحلات وتوسع أطرها فانتشرت قوافل التجار المسلمين وازدهرت على أيديهم الطرق التجارية، البرية والبحرية بين سواحل الأطلسي المتوسط وبحر البلطيق والأندلس، ومن الطريف أن المسلمين كانوا يجمعون بين التجارة وطلب العلم [3].

د- البعثات الدينية: هي البعثات التي أرسلها بعض الحكام المسلمين لنشر تعاليم الدين الإسلامي في الأقطار غير المسلمة كبعثة ابن فضلان إلى بلاد البلغار[4].

ه- السياحة: تعتبر الرغبة الشخصية في السفر و السياحة لإشباع هواية الإطلاع على البلدان و الشعوب الأخرى من أهم العوامل التي دفعت إلى الرحلة، وهو ما ينطبق على رحلة أوليا جلبي[5] إلى مصر، ناهيك عن روح المغامرة و المجازفة على غرار رحلة الفتية المغررين في بحر الظلمات[6].

1- حسين محمود حسين، المرجع السابق، ص06.

2- عبد العزيز طريح شرف، الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي، مؤسسة الثقافة الجامعية، 1993، ص50-51.

3- زكي محمد حسين، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، 1981، ص08 .

4- أنظر تفاصيل الرحلة في كتابي ، نيقولا زيادة، ص195-200، و زكي محمد حسن، ص26-31.

5- (1611-م1682)، من أب تعلم بقصور السلاطين العثمانيين و من أم قوقازية، بدأ الترحال عن عمر 19 سنة فزار الأناضول، مصر، السودان و الحبشة، أنظر سياحتنامة مصرالمصدر السابق ص10، 11، 12 .

6 -هي رحلة قام بها 8 رجال من أبناء لشبونة في القرن (10م) كانوا في بحر الظلمات (الأطلسي) لمدة بضعة أشهر و يعتقد أنهم وصلوا إلى جزر الأزور و الكناري بعد أهوال و مخاطر و بحا زفات تعرضوا لها و قاموا بها، للمزيد عن هذه الرحلة أنظر شوقي ضيف: الرحلات، ط4، دار المعارف، ص42-46.

يعتبر القرن 10 م، فترة النضج التام لمؤلفات العرب عن أدب الرحلة مشكلة المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية [1] والتي من روادها ابن حوقل، المقدسي، وغيرهم[2] . ويفسر الدكتور حسين محمود حسين هذا النضج بتأصل الحضارة الإسلامية و بعدم تأثرها بالضعف و الإنقسام الداخلي الذي باتت تشهده الخلافة الإسلامية [3]. و مع حلول القرن 11 م، انتقلت الرحلة من القصص الوصفي السردي إلى تدوين المذكرات اليومية بتفاوت في الدقة و يعتبر الفقيه أبو بكر محمد ابـــن العربي[4] من أهم رواده أي قبل نصف قرن من ابن جبير[5]، هذا الرحالة الذي أصل لهذا الإتجاه في الكتابة الرحلية.

لقد شهدت القرون التي أعقبت ابن جبير بروز الكثير من الرحالة الذين أغنوا أدب الرحلة و بقية العلوم الأخرى كياقوت الحموي و العبدري في القرن 13 م وابن بطوطة وابن خلدون في القرن 14 م[6]....الخ. و إلى غاية القرن 15م، ظلت الرحلة تفوقا عربيا إلى أن قامت الكشوف الجغرافية بأوربا قالبة موازين القوى لصالح الغرب المسيحي، حيث يذكر المؤلف حسين محمود أنه و منذ هذا القرن و إلى غاية القرن 18 م، لم يصل الدارسين شيئا مهما عن الرحلات و دوافعها سوى بزيارة القسطنطينية أو الحج للأماكن المقدسة و لعل من أبرزها رحلة عبد الغني النابلسي[7]

1- حسين محمد حسن، المرجع السابق، ص12.

2- عد إلى كل هؤلاء الرحالة بمزيد من التفصيل في كتاب زكي محمد حسين.

3- حسين محمود حسن، المرجع السابق، ص12.

4- هو الفقيه أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الطائي الحاتمي محي الدين العربي ، ولد في 17رمضان 560ه/28جويلية1165م ببلنسية شرق الأندلس من أسرة عريقة، غادر الأندلس في رحلة طويلة إلى كل من تونس، مصر الحجاز ....القدس ليستقر نهائيا في دمشق التي توفي بها في 28ربيع الثاني 638ه/16نوفمبر1240م، ترك عدة مؤلفات أهمها الفتوحات المكية.الزر كلي، ج6، ص281، رسائل ابن عربي، دراسة وتحقيق، قاسم محمد عباس حسين محمد عجيل ط1، منشورات المجمع الثقافي ، أبو ظبي 1998، ص15.

5- هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ولد ببلنسية 1040ه-1145م توفي أثناء رحلته إلى الإسكندرية سنة 614ه/1217م، للتفصيل أكثر ، أنظر ، ابن جبير، رحلة ابن جبير، ط1، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت، المقدمة .

6- أنظر كتاب الرحلات، شوقي ضيف،ط1، ص70-122 و حسين محمود ، ص55.

7- هو عبد الغني بن اسماعيل بن عبد الغني النابلسي(1641-م1731)شاعر وعالم بالدين والأدب، متصوف ولد بدمشق رحل إلى بغداد وعاد إلى سورية، فتنقل في فلسطين، لبنان، ومصر والحجاز، استقر في دمشق وتوفي بها .له عدة مصنفات أهمها الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز، الزر كلي ، الجزء4، ص32-33.

فظلت الرحلة العربية تراوح مكانها إلى حين فترة النهضة العربية الحديثة[1].

2- دور الأوربيين :

2-1 الدوافـــع:

شهدت الرحلة عند الغرب المسيحي انطلاقتها الفعلية منذ القرن 15م، لتتسع في القرن الموالي، نتيجة عوامل شتى، يمكن حصرها فيما يلي :

أ- **الدافع الديني** الذي جعل من الرحالة الحجاج منذ القرن12 م[2]يتوافدون على الأماكن المقدسة بمصر قادمين إليها من بيت لحم و الناصرة بفلسطين برزت العديد من الدوافع التي يمكن حصرها في:

ب- تطور وسائل النقل من سفن و أساطيل نتيجة حركة الكشوف الجغرافية ما بين القرن 15-16م، فتعددت الرحلات الأوربية خاصة في عهد الأمير هنري الملاح [3]، جعل أوربا تشهد منافسة حادة في الملاحة و السبق الجغرافي و التوسع.

لقد كان للسياسة التوسعية لأوربا و فتح الأسواق التجارية خارجها أثرا كبيرا في تزكية هذه المنافسة و التوسع فيها، حتى أصبحت الرحلة برية أو بحرية، تشكل جزءا هاما و أساسيا في المجتمع الأوربي وحضارته منذ عصر النهضة ، كما ساهمت في تدعيم النشاط الإستعماري الذي بلغ ذروته خلال القرن التاسع عشر، باتساع القاعدة الإقتصادية وازدهار التبادل التجاري، ليس هذا فحسب بل و حظي الرحالة أنفسهم بمكانة خاصة في مجتمعاتهم[4].

ج- طبيعة و نوعية العلاقة السياسية التي باتت تربط الدولة العثمانية بفرنسا مما جعل هذه الأخيرة

1- حسين محمود حسين، المرجع السابق، ص14-15.

2- غير أن ما يعاب على هؤلاء الرحالة عدم تدوينهم لرحلاتهم، و هو ما خلق نوعا من الفراغ في الوصف الرحلي لمصر وسوريا، عد إلى جون ماري كاريه، رحالة و أدباء فرنسيون في مصر، تر: سونيا نجار رشا صالح، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين، الكويت 2006، ص43-44.

3- هوا لأمير هنري 1419-1460م، أول من فكر في البحث عن طريق موصل للهند عبر جنوب إفريقيا و لقب بالملاح لدوره في تقدم الملاحة، الإكتشافات الجزافية من القرن 15-19م، محمد حمدي علي، ط1 المطبعة الجمالية القاهرة 1913، ص11.

4- حسين محمد فهيم، المرجع السابق، ص32.

توجه عناية اهتمامها و أطماعها فيما بعد إلى مصر خاصة بعد توقيع معاهدة الامتيازات [1] بين سليمان القانوني[2] وفرانسوا الأول[3] التي تضمنت(16)بندا شكلت أساس الحماية الإقتصادية السياسية والدينية لفرنسا داخل الباب العالي ثبت بها تجار أوربا أقدامهم في الإسكندرية[4] ورشيد[5].

د- اختراع الطباعة و تطور وسائل النشر، حيث أمر البابا جوليوس الثاني في مطلع القرن 16م بتأسيس أول مطبعة عربية نشرت أول كتاب سنة 1514م، لتنتقل الطباعة العربية إلى مدينة البندقية أين تم طبع القرآن الكريم سنة 1530م ليتوالى نشر عديد الكتب العربية في المطابع الإيطالية وأكثرها كانت كتبا دينية لحاجة البعثات التبشيرية الكاثوليكية لها في الشرق، كما نشرت كتبا علمية وأدبية[6] ككتاب الإدريسي[7] عام 1592م.

1- هي مجموعة من التسهيلات منحها سلاطين الدولة العثمانية للأجانب المقيمين على أراضيها، بدأ العمل بنظام هذه الامتيازات بشكل واسع منذ توقيع المعاهدة الكبرى بين سليمان القانوني و فرانسوا الأول سنة 1535 و أجمع معظم المؤرخين أن الإمتيازات لم تؤخذ بالقوة، للتوسع في الامتيازات، أنظر محمد فريد بك المحامي ، الدولة العلية العثمانية ، تح، إحسان حقي، ، ط11، دار النفائس ، بيروت، 2009، ص224-229.

2- هو الجليل عند الأوربيين و القانوني عند العثمانيين، ولد في 28 أفريل 1495 ، تولى مقاليد الحكم في 1520م الذي شهدت بداية حكمه تمرد جان بردي الغزالي بالشام، عرفت سياسته بالتقارب الأوربي خاصة مع ملك فرنسا فرانسوا الأول توفي سنة 1566م، ابن الوكيل، تحفةالأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تح، محمد الشتاوي، ط1، دار الآفاق العربية ، 1999، ص85، 86، 87.

3- François 1erولد سنة 1494م، أصبح ملكا لفرنسا سنة 1515م، دخل في صراع حاد مع ملك اسبانيا شارلا لخامس Charles Quint الذي وقع لديه أسيرا مما دفعه للتقرب من السلطان العثماني سليمان إلى غاية وفاته سنة 1547م أشتهر بتعصبه الديني و اضطهاده للبروتستانت.أنظر كمال حسنة العلاقات الفرنسية العثمانية في عهد السلطان سليم، جامعة الجزائر، ومحمد فريد بك المحامي، المصدر السابق، ص203 .

4- مدينة مصرية، بناها الإسكندر الأكبر سنة 322ق.م على ساحل المتوسط.، .موسوعة ألف مدينة إسلامية، المرجع السابق ، ص01.

5- مدينة مصرية على ضفاف المصب الغربي للنيل، ، تبعد عن الإسكندرية ب65كم، اكتشف بها حجر رشيد الفرعوني موسوعة ألف مدينة إسلامية ، المرجع السابق ، ص252، 253.

6- ذهني الهام محمد علي، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين 16 و17، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1991، ص92.

7- هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، لذا جاء تلقيبه بالشريف الإدريسي، ولد في سبتة المغربيةعام493ه/1100م، تعلم بقرطبة ثم ارتحل إلى صقلية بطلب من ملكها أين رسم الخرائط وصنع الكرة الأرضية الفضية وألف كتابه نزهة المشتاق، توفي في سبتة عام560ه، 1156م، محمد عبد الغني حسن ، الشريف الإدريسي، الهيئة العامة للتأليف و النشر ، القاهرة ، 1971 ، ص8، 10، 11، 12 .

أما المطبعة الملكية بباريس فطبعت أول كتاب لجبران الصهيوني[1] بعنوان النحو العربي.

انطلاقا من هذه الدوافع و على تنوعها ، تنوع الرحالة الأوربيون القاصدون إلى المشرق بين رجال الدين المدفوعين بالعاطفة الدينية لزيارة الأماكن المقدسة ولنشر المسيحية على المذهب الكاثوليكي، وبين التجار الساعين وراء المغامرة و الربح الوفير، أو بين السفراء والدبلوماسيين والمفكرين والمستشرقين الذين كثر عددهم انطلاقا من القرن17م- نتيجة عودة العلاقات الفرنسية العثمانية إلى سابق عهدها و تجدد التحالف الإضطراري بين الطرفين[2]- أو حتى إلى الرحالة الجواسيس الذين دخلوا الدولة العثمانية فقط من أجل دراسة نقاط ضعف و قوة ولاياتها لاسيما و أن التنافس الاستعماري بين فرنسا و بريطانيا و روسيا وصل ذروته مع مطلع القرن 18 م.

بناء على ما سبق ذكره و على مدار ثلاثة قرون كاملة أي انطلاقا من القرن 16م وإلى القرن 18م، نلاحظ تميز كل قرن بفئة معينة من الرحالة، فإذا كان القرن 16م، هو قرن الرحالة الحجاج الذين اعتبروا امتدادا لرحالة القرن 12م، فان القرن 17م هو قرن التجار و السفراء لتزاوج النفوذ السياسي بالمصالح الاقتصادية و مع استمرار ضعف الدولة العثمانية و تنامي القوى الأوربية بالمقابل، فان القرن 18م هو قرن الرحالة الجواسيس بلا منازع الذين أفادت كتاباتهم و مذكراتهم مصالح دولهم في احتلال الولايات العربية مع مطلع القرن 19م.

و نتيجة لأهمية كل فئة وأهمية دورها الريادي أو التكميلي للفئة الأخرى ارتأينا تخصيص لمحة عن رواد كل اتجاه لاستحالة ذكرهم جميعا.

ثالثا:نماذج عن الرحالة الأوربيين في الدولة العثمانية قبل فولني :

1/الرحالة الحجاج: هم رجال الدين الذين اهتموا بنشر الديانة المسيحية خاصة على المذهب الكاثوليكي، ولا يمكننا أن نتحدث عن الرحالة الحجاج دون ذكر:

1- ولد سنة 1577 م بجبل لبنان و توفي بباريس سنة 1648م، اختص في اللاهوت و اللغات الشرقية، درس العربية في جامعة روما، و عمل مترجما عربيا للملك الفرنسي لويس 13 سنة 1614 م كما عين أستاذا في الكلية الملكية الفرنسية، ألف عديد الكتب منها النحو العربي الذي نشر سنة 1616 م. أنظر موسوعة المستشرقين، عبد الرحمان بدوي، دار العلم للملايين، بيروت ، ط3، 1993، ص384.

2- رغبة الملك الفرنسي لويس 14 في تسهيل سياسته التوسعية بالمقابل انفتاح النخب السياسية العثمانية خلال هذه الفترة أكثر من أسلافها تجاه التدخلات الأجنبية. أنظر ثريا فاروقي ، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها ، تر، حاتم الطحاوي ، ط1 دار المدار الإسلامي ، 2008، ص145-146.

1-1-جريفين أفاغار Greffin_Affagart: هو رجل دين وأحد أثرياء مدينة ميتز Mains [1] الفرنسية و هو أول رحالة فرنسي زار مصر سنة 1534م بعد أن أصبحت ولاية عثمانية [2]. بدأ رحلته من الإسكندرية إلى رشيد ثم القاهرة فالقدس و عاد للقاهرة مجددا لزيارة سيناء و أثناء عودته انتشر الطاعون في البلاد فتوجه إلى دمياط، طرابلس[3] فسوريا، بيروت وبيت المقدس ثم إلى قبرص[4] و منها إلى بلاده [5]. ترك كتابا بعنوان:

<< Relation de la terre sainte 1533-1534 >>

شكل هذا الكتاب دليلا للأماكن المقدسة ، نشر لأول مرة سنة 1902 م[6] بعد أن بقي في نسخته الخطية مدة طويلة و هو ما لم يساهم في إيضاح الصورة عن مصر لدى الفرنسيين في القرن 16 م[7].

1-2- أندري تيفيه André thevet (1502-1590): ولد بمدينة **Angouleme** غرب فرنسا ، تلقى تربية دينية لطبيعة أسرته المتدينة غير أن هذا لم يمنعه من مطالعة الكتب التاريخية التي كان شغوفا بها منذ صغره جعلته يتوق إلى زيارة البلدان التي قرأ عنها في شبابه [8]. فزار ايطاليا و من البندقية كانت انطلاقته نحو الشرق في 23 جوان 1549 م باتجاه القسطنطينية التي وصلها في 30 نوفمبر من نفس السنة ليغادر ها نحو اليونان لزيارة آثار أثينا و منها إلى رودس التي تركها إلى مصر حيث قضى فيها شتاء 1551-1552م، و في ربيع 1552م غادر القاهرة إلى جبل

1- مدينة في غرب فرنسا عاش فيها الرحالة الفرنسي بيير بولون Pierre Belan

2- في الحقيقة أول رحالة زار مصر و هي ولاية عثمانية هو الرحالة ليون الإفريقي أو الحسن بن محمد الوزان الزياني الذي لقب بليو تيمنا بالبابا ليو العاشر الذي أجبره على اعتناق المسيحية زار مصر 1517 م، وصف مدن الوجه القبلي و البحري والتقى بالسلطان سليم في رشيد و في 1526م وضع مؤلفه وصف إفريقيا لينشر بالفرنسية سنة 1555 م و بالانجليزية سنة 1600م، ذهني الهام محمد علي ، المرجع السابق، ص52.

3- مدينة على ساحل المتوسط على مسافة 85 كلم إلى الشمال من بيروت، تسمى طرابلس الشام تعريفا لها عن طرابلس الغرب (ليبيا)، محمد فريد ، المصدر السابق، ص72.

4- جزيرة صغيرة في شرق المتوسط مهمة لمركزها الجغرافي بالقرب من سواحل الشام مصر و احتلالها ضروري لمن يريد بقاء هاتين الولايتين في حوزته، محمد فريد بك ، المصدر نفسه ، ص255.

5- ذهني الهام محمد علي، المرجع السابق، ص53 .

6 - Carré Jean marie, Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte, T1, Imprimerie de l'institut Français d'Archéologie Orientale, 1932, pp4.11

7- جون ماري كاري، تر: صونيا ملاح ، المرجع السابق، ص46-47.

8 - Carre Jean marie. Op.cit p4-11

سيناء فزار كنيسة القديسة كاترين قبل أن يتوجه إلى بيت المقدس في 05 ماي مرورا بسوريا عبر دمشق حلب[1] وطرابلس، ليقفل راجعا إلى فرنسا عبر محطات مختلفة في جزر المتوسط كقبرص رودس مالطا و صولا إلى ميناء مرسيليا في الجنوب الفرنسي.

و هو في فرنسا، نشر ملاحظاته حول هذه الرحلة في كتاب: **جغرافية الشرق Cosmographie de l'orient** سنة 1554م، لاقى به شهرة واسعة[2] رغم أن ما كتبه عن مصر في هذا الكتاب لم يتجاوز 100 صفحة إلا أنه ضمنها عادات و تقاليد المصريين وأشاد بالنظام الذي يتبعونه خاصة النظام الغذائي[3]" من دون إغفال الأهرامات التي أكد بأنها مقابر ملكية وهو تأكيد لرأي هيرودوت[4].

2/ الرحالة العلـــماء:

1-2 بيير بولون: Pierre Belan: (1518-1564م) دكتور طبيب بجامعة باريس، قام بزيارة إلى الشرق (اليونان- الخليل بفلسطين مصر-الجزيرة العربية) ما بين 1546-1549م قدم خلالها وصفا دقيقا عن مدينتي القاهرة و الإسكندرية و طريقة العيش فيهما. زار مصر بعد 30 سنة من التحاقها بالدولة العثمانية، حيث أشار إلى أن الدخول إليها لابد له من ضرورة التنكر بزي الرهبان كما فعل الأب Affagart لأن المصريين أكثر تسامحا مع رجال الدين منهم مع التجار و الرحالة الباحثين عن الكنوز و الأموال، كما يمكنهم ارتداء الثياب الشرقية.

ترجع أهمية ملاحظات **Pierre Belan** في كونها وصفت بدقة البيئات الطبيعية التي زارها فنشر كتابه عن الأسماك<< **Histoire des Poissons** >>سنة 1551م، و في 1555م نشر كتابه عن العصافير <<**Histoire.des Oiseaux**>>أما كتابه الثالث فكان عن الشرق **Histoire de l, Orient** عام 1555م.

3/ **الرحالة القناصل**: اتسم القرن 18 م باهتمام القناصل بالوثائق و المخطوطات المتعلقة بالشرق و قد أفادهم وظيفتهم في التجول بحرية في البلاد، و لعل في مقدمة هؤلاء الذين برزوا في النصف

1- حلب، مدينة سورية، للمزيد انظر، المبحث الثالث من الفصل الثاني لهذه الرسالة .

2 - Castacuzene Jean Michel-Frère, André Thevet 1516-1590, Biblos 15, pp.31-32.

3- جون ماري كاري، ، المرجع السابق ، ص49.

4- نفس المرجع، ص50.

الأول من هذا القرن نذكر :

3-1: بينوا دي مايه Benoit de maillet: (1656-1738م) نبيل من نبلاء إقليم اللورين بالشمال الفرنسي، عمل قنصلا بالقاهرة لمدة 16 سنة بدءا من سنة 1692م، ليعين سنة 1715 م مفتشا عاما لأساكل الشرق، تقاعد بمرسيليا أين نشر سنة 1735 [1] مذكراته بعنوان <<**وصف مصر**>>، و هو نفس العنوان الذي اقتبسه علماء الحملة الفرنسية سنة 1798م[2].

تعتبر مذكراته الواردة في جزئين محصلة لمشاهداته و تنقلاته في مصر و اكتشافه للآثار المصرية من مومياء ومخطوطات قبطية، وهو أول من دعا إلى ضرورة إخضاع هذه الآثار إلى دراسة علمية متخصصة مخاطبا مفتش البحرية الفرنسية في مرسيليا قائلا: " **إن المعابد الذهبية الجميلة ذات الألوان الزرقاء في مصر العليا تحتاج إلى كشف علمي بواسطة علماء لديهم حب الاستطلاع والمعرفة**"[3]. يعتبر كتابه من أهم المؤلفات التي ظهرت عن مصر في النصف الأول من القرن 18 م جاء في شكل رسائل بعدد 13 مقسمة إلى جزئين، ضم الجزء الأول دراسة طبيعية وجغرافية وتاريخية لمصر وأهم مدنها كالقاهرة و الإسكندرية، أما الجزء الثاني فقد تناول فيه بالدراسة مختلف مظاهر حياة المجتمع المصري .

تكمن أهمية كتابات De maillet في كونها جاءت من شخصية رسمية كانت لها علاقة مباشرة بدوائر الحكم سواء في مصر أو فرنسا ، كما أنها تناولت تاريخ مصر بالتفصيل في مختلف المراحل وفي مختلف المجالات إذ يعتبر دي مايه من الرواد المهتمين بالعمارة الإسلامية ما قبل العهد العثماني[4] .

- **القنصل مور** :من أهم القناصل الفرنسيين بعد دي مايه [5] ، تولى شؤون القنصلية في مصر

---

1 -Carré, op.cit, p66

2- ذهني الهام محمد علي، المرجع نفسه، ص86.

3 - Benoit de Maillet : Description de l'Egypte, l'abbé le Mascrier composée sur les mémoires de Mer. Maillet ancien Consul de France au Caire,Paris 1735 (p1 préface)

4- ذهني الهام محمد علي : المرجع السابق، ص 88

5- تولى قبله القنصل جوان فيل ما بين 1758/1752م ، ثم القنصل داميرا ما بين 1774/1759م ، المرجع نفسه ، ص 91.

خلال فترة حرجة من تاريخها 1789/1774م .

ترجع أهميته إلى الرسائل التي كان قد بعثها إلى السفير الفرنسي في الأستانة **شوا زيل غوفييه**[1]، والتي تعتبر مصدرا هاما عن أحوال مصر في تلك الفترة ، وهي محفوظة في أرشيف الخارجية الفرنسية ، وقد تم نشرها عام 1927م حملت عنوان :

Les Lettres De Mure Consul De France a Alexandrie a M. Le Conte De Choiseul-Gouf fier .Ambassade De France a La Sublime Porte

بلغ عدد هذه الرسائل ثمانية ، تناول فيها شؤون التجارة وتكشف الدور الذي لعبه القنصل مور في تسهيل عقد معاهدات تجارية بين فرنسا وبكوات المماليك، كما تضمنت آراؤه أهمية طريق البحر الأحمر و ضرورة استخدامه لفائدة مصالح فرنسا التجارية ، كما كشفت رسائله الوضع الداخلي المتردي لمصر بحديثه عن صراع بكوات المماليك وآثار ذلك على أحوال البلاد الإقتصادية[2] .

4/الرحالة الأكاديميون: تميز النصف الثاني من القرن الثامن عشر، و حتى بمجيء الحملة الفرنسية بظهور كتابات علمية دقيقة عن مصر أطلق عليها المؤرخ الفرنسي Carré " التحقيقات العلمية عن مصر" فكانت بمثابة النواة الحقيقية لعمل الحملة الفرنسية، ففي هذه الفترة لم يعد الشرق مجهولا أو غامضا كما كان يصفه رحالة القرن السادس عشر، بل أصبح واضح المعالم على يد رحالة اهتموا بأدق التفاصيل و على رأسهم:

4-1 / كلود إتيان سافاري Claude Etienne Savary: (1750-1785م) من مواليد مقاطعة Bretagne درس في كلية ران Rennes وسافر إلى مصر مابين 1776م و1778م[3] حيث مكث فيها ثلاث سنوات عاد منها إلى فرنسا سنة 1780م أين استقبله أحد أصدقائه السيد le Monier من أعضاء الأكاديمية العلمية بباريس ساعده في كتابة رحلاته و التي طبعت بتوصية من شقيق الملك لويس الخامس عام 1786م.

يقول في مقدمة كتابه:<< **Les lettres d'Egypte**>> بأن الرحلة و الأسفار هي أكثر

1- هو السفير الفرنسيFrancois- Hubert Drouais في الأستانة ما بين 1784 /1792م ، نفس المرجع ص 92.

2- الهام ذهني محمد علي ، المرجع السابق، ص 91 ، 92 .

3- اختلف في تحديد سنة رحلته، عد إلى Carré p80 و ذهني ص66 .

المدارس تثقيفا للإنسان ، جاءت ملاحظاته على شكل رسائل ، كتب أولاها في 24 جويلية 1777م بمدينة الإسكندرية ضمنها طريقة و أسلوب عمله بمصر مذكرا بالنصائح التي قدمت له من قبل مسئوليه قبل مغادرة باريس <<**أيها الشاب انك ذاهب إلى أرض غريبة، شاهد ناسا جددا، فلاحظ تأثير المناخ و الدين. من أجل تسهيل هذه الدراسة تعلم اللغات الشرقية اختلط باليونانيين، الأتراك، العرب، عش بينهم من أجل أن تراهم كما هم على حقيقتهم وطبيعتهم، اترك في فرنسا أحكامك، حاول أن تصف الشعوب على طبيعتها، فالتركي يشبه التركي و لا تذهب لتمثل باريس في قلب القاهرة**>> [1] .

نظرته لم تختلف عن باقي الرحالة الفرنسيين الذين رأوا في الدولة العثمانية دولة همجية حيث حمل الأتراك مسؤولية التغييرات التي حدثت ببعض البحيرات المتصلة بنهر النيل ، "**كل هذه التغييرات تعود إلى النظام التخريبي للأتراك**" [2].

جاءت كتاباته مطابقة شكلا و مضمونا لرسائل القنصل De Maillet ، مختلفة عنها في رونق الأسلوب الأدبي المتبع من قبل Savary ، غير أن اللافت للإنتباه أن كتابه لم يحظ بنفس الرواج الذي لقيته رسائل De Maillet أو كتاب فولني و ربما يعود هذا إلى وفاته المبكرة حيث فارق الحياة و هو لم يتعد السادسة والثلاثين سنة من عمره.

كانت هذه لمحة عن الرحالة الأوربيين بمختلف اتجاهاتهم، وان كان تركيزنا على الفرنسيين منهم لا ينفي وجود رحالة أوربيين من مختلف الجنسيات زاروا المشرق العثماني على غرار الإنجليزي **ادوارد بوكوك**[3] ذي أرسل إلى مدينة حلب السورية والتي أقام بها مدة خمس سنوات لمهمة دينية ، أتقن خلالها اللغة العربية، وتولى تعليمها في جامعة أكسفورد سنة 1636م والرحالة الدانمركي **كرستن نيبور**[4]، أرسلته حكومة بلاده في رحلة إلى مصر واليمن عام1761م مع

---

1 - Savary, op.cit, T1, préface.

2 - ibid., p 32.

3- هو مستشرق انجليزي(1691/1604م) ، تعلم في أكسفورد ، وعين قسيسا عام 1629م، له عدة مؤلفات أهمها المختار من تاريخ العرب ، وهو أول نص عربي يطبع في أكسفورد ، كما وضع معجما للغات السامية عام 1669م الزر كلي ، ج 1 ، ص 283 .

4- مستشرق ورحالة دانمركي الأصل وألماني المولد و النشأة (1815/1733م)، ، صنف بالألمانية كتابا في وصف بلاد العرب، طبعه في كوبنهاغن سنة 1772م وكتاب رحلة في البلاد العربية وما جاورها في مجلدين 1774/ 1778م، عين بعد رجوعه إلى الدانمرك مهندسا في أركان الحرب ثم مستشارا حقوقيا سنة1808م الزر كلي ، ج5 ص211 .

بعثة مات جميع أفرادها وبقي هو منفردا ، مر خلال رحلته بمسقط ، بغداد و الموصل ثم عاد إلى بلاده عبر الأستانة عام1757م لم يسمح لنا ضيق حجم الرسالة بالتفصيل في رحلاتهم.

الفصل الأول

رحلة فولني إلى مصر وسوريا

أولا : حياة فولني

ثانيا : رحلتـــه

ثالثا : كتـــابـــه

أولا:حياة فولـــني :

1-مولده ونشأته:

لا يمكننا الحديث عن رحلة فولني و مضمون كتابه دون معرفة تفاصيل حياته حيث يقول في هذا الشأن المؤرخ الفرنسي جون ماري كاري: <<**فولني هذه الشخصية الغريبة، لمعرفة و فهم رحلته إلى مصر و سوريا لابد من معرفته هو شخصيا بل و عن قرب أيضا**>>[1]

ولد قسطنطين- فرانسوا شاسبوف Constantin François Chassebeuf في 03 فيفري 1757 م بقرية كراون Craonبإقليم الماين غرب فرنسا [2] ، من أب محامي رفض أن يحمل ابنه اسم العائلة Chassebeuf فمنحه لقب بواجيريه [3] Bois girais، و به عرف الشاب قسطنطين في المدرسة.

أما عن لقبه فولني فيشير ذات المؤرخ إلى أنه أخذه قبل سفره إلى الشرق لحبه و تعلقه الشديد بالشاعر فولتير Voltaire الذي كان يعيش في مدينة Frenay فاختار الجزء الأول من اسم الشاعر (vo) و الجزء الثاني من اسم المدينة (Nay) فأصبح Volney، بينما نجد رواية أخرى في كتاب Œuvres Complètes حيث تشير إلى أن عم الرحالة هو من اختار له هذا اللقب قبل سفره إلى الشرق [4]. أدخل فولني مدرسة داخلية وهو في سن السابعة لمدة خمس سنوات كانت بدايتها مليئة بالمصاعب حيث رفض الطفل فرانسوا التأقلم مع نظام المدرسة و الإبتعاد عن البيت العائلي مما أثر سلبا على تحصيله العلمي غير أن هذا الأمر كان مؤقتا بفضل تقرب أحد معلميه إليه و حسن معاملته له فجعل الطفل يفجر طاقاته المكبوتة و يضمن تفوقه الدراسي إلى حين تخرجه [5].

بعد إنهائه المرحلة الابتدائية بنجاح، رجع الشاب إلى بلدته لمواصلة تعليمه بتفوق منقطع

---

1 - Carré Jean Marie, op.cit , pp 90-91.

2 -Œuvres Complètes de C.F Volney, T1, Bossange Frères Libraires, Paris 1921, P4.

3- والده جاك رينيه شاسبوف رفض منح ابنه اسم عائلته صياد البقر لخجله من معناه فمنح له اسم بواجيريه المصدر نفسه ص10، أنظر صورته في الملحق رقم 1، ص173 .

4 -Carré Jean Marie, p91 et Œuvres Complètes, p 11.

5 -Œuvres Complètes, op.cit, p6.

النظير[1]، وفي ظرف خمس سنوات تخرج فولني و هو ملم باللغات القديمة، حينها سلمه والده ارث أمه ليغادر الشاب الطموح إلى باريس و مع هذه المدينة، تفتح صفحة أخرى من صفحات الشاب Volney و تجعلنا نكتشف أوجها أخرى لهذا الرحالة.

2-ملامح من شخصيته : إن الرحلة مرتبطة دائما بما هو ظريف، غريب، مختلف مشوق و مناقض، و الرحالة دائما كان مولعا بالأسفار، مغامرا، متفتحا، متمكنا فالي أي حد توفرت هذه الصفات في رحالتنا فولني De Volney ؟

أ/فولني طالب العلم: كما سبقت الإشارة إليه، بدأ شغف فولني بالعلم منذ وجوده بالمدرسة الداخلية، ليزداد أكثر تعلقا بانتقاله إلى باريس و هو ابن (17) السابع عشر من العمر، هذه المدينة الكبيرة التي يزورها لأول مرة في حياته و عوض أن يأخذه تيار اللهو والعبث كبقية أقرانه من الشباب ، انكب فولني على الدراسة و المطالعة فكان يقضي كل وقته بين الكتب و المكتبات العمومية، كان يقرأ بنهم الكتب القديمة لاسيما كتب التاريخ و الفلسفة.

في هذا الوقت ، ظل والده المحامي يلح عليه اختيار مهنة لمستقبله .إذ كان يرغب في أن يختار وريثه مهنة المحاماة، لكن الشاب الطموح كان أبعد من أن يغري طموحه وشغفه هذا المجال فاختار دراسة الطب لأن فيها الكثير من الإكتشافات و الإجابة على الكثير من التساؤلات التي تخص الذات البشرية[2]، ليتخرج من كليتها بعد ثلاث سنوات و من دون أن يمارس مهنة التطبيب لاحقا، بل سيوظفها فقط في رحلاته إلى الشرق العثماني و الغرب الأمريكي كتحديد أسباب الأمراض وأعراضها و طرق الوقاية منها.

رغم دراسته للطب إلا أن اهتمامه بالتاريخ القديم جعله ينكب على دراسة مثل هذا النوع من الكتب بنهم كبير، فتمكن من تقديم دراسة أولية عن هيرودوت بعنوان La Chronologie[3] de Hérodote مكنته من الإحتكاك بكبار المؤرخين و الباحثين، بل وحتى إلى حضور الصالون الأدبي و العلمي الذي كانت ينظمه كبار الأدباء بباريس، ليصبح هذا الشاب الباحث في التاريخ واحدا من رواده[4].

1- يشير Carré في الصفحة 91 إلى أن والده هو الذي أرجعه بينما كتاب Œuvres Complètes يشير إلى أحد أعمامه الذي أشفق على إبعاده عن البيت العائلي مما أثر على نفسية الطفل فولني فأصبح انطوائيا، ص6.

2 -Œuvres Complètes, op .cit , P07.

3- اعتبرها فولني مقدمة لأبحاثه في التاريخ القديم و التي سيعيد نشرها مع بعض الإضافات سنة 1814.

4 - Carré Jean Marie .op.cit, p92

ب/فولني الرحالة: إن الإهتمام المبكر لفولني باللغات الشرقية القديمة و مطالعته لكتب هيرودوت ووصفه لسحر الشرق[1]، جعل الشاب فرانسوا يتوق إلى زيارة هذه الأماكن بل والوصول إلى المزيد من الإكتشافات عن هذا الشرق القديم المعلوم المجهول، فكانت رحلته الأولى إلى مصر وسوريا موضوع بحثنا هذا، توجها بنشره كتابا سنة 1787 م يحمل عنوان:

voyage en Syrie et en Egypte pendant les Années 1783.1784.1785

أما رحلته الثانية فكانت إلى العالم الجديد و بالتحديد إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1795 م بعدما أطلق سراحه من سجن كانت مدته عشر أشهر و هو ما يشير إليه في مقدمة كتابه عن الولايات المتحدة الأمريكية قائلا:<<**قررت الذهاب إلى أمريكا الحرية لنسيان ما لحق بي من أبناء عمومتي ولاكتشاف الحرية بها**>>[2]

اعتبرت هذه المرحلة بداية استرجاع فولني لحب المغامرة و الإكتشاف الذي تمتع بسحرهما أثناء رحلته للشرق ، ولكن بشعور وإحساس مختلفين عن رحلته الأولى، فالرحلة الأولى نحو الشرق كانت من أجل الإكتشاف، بينما الثانية فكانت هروبا من ذكريات السجن بالإضافة إلى مراقبة الولايات المتحدة و هي تتوجه بخطوات ثابتة نحو الحرية و الإستقلال.

كل هذا يعترف به فولني في مقدمة كتابه المذكور :

<<هذا الكتاب الجديد هو ثمرة ثلاث (03) سنوات من رحلتي و إقامتي بالولايات المتحدة التي تمت في ظروف مختلفة سواء من حيث الزمن أو حالتي الذهنية عن سفري إلى تركيا. لما غادرت مرسيليا سنة 1783 م ، كان بمحض إرادتي و بثقة سن الشاب و حيويته، غادرت طواعية بلاد الوفرة والأمن لأعيش في بلد البربرية والبؤس، ليس لسبب إلا من أجل أن أصل إلى معارف جديدة و لتجميل ذكريات عمري.بالعكس تماما في 1795 م لما غادرت كان بشعور الألم والكآبة عن المصاعب وتجربة الظلم .أنا حزين من الماضي، مرتاب من المستقبل، ذهبت وأنا فاقد لثقتي بنفسي إلى شعب حر لأرى هل لصديق الحرية الحقيقي أن يجد وهو في شيخوخته منفى من السلام لم تعد أوربا تمنحه الآمال في هذه الظروف و الأوضاع، زرت و بنجاح تقريبا

1- أطال هيرودوت البحث المدقق عن مصر و أحوالها و أوصافها و لم يكن يكتف بما كان يسمع من ألسنة الناس و أقاويل العامة بل لكي لا يذكر إلا الحقائق، عاشر الكهنة....تاريخ هيرودوتس الشهير، ، المصدر السابق، ص1.

2- أشار فولني في كتاب Tableau du Climat et du sol des Etats Uni d'Amérique إلى بقائه 10 أشهر في السجن .

كل مناطق الولايات المتحدة دارسا فيها المناخ، القوانين، السكان و عاداتهم، هذه هي كل ملاحظاتي وأفكاري>>[1].

أثناء تواجده بأمريكا، التقى بالرئيس جورج واشنطن[2] وفي سنة 1798 lغادرها – بعدما كان يفكرفي الاستقرار نهائيا فيها- اثر انتقاده لكتاب القاضي جون أدامس[3] الذي تولى الرئاسة خلفا لواشنطن، الأمر الذي جعل فولني ينصح الفرنسيين الراغبين في الإستقرار في هذا البلد بتغيير فكرتهم.من خلال كتاب الولايات المتحدة لاحظ فولني و انطلاقا من تجربته و تجربة الكثير من الفرنسيين المستقرين بالولايات المتحدة، طبيعة الثروات التي من الممكن أن يستفيد منها الفرنسيين معترفا بغرابة أرائه لأنه و من بعد أن كاد يستقر نهائيا بهذا البلد غير فكرته: <<**لا أشجع أبدا الفرنسيين الحذو مثلي، السبب واضح: إن هذا البلد بقدر ما يقدم من إغراءات و تسهيلات للإنجليز ، الأسكتلنديين ، الألمان وحتى الهولنديين لطبيعة النظام الديني والفكري لهذه الشعوب، بقدر ما يقدم عراقيل و صعوبات للفرنسيين بسبب اختلاف اللغة ، القوانين، العادات و حتى الميول .أقولها بكل أسف، أبحاثي لم تقدني إلى إيجاد تلك الروابط والإعتبارات الأخوية مع الإنجليز والأمريكان التي أسمعنا عنها الكثير من الكتاب، أظن بالعكس أنني لاحظت احتفاظهم بالكثير من الأفكار المسبقة**>>[4] أرجعها فولني إلى حرب السبع سنوات[5]، و لهذا السبب فهو يتوقع كثرة الإنتقادات لكتابه لا سيما من قبل المهتمين المباشرين أي الأمريكان الذين و حسب رأيه في غالبيتهم ينتقدون أي شيء من أوربي [6].

ج/ فولني السياسي: كان لرحلة فولني إلى الشرق أثرا كبيرا في حياته، بل وتعتبر منعرجا حاسما فيها، إ ذ وبعد أشهر قليلة من نشره كتاب الرحلة إلى مصر و سوريا سنة 1787م، عين

---

1 - Volney, Tableau, op.cit., p1,2 .

2- هو أول رئيس للولايات المتحدة 1797/1776م، ركز في سياسته على فكرة الوحدة والقومية الأمريكية عبد الفتاح حسن أبو علية، تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة، دار المريخ للنشر، الرياض 1987 ، ص73.

3- خلف الرئيس جورج واشنطن على كرسي الرئاسة ، كان قاضيا قبل أن ينتخب رئيسا ثانيا للولايات المتحدة1797 / 1801م ، عرف بترعته الإستقلالية ، المرجع السابق، ص74.

4 - Volney, Tableau, op.cit, pp 8-9

5- هي حرب أوربية بين فرنسا وبريطانيا حول المستعمرات دامت سبع سنوات1763/1756م، انتهت بهزيمة فرنسا ، الموسوعة الكبرى لتاريخ الشعوب وحضاراتها:القرن18م في أوربا وفي العالم ، ج15-16 وهيب أبي الفضل ، ط1، مركز الشرق الأوسط الثقافي ، بيروت ، 2012، ص42.

6 - Volney, op.cit, p21.

مديرا عاما للفلاحة و التجارة بجزيرة كورسيكا، غير أنه سرعان ما استقال من منصبه بسبب الثورة الفرنسية المندلعة عام 1789م، ليتم اختياره نائبا في الجمعية الوطنية الفرنسية، أين تألقت شخصية السياسية لما حملته من أفكار تدعو إلى الحرية و المساواة، كانتقاده في الجمعية الوطنية لفكرة حق الملك في إقرار السلم أو الحرب، معتبرا هذا الأمر من صلاحيات الأمة الفرنسية وحدها حيث قال :<< **إن الأمة الفرنسية تمتنع في هذه اللحظة الدخول في أي حرب تزيد من شساعة أراضيها**>>[1] وهو الإقتراح الذي صادق عليه الأعضاء بالإجماع .

نتيجة لمواقفه الرافضة للفوضى التي دخلت فيها الثورة الفرنسية أو ما اصطلح على تسميته بعهد الإرهاب، ألقي عليه القبض سنة 1792 م بتهمة معارضته لمبادئ الثورة و لم يطلق سراحه إلا في 28 جويلية 1794 م[2] ليغادر فرنسا نحو أمريكا كما سبق ذكره و لم يرجع إلا عام1798 م تاريخ الحملة الفرنسية على مصر إذ دعاه نابليون[3] إلى مرافقته لمصر خاصة بعد الرواج الذي لاقاه كتابه حول مصر وسوريا ليكون دليلا للحملة الفرنسية إلا أن فولني اعتذر، كما اقترح عليه فيما بعد منصب وزير للداخلية غير أن فولني لم تكن لديه نية العودة للمجال السياسي ولكن رغم هذا واعترافا بدوره في الثورة الفرنسية ، تم تعيينه نائبا في البرلمان [4].

تجدر الإشارة هنا ، إلى أن علاقة الرحالة فولني بنابليون تعود إلى فترة سابقة لما كان فولني مديرا عاما للفلاحة بكورسيكا، وكان نابليون حينها ضابطا في سلاح المدفعية قد حرم من رتبته العسكرية فتوسط له فولني بفضل اتصالاته ومعارفه وتمكن من تسوية وضعيته بإعادته للحياة العسكرية [5]. غير أن هذه العلاقة سرعان ما توترت بين الرجلين، إذ تمسك فولني بآرائه الصريحة حول الحرية والمساواة جعلته يرفض قرار نابليون ويعلن معارضته له في تنصيب نفسه إمبراطورا

---

1 - Œuvres Complètes, op.cit, P 101-102.

2 - Life of C.F Volney, Author of the Ruins of Empires, Lectures on History, 2 Edition, London, 1840, P6.

3- ولد في أجاكسيو عاصمة كورسيكا في 15أوت1769م من أسرة نبيلة ، ايطالية الأصل، تقلد منصب القنصل الأول في الجمهورية الفرنسية الأولى1799م ثم أصبح إمبراطورا لفرنسا مابين1804/1814م، عرف بحروبه التوسعية في أوربا والمشرق العربي، توفي بمنفاه في جزيرة سانت هيلانة في 05ماي1821م ، يوسف سعد، نابليون بونابرت، ط1، المركز العربي الحديث، 1988، ص5-45.

4 - León Séché ,Volney ,1757.1820 ,Librairie Historique Des Provinces ,Paris, 1899 ,p175

5 - Œuvres Complètes, op.cit, P128-129.

حيث صرح: <<**من الأحسن أن نستدعي آل بوربون من جديد >>** [1]

إن دعم فولني للثورة الفرنسية ، جعله أيضا وبنفس الحدة يعيد في 4 ديسمبر 1791 م الميدالية الذهبية التي كانت منحتها له إمبراطورة روسيا كاثرين الثانية [2] Catherine II كتكريم له، عقب النجاح الباهر الذي حققه كتابه حول الرحلة إلى مصر و سوريا في جانفي 1788 م وهذا كرد فعل منه على موقفها المعادي من فرنسا الثورة، أرفقها برسالة هذا مقتطف منها: **<<...إن حماية الإمبراطورة و دعمها المقدم لأعداء وطني لا يسمحان لي بأن أبقي هذه الميدالية بين يدي...>>**[3].

اهتمامات فولني بالسياسة لم تقتصر على الشأن الداخلي لفرنسا بل تعدته إلى ما يحدث في العالم حينئذ من تغيرات وأزمات سياسية و عسكرية لاسيما الحرب الدائرة بين العثمانيين و الروس، و هو ما عالجه في كتابه الصادر سنة 1788 م بعنوان:

Considérations sur la Guerre Actuelle des Turques .

وظف فيه كل معارفه عن الدولة العثمانية التي استقاها من رحلته إلى مصر و سوريا، لذا اعتبره الكثير من النقاد دعوة صريحة و مسبقة بعشر (10) سنوات لفرنسا من أجل احتلال مصر و غزوها.

رغم أهمية الكتاب الذي لاقى صدى واسعا لاسيما عند الطبقة السياسية أجبره على إعادة طبعه سنة 1808م، إلا أن فولني و كتابه لم يسلما من المعارضين الذين عابوا عليه عدم ذكر و شرح خطورة طرد العثمانيين من أوربا على يد روسيا التي ستنفرد بريادتها وهو ما يشكل خطرا على مصالح فرنسا التوسعية في المنطقة .

د/ فولني المفكر و الفيلسوف: إن الدارس لشخصية الرحالة فولني يستخلص ومن البداية، المنهج الفلسفي لهذه الشخصية التي أخذت اسمها من اسم المفكر و الفيلسوف والأديب الفرنسي

---

1 - Life of C.F Volney, op.cit, p,08

2- هي ألمانية الأصل ، توجت إمبراطورة لروسيا بعد عزلها لزوجها الملك بطرس الثالث عام1762م، توفيت عام 1797م.اشتهرت بحبها للعلم ومساعدتها للعلماء على بث معارفهم في بلادها ، كما عرفت بحروبها ضد الدولة العثمانية فاستولت على بلاد القرم، واقتسمت بولونيا مع النمسا وبروسيا ، تاريخ الدولة العلية العثمانية المصدر السابق ، ها، ص330 وهيب أبي الفضل ، المرجع السابق ، ج7، ص136-139.

3- أنظر مضمون الرسالة كاملة و بلغتها الأصلية في الملحق رقم 02 ، ص 174.

فولتير Voltaire [1] بل بدا تأثره بأفكاره جد واضح من خلال تأييد دعوته للتخلص من قيود الكنيسة المسيحية والأسر الحاكمة.

برزت شخصية فولني المفكر والفيلسوف منذ شبابه، فاهتم كثيرا باللغات الشرقية القديمة أصولها ، تطورها و أسباب زوالها، بل واقترح كيفية تعلمها بحروف أوربية وهذا في كتابه الصادر سنة 1795 م بعنوان **Simplifications des Langues Orientales**، اقترح فيه كيفية تعلم اللغات الشرقية باستخدام الحرف الأوربي لاسيما العربية، الفارسية و التركية، ناقلا تجربته الخاصة و الناجحة في تعلم اللغة العربية. اختص فولني بدراسة اللغات الشرقية و تعمق فيها إذ يقول في خطابه الموجه إلى الأكاديمية الفرنسية في ديسمبر 1819م:<< **ساداتي، أطلق تسمية الدراسة الفلسفية للغات، على كل بحث متعلق باللغات عموما يشرح كيف ظهرت و كيف تشكلت، كيف نمت و تكونت كيف اتسعت و كيف انقضت وزالت... كل بحث يبين خصوصيات اختلافاتها، يبين أصولها، هذه اللغة التي تسمح بإخراج الأفكار و تحويلها إلى أصوات عبر الفم**>>[2]. هذا الإهتمام بالشرق وحضارته جعله يخصص في وصيته الأخيرة مبلغا ماليا قدره24 ألف فرنك لتأسيس جائزة سنوية من أجل تكريم أحسن البحوث في هذا المجال سميت باسمه بعد وفاته التي صادفت تاريخ25 أفريل 1820، وبأن يدفن في قبر بشكل الأهرام[3].

إن قيمة فولني الفكرية برزت بشكل أوضح أثناء تعيينه أستاذا للتاريخ بالأكاديمية الفرنسية سنة 1794 م حيث كانت دروسه المقدمة خارجة عن المألوف أكسبته شهرة بين طلبته، فأكد و بنظرة فلسفية غياب التأكيد المطلق في الدراسة التاريخية بل و استحالتها مع إصراره على ضرورة فتح المجال أمام تغيير الأفكار بوصول أخرى تحمل حقائق جديدة[4].

1- شاعر ومفكر وفيلسوف فرنسي، من رواد عصر التنوير بأوربا، (1778/1694م)، من دعاة الحرية والمساواة اشتهرت كتاباته في القرن الثامن عشر بالهجوم العنيف على الأنظمة الملكية السائدة آنذاك كما دعى إلى ضرورة التحرر من قيود الكنيسة ورجالاتها ، عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوربي و الأمريكي الحديث دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1992، ص296، 297، أندري كرسيون، فولتير حياته، آثاره وفلسفته، تر، صباح محيي الدين ، ط2، منشورات عويدات، بيروت، باريس، 1984، ص10، 15.

2 - Volney, Discours sur l'Etude Philosophique des langues, lu à l'Académie Française, Décembre 1819, 4eme édition, Bossanges, Libraire, Paris, 1821, P03.

3 - León Séché ,op ,cit ,p176 .

4 - Œuvres complètes, op.cit, P30.

اهتم فولني بفلسفة تعاقب الحضارات و زوالها من خلال كتابه الصادر عام اندلاع الثورة الفرنسية 1789 م بعنوان: **Les Ruines, ou Méditation sur les Révolutions des Empires**[1]. في هذا الكتاب ، استحضر فولني الحضارات القديمة و هو بين آثار مدينة تدمر[2] التاريخية فتساءل عن سبب سقوط و أفول كل الحضارات القديمة التي مرت بها رغم قوتها العظيمة التي كانت توحي بخلودها، هذه الحضارات التي لم تقبل الخضوع إلى قانون الطبيعة الذي يريد أن يزيل كل شيء. في هذا الكتاب تساءل فولني عن كيفية تشكل الحضارات، نموها وأفولها ، كما دعى إلى ضرورة التسامح الديني الذي باتت تطالب به كل العقول المتفتحة، مع ضرورة تقبل اختلاف الآراء بكل شفافية و هو ما آثار موجة انتقاد كبيرة له و لمؤلفه من قبل التيار المحافظ ففولني يعترف بأن هذا الكتاب ليس نتاج فوضى الفكر بل هو حب التفكير في الأمن والإنسانية[3] لاسيما بعدما شاهده من مناظر الشقاء في الدولة العثمانية، لكن الدارس لكتاب فولني الأول، أي الرحلة إلى مصر يلمح بوضوح التناقض الذي وقع فيه مع كتابه هذا ففي الأول بدا فولني متعصبا ناقما على الإسلام و المسلمين محملا إياهم مسؤولية تخلف الشرق كله، بينما في الثاني يدعو إلى ضرورة التسامح؟

يقول في كتابه **Les Ruines**: **<< في السنة الحادية عشرة من حكم السلطان عبد الحميد[4] بن أحمد[5] السلطان العثماني ، سافرت إلى الإمبراطورية العثمانية و تنقلت في مقاطعات ولايتي مصر و سوريا مبديا كل اهتمامي فيما يخص سعادة الناس في حياتهم**

---

1 - Volney, Les Ruines, ou Méditation sur les révolutions des Empires, Desenne Vollant-plosan Libraires, Aout 1791.

2- Palmyre واحة تقع في الصحراء السورية، تقع إلى شمال شرق دمشق، اشتهرت بآثارها الرومانية القديمة فأثارت اهتمام الجغرافيين العرب في القرون الوسطى، كما أثارت اهتمام الرحالة الأوربيين بها منذ القرن 18م سورديل ، تر ، أ الحكيم، الدار اللبنانية للنشر الجامعي ، 2009 ، ص278، 279.

3 - Volney, Les Ruines, op.cit , Préface.

4- هو عبد الحميد الأول، ابن السلطان أحمد الثالث، ولد سنة 1724، تولى الحكم سنة 1774 بعد وفاة أخيه مصطفى الثالث، شهدت فترة حكمه اندلاع الحرب الروسية – العثمانية، و توقيع معاهدة كوجه كينا رجه 1774 م، توفي سنة 1789، محمد فريد، المصدر السابق، ص340-341-362.

5- هو أحمد الثالث ابن السلطان محمد الرابع، تولى الحكم سنة 1703 بعد وفاة أخيه السلطان مصطفى الثاني، شهدت فترة حكمه التوقيع على معاهدة بساروفيتش 1718 و كذا إدخال المطبعة إلى الأستانة، تم عزله سنة 1730، نفس المصدر، ص 311-312-316-319.

الاجتماعية . زرت المدن و درست عادات و تقاليد السكان، دخلت القصور ولاحظت تصرفات من يحكمون، كنت أبتعد إلى القرى و الأرياف لألاحظ حياة الفلاحين وماكنت ألاحظ إلا السرقة و البؤس و الشقاء والطغيان، قلبي كان يعتصر من الألم و السخط .في كل يوم كنت أجد على طريقي بين الحقول المتروكة، قرى مهجورة، مدن مخربة كالآثار، أحيانا كنت ألتقي آثارا قديمة، أديرة، قصور مقابرو هذا ما جعل فكري يتبنى تصور و تخيل للوقت الماضي لما وصلت مدينة حمص [1] على نهر العاصي[2]، هنا قارنتها بتدمر الواقعة في الصحراء..[3]>>

اشتهر فولني بانتقاده لأفكار معاصريه من فلاسفة ومفكرين ، كما فعل مع المفكر الفرنسي مونتسكيو الذي انتقد نظريته المتعلقة بتأثير المناخ الحار على الإنسان ودوره في تخلف سكان الشرق ، فتسائل فولني في كتاباته –موضوع الدراسة– عن سر وجود أعظم الحضارات الإنسانية وأقدمها في الشرق رغم أن المنطقة هي حارة مناخيا ، مفندا بذلك هذه النظرية ومبديا أسبابا في رأيه مقنعة لهذا التخلف والمتمثلة في استبداد طبيعة الحكم السائد [4].

ه/**فولني عالم الإجتماع** :أولى فولني اهتماما بالغا بمعرفة ودراسة أصل الأجناس البشرية، ونلمح هذا بوضوح جلي في مناقشته لأصل سكان مصر فاعتبرهم من الزنوج السود، سكان إفريقيا الأصليين، وبين أن دمهم امتزج بدماء الرومان واليونانيين مما أفقده حلكته الأولى واستبقى ما يدل على طابعه الأصلي وهو ما نجده عند الأقباط اليوم، من بشرة صفراوية دخانية اللون التي ينميها الأصل اليوناني ، والوجه المنتفخ والأنف المفلطح والشفة الضخمة الموروثة عن الزنوج.فرأس أبي الهول حسب فولني هي رأس زنجي بكل تقاسيمه[5].

1- مدينة سورية قديمة على نهر العاصي اسمها الروماني emsa ، تبعد عن دمشق ب170كم وعن طرابلس اللبنانية ب100كم، دخلها الإسلام بعد معركة اليرموك على يد خالد بن الوليد في 13ه/634م، احتلها الصليبيون من السلاجقة عام491ه/1098م، العفيفي عبد الكريم، المرجع السابق، ص207 .

2- النهر المقلوب، الأورنت ، أو العاصي، لأنه يجري من الجنوب إلى الشمال عكس اتجاه أ نهار المنطقة .ينبع من أعالي سهل البقاع بلبنان. يجري في كل من حمص ، حماة ، أنطاكية، الإسكندرونة ليصب في المتوسط.يبلغ طوله571كم ، منها 46كم في لبنان و525كم في سوريا وتركيا

3 - Volney, Les Ruines, op.cit , P 1-2-3.

4 - Volney, voyage en Syrie et en Egypte, t2, p

5- فولني، تر، ادوار البستاني، ثلاثة أعوام في مصر و بر الشام، الجزء الأول، منشورات دار المكشوف، ط2 بيروت، ص61، 62.

يعتبر فولني الأقباط هم السكان الأصليين لمصر، ينحدرون من تزاوج عبقرية المصريين العميقة مع الفكر الإغريقي الساطع.

إن هذا الشعب الأسود الذي هو اليوم هدفا لعبودية الرجل الأبيض وموضوع احتقاره ، هو نفسه –يشير فولني –الذي تدين له أوربا خاصة والبشرية جمعاء بأسبقية العلوم ، الفنون و الحرف منتقدا في نفس السياق أوربا الزاعمة للحضارة و الحرية ، واصفا إياها بأكثر العبوديات همجية مستهزئا من إثارتها لمسألة ماذا كان الجنس الأسود يماثل الجنس الأبيض في الذكاء [1].

و/فولني المؤلف: ترك فولني عديد المؤلفات والمقالات تنوعت بين التاريخ، الفلسفة وعلم الاجتماع حاولنا حصر أهمها مع احترام تسلسل صدورها.

1- Mémoires sur la Chronologie d'Hérodote :

كانت هذه المذكرات أولى كتاباته، نشرها عام1781م ، لكنها لم تعجب أعضاء الأكاديمية العلمية بباريس لما حملته من انتقاد لهيرودوت وأفكاره خاصة حول مصر معتبرا أن الوقت قد حان لفتح الأبواب أمام معارف جديدة بإمكانها تغيير المعارف القديمة التي سيعمل على إحداثها بزيارته لمصر وسوريا.

2- Voyage en Syrie et en Egypte pendant les Années 1783, 1784, 1785

يعتبر هذا الكتاب وهو موضوع دراستنا من أهم مؤلفات فولني على الإطلاق، قام بإصداره عام 1787م.اعتبره النقاد و المؤرخون كتابا موسوعيا لغزارة معلوماته وتنوعها بشموليته لمجالات عدة كالتاريخ ، الجغرافيا ، المناخ ، علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا و السياسة .

3 - Considérations sur la Guerre Actuelle des Turques

صدر في عام 1788م، تناول فيه الصراع القائم بين الأتراك والروس خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وانعكاساته على العلاقات الدولية في أوربا.

4 - Les Ruines, ou Méditation sur les Révolutions des Empires

صدر هذا الكتاب عام اندلاع الثورة الفرنسية 1789 م، عام كانت تشهد فيه فرنسا جملة من التغيرات الجذرية التي أضفت بظلالها على مستقبلها و مستقبل العالم أجمع.تناول فيه فولني وبمسحة تأملية فلسفية مآل الحضارات الإنسانية ومصيرها بعد مدة طويلة من السطوع والتألق متخذا من آثار مدينة تدمر القديمة مسرحا لتأملاته وتخيلاته . تساءل في هذا الكتاب عن مصير

1- فولني ، المصدر السابق ، ص63.

ومستقبل فرنسا بعد التغيير الذي بدأت تعيشه، متخوفا من أن يكون مصيرها كمثل هذه الحضارات المتهاوية.

Tableau du climat et du sol des Etats-Unis d,Amerique -5

هو نسخة طبق الأصل من كتاب الرحلة إلى سوريا ومصر في محتوياته وفصوله وطريقة معالجته لمختلف الظواهر، تضمن وصفا شاملا للولايات المتحدة الأمريكية من حيث الطبيعة التضاريس والمناخ وتأثيرهم على تمركز السكان ، وضعهم الصحي وأنشطتهم الإقتصادية. من بين كل هذه المؤلفات يبقى كتاب الرحلة إلى مصر و سوريا من أهم روائع فولني ليس لأن المنطقة التي زارها عربية و تخص المجال العثماني، بل لطبيعة الطرح و نوعية الأفكار التي تضمنها كتابه. انطلاقا من كل هذه المؤلفات ، نلاحظ تنوع مضامينها كدليل على ثراء شخصية فولني ومعه تأكيد على أهمية الشرق كمنبع للحضارات الإنسانية.

ثانيا : رحـــــــلته:

جاءت رحلة فولني إلى سوريا ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، أي في ظروف أقل ما يقال عنها مليئة بالتوتر بين فرنساوالدولة العثمانية الذي وجه مسار العلاقة الثنائية بين الطرفين طيلة هذا القرن و حتى حملة نابليون على مصر في 1798م.

إن الحضور الفرنسي في الشرق العثماني خلال هذا القرن ناتج بالأساس عن طبيعة السياسة التقليدية التي ربطت فرنسا و الدولة العثمانية سنة 1535م و معاهدة الامتيازات المبرمة بين الطرفين [1] فطيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر و إلى غاية منتصف القرن الثامن عشر كانت فرنسا سياسيا الحليف الأوربي الإستراتيجي للباب العالي [2]، كما ظل الفرنسيون اقتصاديا يحتلون المكانة الأولى في الشرق مدعومين بهيئة دبلوماسية كبيرة مشكلة من السفراء و القناصل[3] أما دينيا، فظلت الحماية الفرنسية للمسيحيين وللأماكن المقدسة ثابتة، بالمقابل فقدت الدولة

1- مجلة التاريخ العربي، مصطفى الغاشي، الرحالة الفرنسيون و الدولة العثمانية، العدد 45، د.ت.د.ص.

2- هو مقر رئيس الوزراء أو الصدر الأعظم في الدولة العثمانية، أنشأه السلطان محمد السادس سنة 1654م وأطلق فيما بعد اسم المكان على ساكنه و هو الوزير الأعظم ، سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات التاريخية ، مكتبة الملك فهد، الرياض ، 2000 ص49.

3- إن السفارة الفرنسية بالشرق العثماني فضلا عن دورها الدبلوماسي، كانت بمثابة مركز للدراسات الأدبية العلمية والأثرية حول الشرق، فممثل الملك كان سفيرا و لأنه أيضا كان مدير بعثة علمية، مجلة التاريخ العربي، المرجع السابق د.ت.

العثمانية و من ورائها كل ولاياتها العربية الكثير من هيبتها و مكانتها لاسيما و أن حروبها وصراعاتها زادت اتساعا و خطورة مع دول الجوار (روسيا و النمسا) اللتين ألحقتا خسائر فادحة بالدولة العثمانية.

في مثل هذه الظروف، لفت المشرق العثماني بثرواته الإقتصادية و مكانته الدينية أنظار أوربا عامة و فرنسا خاصة، التي وجدت فيه البديل المثالي عما فقدته في حروبها الأوربية لاسيما حرب السبع سنوات. فكانت بذلك مصر و من ورائها المشرق محور اهتمام الفرنسيين و محط أنظارهم في هذا القرن[1] .

1 – دوافعـــها: في ظل هذه الظروف الدولية جاءت رحلة فولني حاملة بين طياتها الكثير من الدوافع، المعلنة منها و الخفية، كشف فولني اللثام عن البعض منها في كتاباته، بينما بقي البعض الآخر محاطا بالسرية التامة لكونه يمثل جزءا من أسرار الدولة الفرنسية .

1-1الدوافع الذاتية: ظل الشرق بسحره الغامض والى غاية القرن الثامن عشر مصدرا للثراء المادي والمعنوي لذا لم يختلف فولني الرحالة عن بقية رحالة عصره الذين رأوا في الرحلة إلى هذا الجزء من العالم القديم وسيلة للكسب والشهرة، و هو ما صرح به << **غادرت بلدا من الوفرة و الأمن....لتجميل بقية عمري بهالة من الإعتراف و التقدير**>>[2]، وكان هذا الحلم بالمجد و الشهرة يراود فولني حتى من قبل نشره الكتاب و هو ما أشار إليه الحسنات في مقاله: " **كتب فولني في كتابه اليومي: لما وصلت من رحلتي إلى الشرق، سمعتي أصبحت ساحرة، أصبحت محط الأنظار و التجمعات، كانوا يسألونني و أنا كنت مستمتعا**" [3].

1-2 الدوافع العلمية: تبدو رغبة فولني في الوصول إلى معارف جديدة عن الشرق بكل تفاصيله، من أهم الدوافع التي أعلن عنها في مقدمة كتابه –مضمون هذه الدراسة– خاصة و أنه يعتبر الحقائق التاريخية غير ثابتة بل هي مفتوحة أمام كل جديد قادر على تغييرها، حيث يقول: <<**غادرت بلدا من الوفرة و الأمن لأذهب و أعيش في بلد البربرية و البؤس، ليس لسبب**

1– ذهني الهام محمد علي، مصرفي كتابات الرحالة في القرن 18 م، المرجع السابق ، ص9، 10.

2 - Volney, Voyage en Syrie et en Egypte, P 21-22

3 - Mohamed Abdelmadjid Al Hasanat :, La Représentation de la Syrie dans le voyage en Egypte et en Syrie en 1787 de l'Idéologue, Dirasat, Humain and Social Sciences, Volume 32, Numéro 2, 2005, P 472.

إلا لتوظيف حيوية عمر الشباب الحائر للوصول إلى معارف جديدة>>[1].

كما يظهر شغفه بالسفر لما فيه من فوائد بارزة حيث كتب يقول: << **منذ خمس سنوات، قدر لي أن أحصل على مقدار من المال عن طريق الإرث فتملكتني الحيرة في كيفية استعماله فنصحني البعض من أصدقائي بالاستمتاع به في حين نصحني البعض الأخر بتوظيفه للانتفاع به، غير أنني رجعت لنفسي وصممت على السفر لأنني رأيت في ثروتي وسيلة جديدة لإرضاء نزعتي و فتح آفاق أوسع لثقافتي فالسفر كما قرأت هو أنجع الوسائل لتجميل العقل و تهذيب قوته>>**[2]، و هو بهذا يتفق مع مواطنه الرحالة سافاري في التأكيد على أهمية السفر بالنسبة للإنسان.

1-3الدوافع الفكرية: إن المتصفح لمقدمة كتاب فولني ، يستخلص منها دوافع رحلته إلى هذا الجزء من الفضاء العثماني ، وبما أنه كان تواقا إلى كل معرفة جديدة ، نجده يقر بأن بلاده والدول المجاورة له لم تكن تشكل ذلك الفضاء المغري للإستطلاع[3]، لأنه يعرفها جيدا أومن السهل التعرف عليها عكس الولايات المتحدة الحديثة النشأة مثلا ، والتي أغرته بأدغالها غير أنه كان مهووسا بسحر حضارات الشرق: لا سيما سوريا و مصر لما تمتلكانه من ماض عريق، لا يعكس قسوة حاضرهم .فبالنسبة له ، يشكلان حقلا خصبا للملاحظات السياسية والفكرية و التي هي محط اهتمامه[4].

يريد فولني الرجوع إلى المنابع البعيدة للحضارة باكتشاف روابط الأمس بالحاضر و تأثيرهما على المستقبل في منطقة البحر الأبيض المتوسط و خاصة في سوريا فهويريد أن يستخلص مدى تأثير ماضي الشعوب على واقعها الحاضر و المستقبلي.<<...**أين ولدت معظم الأفكار التي تسودنا وتحكمنا. من هنا خرجت هذه الأفكار الدينية التي أثرت فينا وفي أفكارنا العامة والخاصة بكل قوة، من المهم معرفة ميلاد هذه الأفكار، عادات و معتقدات شعوبها، انه مهم جدا أن نلاحظ مدى تأثير المناخ، السلطة الحاكمة عليها: هل بقيت ثابتة أم تغيرت؟ >>** [5].

---

1 - Volney, op.cit , Préface.

2 - ibid. , préface.

3- ادوار البستاني ، المصدر السابق، ص7.

4 - Volney, op.cit , P 1-2-3

5 - Volney ,op.cit, Préface.

1-4الدوافع السياسية : على عكس بقية الأسباب التي أوردها فولني في مقدمة كتبه، سواء تعلق الأمر بكتاب الرحلة إلى سوريا ومصر أو كتابه الخاص بالولايات المتحدة الأمريكية لم يعلن عنها فولني بصراحة بل لمح إلى اهتماماته السياسية، و رغبته الملحة في معرفة ظروف الدولة العثمانية التي تمر بها منذ (20) سنة و استخلاص بل و تصور ما يمكن أن يحدث لها مستقبلا.

لم يعلن فولني عن السبب المباشر لرحلته و عن مهمته السرية التي كلفه بها وزير الخارجية الفرنسية فرجين vergennes[1] بتحرير استبيان موجه لمساعدة الأعوان الذين يمارسون لأول مرة مهامهم الدبلوماسية في الشرق ، و يزودهم بالمعلومات الضرورية عن المنطقة [2]. و هو ما نجده ظاهرا للعيان حينما يصف فولني مصر إذ يقول: <<...**انه ليس في مصر أو على حدودها أي تحصين أو متراس أو مدفعية أو مهندسين ، و إن بحريتها عبارة عن ثمانية و عشرين مركبا يعلو كل واحد منها أربعة منجانيق صدئة و يقودها بحارة لا يعرفون ما البوصلة**>> [3] خاصة وأنه اعترف بدخوله المدن وتجواله في القرى واختراقه القصور لدراسة حياة السكان وعاداتهم وملاحظة تصرفات الحكام[4]

1-5الدوافع الدينية: ينتمي فولني إلى مؤرخي ومفكري القرن الثامن عشر أي عصر الأنوار الذي عرف تمرد الطبقة المثقفة على سلطة رجال الدين خاصة في فرنسا إذ برز في مقدمتهم المفكر فولتير الذي طالب بضرورة الحرية الدينية كما انتقد الإسلام في شخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو ما آمن به فولني ودعا إليه حيث نلمس احتقاره لرجال الكنيسة الذين التقى بهم في بلاد الشام وأظهر عدائه و حقده للدين الإسلامي و للعثمانيين المسلمين الذين حملهم مسؤولية تخلف شعوب المنطقة، بل و اتهمهم بالقذارة حين وصف كثرة عدد الكلاب في شوارع القاهرة إذ يقول: <<**و المسلمون لا يقتلونها على ما يعرفون من قذارتها**>>..

أيا كانت دوافع فولني معلنة أو خفية، فقد اتصف أغلبية الرحالة و لو بدرجات متفاوتة بدقة الملاحظة والوصف و التقصي في تسجيل المشاهدات، فالي أي مدى تمكن فولني من نقل

1- شارل جرافييه، الكونت دي فيرجين ، ديبلوماسي وسياسي فرنسي ، ولد في مدينة ديجون يوم 29 ديسمبر 1719م وتوفي بفرساي في 13فيفري من عام1787م، تولى منصب وزير خارجية فرنسا من 1774م حتى وفاته، محمد عبد المجيد الحسنات ، المرجع السابق ، ص 473.

2 - Derasat, op.cit, P 472.

3 - Volney, op.cit , P 235.

4 - Volney, Les Ruines, P3-4.

حقيقة الوضع في مصر و سوريا خلال النصف الثاني من القرن 18م؟.

2-مســـارها :

بتصفحنا لكتاب " الرحلة إلى مصر و سوريا"، غابت محطات رحلة قولني رغم ما عرف عنه اهتمامه بذكر أدق التفاصيل و المعلومات، إذ يقول في مقدمة كتابه: <<...**فإنني تحاشيت للإسهاب ، التفاصيل السفرية و كذلك الحوادث الشخصية**>>[1] ، فالرحلة إذن ليست رحلة استجمامية بقدر ما هي رحلة علمية استكشافية بأغراض سياسية.

2-1/ الإستعداد للسفر: بعد تحديد وجهة سفره –مصر و سوريا- كوجهة معلومة، وإدراكا منه لصعوبة الرحلة و مخاطرها،واستعدادا منه لكل عوائقها و تحدياتها، رجع فولني إلى قريته Angers عائدا إليها من باريس .فبدأ يعود نفسه و لمدة عام كامل على الجري و المشي لمسافات طويلة حارما نفسه و لعدة أيام الزاد. تمرن على عبور الأودية و تسلق الأسوار العالية، على تحديد اتساع خطوته من أجل معرفة الوقت الحقيقي المستغرق في قطعه المسافات، كان ينام تارة في الهواء الطلق و تارة أخرى يركب جوادا من دون سرج على طريقة العرب[2] معرضا نفسه لآلاف التمارين الصعبة و لكنها كانت كفيلة بتعويد جسمه النحيف على التعب و تكسبه قليلا من المقاومة.

بعدما أنهى استعداداته، قرر فولني بدء الرحلة، فودع عائلته ب Angers و لم يكن معه غير حزام جلدي به 6000 فرنك ذهبي و حقيبة ظهر حوت بعض الملابس ، وبندقية على كتفه.
إن فولني بهذه التمارين و كأنه لا يريد أن يترك شيئا للصدفة فهو كالجندي المستعد لبداية المعركة...!

هكذا غادر الشاب فولني قريته ، وهو دون السادسة والعشرين من العمر نحو ميناء مرسيليا في ديسمبر 1782 م[3] راكبا أول باخرة متوجهة نحو الشرق[4] حيث ستنعدم كل المعلومات عن سفره في المتوسط إلى حين نزوله ميناء الإسكندرية .

---

1 - Volney, Voyage en Syrie et en Egypte, Preface

2 - Œuvres complètes, op.cit, P 9-10.

3 Raymond Jean, Le Liban Religieux au 18 eme Siècle dans l'œuvres de Volney, Revue, Parole de l'Orient, volume 9, 1979-1980, P 239.

4 - Œuvres complètes, op.cit , P 12.

2-2/الوصول إلى مصر: في جانفي 1783 م ،وصل الرحالة فولني إلى مدينة الإسكندرية ومنها جنوبا توجه إلى مدينة القاهرة التي بقي فيها بضع شهور حسب فولني نفسه بينما حددها بعض المؤرخين بسبعة (07) أشهر، قضاها في ملاحظة عادات و تقاليد شعب جديدة بالنسبة له[1] غير أنه اضطر إلى مغادرة مصر نحو سوريا لأسباب من بينها [2]:

- كثرة العراقيل التي واجهته في التوغل إلى داخل مصر (مصر العليا).
- عدم تلقيه المساعدة لتعلم اللغة العربية التي كان قد بدأ فيها سنة 1781 أثناء تواجده بفرنسا ففولني يعيب على كثير من الرحالة الذين جاءوا إلى الشرق و هم يجهلون اللغة العربية و يعتمدون على مترجمين فاللغة في نظره هي:<< **تقدير لعبقرية الأمم و لطبائع أهلها و ما كانت لترجمة المترجمين لتفضي يوما إلى ما تفضي إليه المشافهة المباشرة>>** [3]
- تدهور الأوضاع بمصر عكس سوريا إذ يصفها بالأقل توترا [4].
-عدم تلقيه المساعدة من قبل الفرنسيين المقيمين بمصر [5] .

2-3/ المغادرة إلى سوريا : ترك فولني القاهرة إلى دمياط [6] ومنها إلى سوريا متجولا في كل ولايتها حتى الإسكندرونة[7] شمالا مرورا بيافا [8]، عكا[9].

1- يشير المؤرخ و الباحث الفرنسي Jean Gaulmier إلى أن فولني تعلم العربية لمدة سنتين1780 -1782 م استعدادا منه للرحلة على يد الأستاذ Leroux des Hantes Rayes في المعهد الملكي الفرنسي، Gaulmier Jean, Volney et la Pédagogie de l'Arabe, in Jean Gaulmier Damas, Institut Français du proche Orient, N°1, 2006, P 145-158.

2- انظر الجدول الزمني لمسار رحلة فولني في الملحق رقم 03 ، ص175.

3- فولني، المصدر السابق، ص 09.

4 - Volney, Voyage, op.cit, Préface.

5 - Carre, op ,cit ,p ,95.

6- damiathis مدينة من مدن مصر السفلى في محافظة الغربية على الضفة اليمنى لشرق الدلتا ، تجارتها معتبرة Dictionnaire Géographique de l'Empire Ottoman ,op.Cit ; p92.

7- Alexandrette، مدينة تركية ساحلية على المتوسط، تقع إلى الشمال من اللاذقية السورية، كانت تتبع ايالة حلب في العهد العثماني، أسسها الإسكندر الأكبر عام 333ق.م، ضمتها تركيا إليها عام 1939م، موسوعة ألف مدينة إسلامية ، المرجع السابق ، ص 49.

8- مدينة في فلسطين على شاطئ المتوسط تتوسط غزة جنوبا و حيفا شمالا بحوالي 100 كم، اسمها بالعبرية يعين الجميل. محمد فريد، المصدر السابق ، ص85.

9-Acre ، مدينة كنعانية منذ4000 سنة ق.م، تقع شمال غرب فلسطين على ساحل البحر المتوسط ، فتحها معاوية بن أبي سفيان عام 19ه/640م، المرجع نفسه ، ص ، 341، 342.

ثم انتقل إلى مدينة صور[1] وباقي المدن السورية المتنوعة كصيدا[2] بيروت[3] بلبنان الذي أقام فيه لمدة ثمانية أشهر و بالتحديد في دير ماري شوير [4] عند الدروز بجبل لبنان ، مدة كانت كافية لتعلم اللغة العربية من دون قاموس و لا قواعد .

من دير ماري شوير غادر فولني إلى قبيلة عربية بقي عندها حوالي ست أسابيع زادت من احتكاكه بالعرب، و أثارت دهشته من كرم ضيافتهم و حسن الإستقبال. أعاب بهما على معتقدات الأوربيين التي وصفت البدو بالبرابرة:<< **إن العرب أوفياء لتقاليد الضيافة، إن هؤلاء الذين نسميهم البرابرة يفوقوننا في هذا المجال**[5]>>

2-4/ صعوباتـــها : واجهت فولني في رحلته الى مصر وسوريا العديد من المصاعبو المخاطر غير أنها لم تمنع تمنعه من مواصلتها و، ولعل من أهمها نذكر :

- مخاطر القرصنة التي باتت تشهدها الضفة الشرقية من البحر الأبيض المتوسط خاصة عند مشارف الجزر اليونانية.

- ا نتشار مختلف الأمراض و الأوبئة بين الركاب و المسافرين أثناء الرحلة لطول المسافة البحرية بين موانئ فرنسا الجنوبية وشواطئ مصر وبلاد الشام والتي قد تعصف بهم أثناءها .

- خطورة الإبحار عبر السفن ، فتطور صناعة السفن لم يصل بعد إلى مراحله المتقدمة كالتي أصبحت عليه في القرن التاسع عشر (19م) .

1- thyrus من مدن فلسطين العثمانية على المتوسط، يرجعها هيرودوت إلى ما قبل 2750 قبل الميلاد، كانت من أهم المدن الفينيقية، استرجعها المسلمون من الصليبيين عام 1291م. القاموس الجغرافي، ص114.

2-Saida ، مدينة فينيقية على ساحل المتوسط ومن موانئ جنوب لبنان تسمى صيدون وتعني الصيد لكثرة أسماكها استحدثت ولاية صيدا العثمانية بموجب فرمان السلطان احمد (1603-1617)بتاريخ 10مارس1614م وضمت سناجق صفد وصيدا وبيروت لتلغى هذه الولاية عام 1615ليتم استحداثها مجددا سنة 1660م بأمر من الصدر الأعظم محمد باشا كوبريللي koprulu ، عبود الصباغ، الروض الزاهر في تاريخ ظاهر، تح، عبد الكريم محافظة ، ط1، مؤسسة الخدمات والدراسات الجامعية ، 1999، ص21

3- مدينة لبنانية على ساحل المتوسط تابعة لولاية صيدا ، تبعد عن دمشق ب100كم، فتحها عمرو بن العاص عام 15ه/636م، Dictionnaire Géographique de l'Empire Ottoman, op.cit, p59 .

4- أو دير ماري شوير بالخنشارة، و هي قرية بجبل لبنان تبعد عن بيروت ب 27 كم، تأسس هذا الدير في 1710 على يد مجموعة من الرهبان جاءوا من جنوبي طرابلس، في 1735 م فتح أول مدرسة ابتدائية تابعة له، ضم مكتبة قديمة تحوي مخطوطات تعود إلى القرن 10م، كما ضم أول مطبعة عربية بلبنان تعود إلى سنة 1733، باسكال معوض بومارون، مجلة الجيش اللبناني، العدد 237، مارس 2005.

5- فولني في جزئين :Œuvres complètes, op.cit,, P9

- كثرة انتشار الأوبئة والأمراض كالكوليرا و الطاعون و التي عادة ما تزور المدن المصرية والسورية.

- انعدام الأمن بالطرق بسب هجمات البدو المتكررة على قوافل المسافرين والحجاج[1] .

- تدهور الأوضاع السياسية في ربوع ولايات الدولة العثمانية لاسيما المشرقية منها وهذا باندلاع العديد من الحركات الإنفصالية لبعض الزعماء أو تمرد السكان على سلطة الباشا .

ثالثا: كتابه[2]: كانت النتيجة الرئيسية لرحلة فولني –والتي دامت ثلاث سنوات تجول خلالها في أهم ولايات المشرق العثماني – كانت كتابه الذي حمل عنوان: **الرحلة إلى سوريا ومصر خلال سنوات 1783، 1784، 1785** أو:

Voyage en Syrie et en Egypte pendant les Années 1783,1784 1785.

نشره بعد حوالي ثمانية عشر(18) شهرا من عودته إلى فرنسا، فترة قضاها في تدوين علاقته بهذا السفر ليصدر لأول مرة عام 1787م أي قبيل اندلاع الثورة الفرنسية بسنتين تقريبا. جاء كتاب

1/ الجزء الأول: تناول في قسمه الأول ، الحالة الطبيعية لمصر في خمس فصول والحالة السياسية جاءت في قسمه الثاني من عشر ، كما زوده بخريطة لمصر ، اعتبرها المؤرخون فريدة من نوعها رغم أن فولني لم يكن المبادر الى هذا النوع من التوثيق، فقد سبقه اليه عديد الرحالة خلال القرن الثامن عشر[3] .بدأها بدراسة عامة لمصر ومدينة الإسكندرية خاصة، مشيرا إلى استحالة معرفة الأماكن معرفة حقيقية انطلاقا من الكتب و الأخبار فحسب، هكذا بدأ فصله إذ يقول: **<<...من العبث أن تهيئ مطالعة الكتب معرفة العادات و الأخلاق عند الأمم ، فثمة مجال يبين تأثير الأنباء على العقل و تأثير الأشياء على الحواس...هذه هي حالة الغربي الذي يصل عن طريق البحر إلى تركيا فعبثا يكون قد طالع الأخبار و التواريخ..>>**[4].

بعد إبدائه الإعجاب المفاجئ بمدينة الإسكندرية التي ربط اسمها بعبقرية الإسكندر المقدوني، قدم فولني مسحا شاملا لهذه المدينة لكنه شاحب، لينتقل في فصليه الثاني و الثالث إلى دراسة تفصيلية

1- كارستن نيبور ، رحلة الى بلاد العرب وما حولها ، رحلة الى مصر1761، 1762م ، تر ، مصطفى ماهر، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2012، ص125 .

2- انظر صفحتي الكتاب الرئيسية ، في الملحق رقم 04 ، ص176، والملحق رقم 05، ص177.

3- ترك الرحالة نيبور خريطة جزئية لدلتا النيل ولجزء من القاهرة حتى سيناء، المصدر السابق ، ص26، 27

4- ادوار البستاني ، المصدر السابق ، ص 1

عن النيل ومجراه واتساع الدلتا من عدمه معارضا مواطنه الرحالة سافري حول أفكاره التي تضمنها كتابه : **les Lettres d,Egypte .**

فالنيل كما وصفه فولني هو<< **علة وجود المصريين من الناحيتين الطبيعية و السياسية . وحده يسد أولى حاجات الكائنات العضوية وهي الحاجة إلى الماء** >>[1] ، وهو بهذا يوافق هيرودوت لما أقر بأن مصر هي هبة النيل، لذا حق على أهلها أن ينظروا لهذا النهر، نظرة إجلال ديني [2] كما استعرض بالتفصيل حركة الرياح، مبينا مدى تأثرها بالقرب و البعد من المسطحات المائية <<...**فالمطر يصبح نادرا كلما اتجهنا نحو الصعيد، فهو في الإسكندرية ورشيد أكثر هطولا في القاهرة ، وفيها أكثر من المنية**[3] **ويكاد يكون أعجوبة في جرجا**[4] >>[5] مبديا استغرابه من كيفية العيش في منطقة قاحلة ، اذ يقول :<<**لا يمكننا نحن سكان المناطق الرطبة أن نتصور كيف يعيش قطر بلا مطر ؟**>> [5].

أكد على انتظام هبوب الرياح وتخصصها في بعض الفصول كرياح الخماسين الحارة التي أوضح بأنها لا تستمر خمسين يوما بل لأنها أكثر ما تهب أثناء الخمسين يوم بعد الإعتدال الربيعي، وصفها بأنها رياح جاف صحراوية يشبه تأثيرها حرارة الفرن الملتهب ، وهي تستمر عادة ثلاثة أيام. لا تخص مصر فقط بل سوريا أيضا و الهند بشهادة الرحالة نيبور ، كما تتواجد بافريقيا واسبانيا[6] . أما المناخ فوصفه بداية ، بالحار جدا مع وجود فصلين فقط هما الشتاء و الصيف، معللا هذا بموقع مصر الفلكي و الجغرافي المحاذي لصحاري افريقيا والجزيرة العربية، اضافة الى تأثير التضاريس

1- المصدر نفسه ، ص ، 23، 24.

2- يسمونه المقدس والمبارك، وعند تفجر المياه الجديدة، ترى الأمهات يغطسن أولادهن في المجرى تبركا بطهارة المياه وخصائصها الإلهية على ما ذهب إليه اعتقاد الأقدمين في الأنهر جميعها ، نفس المصدر ، ص 23

3- من أعظم مدن صعيد مصرعلى ضفاف نهر النيل، ، سميت ، آطمون بالقبطية وتعني الدير ، وفي عهد هارون الرشيد سميت بمنية الخصيب نسبة الى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر آنذاك ، تبعد عن القاهرة ب250كم، محمد أمين فكري ، جغرافية مصر ، ط1، مطبعة وادي النيل المصرية ، 1396ه، ص123 موسوعة ألف مدينة اسلامية ، ص 471 .

4- سمها مأخوذ من اسم القديسة ماري جرجس، كما ورد اسمها بدجرجا ، تقع على الشاطئ الغربي للنيل، جنوب سوهاج بالصعيد، هي مدينة تجارية للسلع ، السودانية والحجازية ، كما كانت معبرا لطريق الحج جغرافية مصر، المرجع السابق ص152 .

5 - Volney ,op,cit ,p51 .

6 - Ibid ,p55...58 .

المنبسطة، غير أنه سرعان ما غير من موقفه حول رداءة المناخ الذي تراءى له منذ الوهلة الأولى قائلا:<<**بالنظر إلى شدة الحر وكثرة المستنقعات، يخيل اليك أن مصر بلد ردئ المناخ وهذا هو التأثير الأول الذي اعتراني حالما وطئت أرضها غير أن الإختبار يكذب هذه النظرية.**>>[1].

أما القسم الثاني من هذا الجزء فقد خص فيه الحياة السياسية لمصر بكل الإهتمام، مسلطا الضوء على تركيبة السكان وأصلهم مركزا على طبيعة حكم المماليك باستعراض نموذج حركة علي بك وتأثير ذلك على الأوضاع الإجتماعية و الإقتصادية للسكان بأن أورد الإنتشار الرهيب للأمراض و الأوبئة في كبرى المدن المصرية .

2/ الجزء الثاني: فقد تضمن بالدراسة والتحليل الأوضاع العامة لبلاد بلاد الشام، تناول في عشرين فصل الحالة الطبيعية للمنطقة .

فحسب فولني ، ينقسم سطح سوريا إلى ثلاثة أجزاء مختلفة ، متصلة فيما بينها .تمتد من مشارف الساحل المتوسطي لتنتهي عند المناطق الداخلية مرورا بالمنطقة الوسطى . عكس مصر اعتبر فولني بلاد الشام من أجمل مناطق الإمبراطورية العثمانية ، غير أنه أعاب عليها حرارة مناخها الذي تشترك فيه مع مصر ونقص الإخضرار الذي طالما شاهده في براري أوربا، إضافة إلى سطحها دائم الغبار رغم هذا ، أشاد فولني بخصوبة أراضيها التي لا تعكس قلة إنتاجها الزراعي المرتبط بسوء نظام الحكم واستبداد رموزه في إثقال كاهل السكان بالضرائب والتي قدرها فولني بحوالي 2.9مليون جنيه من دون حساب الضرائب المفروضة على أهل الذمة ، وهو الأمر الذي عالجه في القسم الثاني من هذا الجزء بتحليل الأوضاع السياسية التي أوردها في تسع وعشرين فصلا[2].

تحدث عن طبيعة الحكم العثماني وآليته، مع إبراز مسؤوليته في ظهور الحركات الإنفصالية على غرار حركة ظاهر العمر وتمرد البدو المستمرة كما ناقش تأثير الدين الإسلامي على الوضع الثقافي بالمنطقة ودوره في انتشار الجهل و التخلف مستغربا من انعدام الكتب العلمية واقتصارها فقط على الدينية منها ، كما ناقش طبيعة اللغات السائدة في هذا الجزء ، متأسفا من اندثار اللغات القديمة على غرار اللغة السريانية واليونانية والتي لم تعد موجودة حتى في الكنائس فهي تكاد تكون لغة ميتة بسوريا .نفس الملاحظة قدمها على اللغة التركية باعتبارها لغة الدولة العثمانية فهي

1 - Ibid ,p61,63 .

2 - Volney, op, cit, p329, 330.

لا تنطق في سوريا إلا من قبل فئات محدودة ممثلة في موظفي الدولة و القبائل التركمانية إضافة إلى بعض العرب الذين تعلموها من أجل مصالحهم، شأن الأتراك بالنسبة للغة العربية، ولكن مع صعوبة كبيرة في نطق الألفاظ لكلا الطرفين [1]. زود جزئه الثاني هذا بصورة لآثار مدينة تدمر التاريخية والتي ستكون -كما سبقت الإشارة إليه -دافعا لتأليف كتابه الآثار لاحقا ، حيث بدا متحسرا ومتألما على مصير هذا الشرق، مهد كل الحضارات الإنسانية السابقة مفندا نظرية مونتسكيو، آملا له في نفس الوقت مستقبلا زاهرا ربما تأتي به دولة قوية من أوربا.

1 - Ibid, p331.

الفصل الثاني

الأوضاع السياسية، الإقتصادية و الإجتماعية لمصر وسوريا في كتاب فولني

أولا : مصر في ظل هيمنة المماليك

ثانيا : الحكم التركي في سوريا

أولا:مصرفي ظل هيمنة المماليك :

لا يمكن لأحد من المؤرخين المهتمين بدراسة تاريخ مصر خلال القرن الثامن عشر، أن ينكر ضعف السلطة المركزية المتمثلة في الباشا، وبالمقابل تعاظم قوة المماليك اللذين أصبحوا أصحاب الحل و العقد في تسيير الشؤون العسكرية و السياسية، لذا اهتم فولني كغيره من المؤرخين بالحديث وبإسهاب عن المماليك كفئة من فئات المجتمع المصري، و لكن قبل أن نفصل في تكوينهم وتركيبهم ، عاداتهم و تقاليدهم و استبداد حكومتهم ،ارتأينا أن نستعرض و لو بصورة موجزة بقية تركيبة المجتمع المصري لتتضح الصورة أكثر عن الواقع الاجتماعي لمصر.

قسم فولني فـــئات المجتمع إلى أربع رئيسية متفاوتة من حيث الأصل، التوزيع الجغرافي والتأثير الإجتماعي الإقتصادي، العسكري و السياسي منذ الفتح العثماني لمصر سنة 1517م إلى تاريخ دراستنا هذه[1].فئات شكلت طبقتين رئيسيتين هما ،فئة الحكام وضمت كلا من الأتراك المماليك و من قبلهم العرب ،و فئة المحكومين ممثلة في الأقباط و بقية السكان.

أ/ العرب: وصفهم فولني بالأكثر انتشارا في كل مصر[2]يعرفون فن المعارك لكنهم يجهلون فن الحكم[3] . يتفرعون إلى ثلاث عناصر،،يأتي في مقدمتها **عرب الجزيرة** و هم الوافدون من شبه الجزيرة العربية، قدموا مع عمر بن العاص [4] رضي الله عنه – في فتحه لمصر سنة 640م ويبدو **فولني ناقما** عليهم إذ يقول :<< **فتتالبوا على هذه البلاد الخيرة متهافتين على امتلاك الأراضي حتى ضاقت بهم دلتا النيل و خلت من الإغريق المدحورين**[5]>> لذا هم يشكلون طبقة الفلاحين و الصناع في المجتمع موزعين بين المدن و الأرياف.و كنتيجة طبيعية لوفرة الغذاء الذي لم يكن متيسرا في الصحراء – لا زال العرب محافظين على سماتهم الأساسية مع صلابة في بنيتهم الجسمانية ، عدا سكان المدن الذي فقدوا نوعا من هذه الخصائص مقارنة بسكان الأرياف والقرى

---

1 - Volney,Voyage, Op.cit, T 1 , P 68.

2 - Ibid. P 96.

3 - Ibid. P 91.

4- عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي أبو عبد الله ،50قبل الهجرة،43ه/574،664م ،فاتح مصر وأحد عظماء العرب ودهاتم،أسلم في صلح الحديبية ،،كان من أمراء الجيش في الجهاد بالشام زمن خلافة عمر بن الخطاب فولاه على فلسطين ثم على مصر بعد أن افتتحها سنة38هجري،عزله عثمان بن عفان ، كان إلى جانب معاوية بن أبي سفيان في مسألة التحكيم ضد علي بن أبي طالب، الزركلي ،ج5 ، ص79

5 - Volney, op.cit, ,T 1 P 69.

لكثرة الإختلاط و التزاوج مع غيرهم[1] ،في حين يشكل **المغاربة** أو الأفارقة العنصر الثاني يعتبرهم فولني أنسال عرب شبه الجزيرة الفاتحين المسلمين الذين طردوا الرومان من بلاد المغرب ينتشرون في صعيد مصر.تميزوا عن باقي السكان بالوجه الأسمر القاتم الشعر المجعد و اللحية الصغيرة[2].

و الحقيقة أن هؤلاء المغاربة الذين قدمت قبائلهم من المغرب معظم أصولها عربية ، أتت إلى مصر مع الفتح العربي الإسلامي ثم هاجرت إلى المغرب أثناء فتحه لتعود مرة أخرى دخول الفاطميين وحتى العناصر التي ترجع إلى أصول بربرية سبق وأن اختلطت بالعرب المسلمين في المغرب. استقرت هذه القبائل المهاجرة غرب مصر و أساسا غرب الدلتا، أين أصبح تأثير ها في هذه الجهة أكثر وضوحا من تأثير عرب المشرق[3].

أكد فولني على استقلاليتهم عن الحكم العثماني بحكم ابتعادهم الجغرافي عن القاهرة، فهم يستقلون في قراهم و في أمرائهم، أما عن نشاطهم فقد، امتهنوا حرفة الزراعة إلى جانب حرف أخرى كالتجارة [4].في حين يعتبر **البدو** ثالث عنصر مشكل للعرب، يعرفهم فولني بأهل الخيام أو الساكنين البادية و الصحراء غير المأهولة، هم عشائر تقطن الصخور و الأماكن المعزولة. يصف خيامهم بالواطئة المسودة بالدخان[5] يعيشون حياة الترحال المستمر لذا لا علاقة تجمعهم بالأرض إلا بمقدار ما توفر لهم من الماء و المرعى حيث تأتي هذه القبائل كل سنة إلى مصر بعد فيضان النيل من قلب إفريقيا لتستفيد من الماء و الكلأ لتغادرها في الربيع إلى وسط الصحراء، القريبة من وادي النيل مستقرا لهم،غير أنه تجدر الإشارة إلى أن الحدود بين الأرض المزروعة و الصحراء ظلت غير ثابتة لاستمرار تغير فيضان النيل[6].

لعب البدو دورا هاما في أحداث دخول العثمانيين لمصر بأن وقف البعض منهم إلى جانب

---

1 - Volney, Voyage, Op-cit , P 69.

2- إيمان محمد عبد المنعم، العرب ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من القرن 19م،الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997 ، ص 40.

3- المرجع نفسه، ص 41،70.

4 Volney, Op.cit,p70-

5 - ibid., P 71.

6- إيمان محمد عبد المنعم، : المرجع السابق ،ص33.

مماليك ضد العثمانيين غير أن السلطة العثمانية الجديدة حاولت استقطابهم إليها واستمالهم إلى صفها بالطرق الودية، لما يمثلونه من ثقل عسكري في منطقة الصعيد بأن أقر قانون نامة سليمان أهمية عنصر البدو، و عهد إلى مشايخهم مهمة الإشراف على زراعة الأرض و جباية الضرائب نيابة عن الحكومة في المساحات الشاسعة التي يسيطرون عليها وكان هذا الإجراء العثماني اتقاء لشرهم و تفاديا لتمرداتهم[1] وبانتقال السلطة الفعلية إلى أيدي الأمراء المماليك في القرن الثامن عشر على حساب الباشاوات العثمانيين، استمر دور البدو في اذكاء الفتن السياسية والصراعات العسكرية التي كانت تنشب بين البيوت المملوكية مع استغلالها لصالحهم [2].

رغم هذه المكانة التي أصبح عليها البدو ، إلا أن خطرهم على الأمن العام بالبلاد ظل قائما بتواصل عمليات النهب و السلب و قطع الطرق مع تهديد لقوافل الحج المصري[3].و قد استمر هذا الدور السلبي للبدو بل تعداه إلى استضافة الأمراء المماليك اللاجئين إلى الصعيد فرارا من منافسيهم و هو ما جعل علي بك[4] يقرر عام 1769م توجيه حملة لإحكام السيطرة على المنطقة.

أثرت حياة الترحال على ثقافة البدو و مستواهم الإجتماعي ، لذا يصفهم فولني بالأميين الفقراء والمسالمين فيما بينهم، و لكنهم في حالة حرب مع غيرهم، إذ ينظر إليهم نظرة اللصوص المتشردين لاعتمادهم النهب و السرقة، لذا يكرههم الزراع والمسافرون. قدر عددهم فولني بثلاثين ألف خيال[5]،و لكن قوتهم لا تشكل أية خطورة في نظره لانعدام تجانسها وقلة تنظيمها وانضباطها [6].

ب/الأتراك: يشكلون العنصر الثاني في تركيبة المجتمع المصري بل وفئته الرئيسية أيضا باعتبارهم أسيد البلاد على حسب رأي فولني،إن لم يكن فعليا فاسميا على الأقل،إشارة منه إلى ضعف سلطة الباشا وبالمقابل تعاظم نفوذ المماليك في هذه الفترة[7] .

1- عبد الرحيم عبد الرحمان ، الريف المصري في القرن 18م، جامعة عين شمس، القاهرة، 1974, ص160.

2- كالصراع الذي ظهر بين المماليك منذ عام 1640م بقيادة قاسم بك الدفتردار مؤسس القاسمية و ذي الفقار بك مؤسس الفقارية والتنافس الذي برز بينهما حول تزعم المماليك،إيمان محمد عبد المنعم، المرجع السابق ها، ص 20 .

3- المرجع نفسه، ص 26.

4- انظر أكثر التفاصيل عن حياة علي بك و حركته في العنصر الموالي من هذه الرسالة .

5 - Volney, Voyage, op.cit, P 71,72.

6- يعود فولني بمزيد من التفصيل لحياة البدو و تهديداتهم في الجزء الثاني من كتاب رحلته .

7 - Volney, op.cit. P 83

قدم فولني معنى لفظ تركي ،وبين أنه استخدم لأول مرة كدلالة على الشعوب المنتشرة شرقي البحر الأسود وشماله،وحتى إلى ما وراء بحيرة آرال الروسية[1].

هم قبائل رعوية محاربة مدججة بالسلاح،أفرادها متمرسون على أساليب القتال ويشبهون البدو في تقسيمهم القبلي،اضطرهم هجمات التتار في القرن 13م إلى التقدم غربا نحو أذربيجان[2]،أين استقروا بها بحدود سنة 1214م[3] بعدد 50ألف فارس تحت قيادة جدهم الأول سليمان الذي غرق في نهر الفرات سنة 1220م،فخلفه ابنه أرطغرل [4]الذي تقدم إلى سهول آسيا الصغرى وعمل على التقرب من سلطان دولة السلاجقة[5]، فأصبح قائدا لجيشها الذي قهر به قوات المغول رغم أن الدراسات الحديثة في أصول التاريخ التركي لا تأخذ بحقيقة هذه الرواية بل وتشكك في كون سليمان هو والد أرطغرل لغياب الأدلة القطعية عن صحة هذا النسب[6] .

أعقب أرطغرل ، ابنه عثمان [7] الذي تسمى أتباعه الأتراك باسمه، وحولهم من مجرد قبيلة مرتحلة إلى مملكة عظيمة-إمبراطورية- مترامية الأطراف ،متخذا اسم السلطان أي السيد المطلق [8] ليتوسع خلفاؤه من بعده و تمكنوا من فتح القسطنطينية سنة1453م[9] و التوجه جنوبا نحو مصر و بلاد

---

1 - ibid., P 71.

2- هي مقاطعة في العالم الإسلامي كان لها دورا بارزا خلال العصور الوسطى، سكنها الأتراك بدءا من العصور الوسطى5ه/11م و هي تمتد باتجاه الشمال إلى جبال القوقاز، تنقسم اليوم بين جمهوريتي إيران وأذربيجان الإسلاميين ،معجم الإسلام التاريخي، ص ، 76،77.

3 - Volney, op.cit, P 87.

4- أرطغرل بن كندزألب ... بن صارقوق ألب بن قابي ألب ينحدر من قبيلة أوغز،ولد سنة 1190م، يقال أنه أول من أسلم من قبيلته مع ابنه عثمان ،تولى الإمارة ما بين 1231م/1281م،لقب بالغازي لكثرة غزواته ضد البيزنطيين ، يلماز أوزتونا ، ،تاريخ الدولة العثمانية ، تر،عدنان محمد سلمان المجلد 1، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ،اسطنبول ،1988 ص82 وما بعدها .

5- السلطان علاء الدين الأول (1219،1235م)،عبد العزيز محمد الشناوي ،الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج1 ،مطبعة جامعة القاهرة ،1980 ، ص 36 .

6- للتفصيل أكثر في بدايات الدولة العثمانية ،انظر ، يلماز أوزتونا ،المرجع السابق ، ص 85،84،86.

7- عثمان بن أرطغرل (1281_1324م)، المؤسس الفعلي للدولة العثمانية ، يوسف بك آصاف تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، تقديم، محمد زينهم محمد عزب ، ،ط1 ، مكتبة مدبولي القاهرة ،1995 ،ص 31،32 .

8 - Volney, op.cit, p88.

9- على يد السلطان محمد الفاتح (1451/1481م)، محمود علي عامر،تاريخ الدولة العثمانية منشورات جامعة دمشق،2006-2007، المرجع السابق، ص 247.

الشام التي انتزعوها عام 1517من قبضة المماليك[1].

علاقة هذا العنصر الغريب بسكان مصر،يشير إليها فولني بالباردة، لأن الأتراك قليلو الإنتشار والإختلاط بالناس، منغلقين على أنفسهم، يهتمون بجمع الثروة بممارستهم الصناعة و بعائدات المناصب الدينية و الحربية التي يحتلونها ،في إشارة منه إلى جملة الموظفين الإداريين والعسكريين الأتراك من ممثلي السلطان العثماني في الولايات العربية على غرار القاضي، المفتي ، الباشا و الأغا الذين تمتعوا بكل المناصب الحكومية قبل أن ينافسهم عليها المماليك مع مطلع القرن 18م.

ج/الأقباط[2] : يتشكلون حسب فولني ، من عديد الأجناس كالمصريين، اليونانيين و الفرس خاصة، جردهم العرب الفاتحين من أراضيهم و أجبروهم على المغادرة نحو الصعيد مشكلين قرى بكاملها ما عدا بعض الأسر التي بقيت متواجدة في الدلتا، ويعلل فولني رأيه هذا باختلافهم الديني عن العرب، إذ يدينون بالمسيحية على المذهب الأرثوذكسي الشرقي، لذا ناصبتهم باقي المذاهب المسيحية العداء و هو الأمر الذي استغله **العرب** حسب فولني-لإضعاف شوكتهم[3]

يعتبرهم فولني ،السكان الأصليين لمصر مستدلا في ذلك على خصائصهم الفيزيولوجية[4] وعلى لغتهم فاللسان كما يقول فولني له دلالته الصادقة و المفيدة[5]،رأي يوافقه عليه الرحالة الإنجليزي جوزيف بيتس بقوله :<<**سكان مصر خليط من الأجناس كالمسلمين والأتراك واليونانيين والأقباط الذين عرفت مؤخرا أنهم جنس المصريين القدامى** >>[6].

شكل حروف لغة الأقباط و معظم كلماتهم، تدل على مرور اليونانيين بهذا المكان، فالأبجدية القبطية المنطوية على خمس حروف هي وريثة اللغة اليونانية القديمة، بل و أكد على الأصل اليوناني لمصطلح قبطي و نفى أن يكون مشتقا من اسم مدينة قوبطوس التي لجأ إليها الأقباط عند اضطهاد

---

1 - Volney, op.cit, p89.

2- عرفتهم الموسوعة البريطانية في طبعتها الثانية الصادرة ما بين 1778،1782م ،بأنهم من الصعب تصنيفهم تحت أية ملة من الملل المسيحية،لكنهم أتباع الكنيسة اليونانية وأعداء للكنيسة اللاتينية ،جون أنتيس ، مذكرات رحالة عن المصريين تر ،سيد أحمد علي الناصري ، ،المجلس الأعلى للثقافة ،1997 ص12

3- أدوار البستاني.، المصدر السابق، ص 60، فولني، ج1، ص 72

4- نفسه ، ص 63، نفسه ، ص 77 .

5 -Volney, op.cit, P 73.

6- جوزيف بيتس، رحلة جوزيف بيتس إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة تر، عبد الرحمان عبد الله الشيخ ، الهيئة المصرية العامة ،1995 ،ص30 .

الروم لهم، فلفظ قبطي عند فولني يعني ايجيبتوس أي مصري لأن حرف **y** عند اليونانيين ينطق حرف **Ou** ، زيادة على دليل آخر قدمه فولني وهو قوة تمركز اليونانيين في مدن الصعيد.

لقد بدا –فولني– جد متعاطف مع هذا العنصر، متحسرا على اندثار اللغة القبطية منذ ثلاث قرون بسبب حالة الإضطهاد التي مورست ضد الأقباط و لغتهم من قبل العرب الذين احتقروا ألسن الشعوب المغلوبة على أمرها، و فرضوا عليهم تعلم لغتهم[1]. وصف فولني علاقة الأقباط مع الأتراك بالسيئة ، لأن هؤلاء في نظره يحتقرون مخدوميهم أما الفلاحين فبادلوا الأقباط نفس شعور الأتراك لظلمهم في جبي الضرائب[2]، ورغم هذا لعب الأقباط دورا مؤثرا في الحياة الاقتصادية لمصر،إذ تولوا شؤون الإدارة لمعرفتهم الكتابة و الحساب فعينوا أمناء لسجلات الأراضي والقبائل ووكلاء وجباة ضرائب لدى الحكومة العثمانية و البكوات، فألفوا في مجموعهم هيئة يرأسها كاتب يلقب بالقائد الرسمي يتصرف في جميع المناصب و لا يمنحها إلا مقابل مبالغ مالية[3] في إشارة من فولني إلى استفحال ظاهرة الرشوة في مصر العثمانية خلال هذه الفترة، إذ لم تقتصر على الأتراك فحسب بل تعدتهم إلى الجميع حتى أصبحت الرشوة حالة تميز و تطبع ملامح الحياة العامة في كل الولايات العثمانية.

بعد هذا العرض الموجز لأهم العناصر المشكلة للمجتمع المصري ،نعود بشيء من التفصيل إلى أخطر فئة كان لها التأثير المباشر على توجيه أوضاع مصر في القرن الثامن عشر وهي فئة المماليك.

1- تسلط المماليك[4]:

1-1أصل المماليك: يعود أصلهم ،حسب ما أورده الرحالة فولني إلى التركمانيين ،خلفاء صلاح الدين الأيوبي[5]، أي إلى سنة 1230م، حيث أنشئوا فرقا من الجند تعدادها حوالي 12 ألف شابا

---

1 - Volney, op.cit., P 78.

2- إدوار البستاني، المصدر السابق، ص 60 .

3 - Volney ,op.cit.,. P 73.

4- جمع مملوك، و معناه المقتني ملكا أي الرقيق، على أنه يجب التمييز بين هذا النوع من المماليك و بين خدمة البيوت و المنازل، فولني، ها، ص 95، البستاني، ها، ص 74، وللتفصيل أكثر ، يرجى العودة إلى ،

Selcuk Aksin Sonel,Historical Dictionnary Of The Ottoman Empire,Scarcrow Press Inc,London,2003,p172

5- صلاح الدين يوسف بن أيوب ولد سنة 1138م ببعلبك، أبوه كان حاكما على الأمراء الزنكيين، التحق و هو في سن 14 بخدمة نور الدين زنكي، تولي حكم المماليك سنة 1196م باسم الملك الناصر، قهر الصليبيين في معركة حطين=

من الشراكسة و المغول،دربوا على أساليب القتال حتى برعوا فيه و أصبحوا أقوى جنود آسيا. في 1250م تمردت هذه الفرقة على رئيسها و أطلقوا على واحد منهم لقب السلطان وعلى أنفسهم لقب المماليك[1].بين فولني من خلال كيفية تشكل دولة المماليك أنه لا يربط بينهم أي عقد اجتماعي سوى المصلحة المؤ قتة ولا قاعدة تحكمهم سوى العنف بدليل حالات الشنق والقتل والتسميم التي آل إليها حكامهم فخلال 257 سنة من حكم دولة المماليك، تعاقب عليها سبع وأربعين حاكما أي بـــمعدل خمس سنوات لكل حاكم[2].

جاءت نهاية حكم المماليك على يد السلطان سليم الأول، الذي تمكن من الدخول إلى مصر بعد الإنتصار عليهم في معركة الريدانية موقعا طومان باي [3]في الأسر و قد أمر بشنقه لاحقا.
كان بإمكان السلطان سليم الأول أن يمحو سلالة المماليك من جذورها،لكنه سعى إلى عكس ذلك، من خلال تقريبهم من السلطة لتخوفه من استقلال الباشا المعين في حال منحه السلطة المطلقة كما هو معمول به في باقي الولايات خاصة وأنه أدرك أن بعد مصر الجغرافي عن مقر الخلافة ، الأمر الذي عزز من مخاوف السلطان العثماني، فعمل على إشراكهم في الديوان الذي أسسه أثناء تواجده في مصر، والذي ضم كلا من الباشا و الأوجاق السبعة للإنكشارية [4] فنصب منهم – المماليك – حكاما على المقاطعات الأربع والعشرين باسم البكوات، يستقر واحد منهم في القاهرة باسم شيخ البلد.

انحصرت مهامهم في الحفاظ على الأمن العام ،وذلك بالحد من غزوات البدو والعمل على جبي الضرائب التي فرضت بموجب الفرمان السليمي باعتبار تطبيق نظام السليانة في مصر،على أن يوجه قسم منها لمرتبات الجنود المقيمين في مصر و القسم الآخر لإمداد مكة و المدينة، أما القسم الثالث فخصص لتموين خزانة الأستانة، أما الشعب فيقول فولني، لم يحسب له حساب فبقي خاضعا لاستبداد عسكري قاس[5].

=1187م، هاملتون جب، تحرير يوسف أيبش، دراسات في التاريخ الإسلامي، ط2، نيسان للنشر و التوزيع بيروت ، ص 18.

1 - Volney, op.cit, P95.
2 - Ibid., P95.

3- يلقبه الرحالة فولني بطومام باي، ص 96 .

4 - Volney, op.cit P96.
5 - Volney ,op.cit. , ,P 97.

1-2/ آداب المماليك : لم تكن كتابات فولني عن الآداب العامة للمماليك بالعادية والموضوعية بل طغت عليها الذاتية من خلال وصفها بحالة التفسخ، وذهب إلى حد اتهام نفسه بالمبالغة المغرضة إن هو قدم وصفا حقيقيا آداب المماليك. يعلل فولني قبح آداب المماليك و انعدام الأخلاق لديهم إلى أصلهم الغريب الذي جعلهم منبوذين من قبل الأتراك إلى حد أن اعتبروهم كفارا لا دين لهم ولا إيمان، كما أنهم غرباء عن مصر و سكانها ،بل و عن بعضهم من المماليك فهم لا تربطهم حتى العواطف الطبيعية التي تجمع عادة بين سكان المنطقة الواحدة، إذ لا أهل لهم و لا أولاد، فلا الماضي فعل لهم شيئا و لا هم يفعلون شيئا للمستقبل[1].

إنهم جهلة يقول عنهم فولني،تعودوا على الخرافات بحكم تربيتهم، فلم يسلم منها حتى كبيرهم شيخ البلد[2]،كما ألفوا الشراسة عن طريق القتل ،و العصيان بالاضطراب ،والخيانة عن طريق الدسائس ،وفساد الأخلاق عن طريق التهتك المعروف عند اليونانيين و التتار[3] .

لقد بين فولني أن سوء الأخلاق ورثه كل مملوك، فلا يوجد واحد منهم بلا وصمة، حتى أفسدت عيوبهم جميع سكان القاهرة بل و امتدت حتى إلى مسيحي سوريا المستقرين بمصر[4].

غير أن ما يلفت الإنتباه في موقف فولني هذا ،هو التناقض الغريب الذي نستشفه حين يتكلم عن نساء المماليك، فكيف لشعب تنعدم أخلاقه، أن يحجب نساءه عن الغرباء؟، إذ يعترف أنه لم يتمكن من التعرف على ملامح أي واحدة منهن، لرفض المماليك سفور نسائهم فكل أوصافهن و عاداتهن تحصل عليها من بعض الوسطاء .

أكد فولني على أن نساء المماليك[5]غير مرئيات، بل هن أكثر النساء تحجبا، و هو الأمر الذي كان سببا في إشاعة خبر جمالهن الذي ينفيه كلية، حيث أكد من خلال حوار له مع زوجة أحد التجار الفرنسيين التي يتاح لها الدخول إلى جناح الحريم لعرض المنتجات الفرنسية، أنها شاهدت

1- ادوار البستاني، المصدر السابق ،ها، ص 76.

2- يلمح فولني إلى علي بك الذي كان يؤمن بعالم التنجيم و الذي كان سببا في تسريع عودته من عكا إلى القاهرة أين كانت نهايته.

3- يستدل فولني في حكمه هذا على حادثة وقعت عندما كان بالقاهرة ،حيث خطف المماليك زوجة رجل يهودي فيما كانا يعبران نهر النيل ولما شكا اليهودي أمرهم إلى مراد بك،أجابه بأن يدع الشبان يعبثون وفي المساء،طلبوا منه أن يسدد لهم مائة قرش مقابل استرجاع زوجته ، فولني ،ها ، ص 123،124 .

4- إدوار البستاني، ص 121، فولني، ص 169 .

5- أصل نساء المماليك من جورجيا و منغوليا، فولني ، المصدر السابق،ص 99.

1200 امرأة لم تكن منها عشرة ينعمن بالجمال الصحيح[1].فمقاييس الجمال مختلفة في نظره عن مثيلتها لدى سكان الشرق، و هو ما يبرزه بقوله:<<**حسبهم أن تكون المرأة بيضاء ليحسبوها جميلة، فإذا كانت سمينة كانت مدهشة**>>[2].

في خضم تهكمه على آداب المماليك، واصل فولني انتقاده لهم بوصفهم عناصر مبذرة مستدلا على زينة نساء المماليك التي بلغ البذخ فيها مبلغا عظيما ، إذ تخلين عن زينة الدنانير المصففة على الرأس و الصدر لبساطتها المفرطة و عوضنها بالماس و الزمرد و اللؤلؤ، أما الرجال فنموذج علي بك خير دليل على ذلك إذ أخذ معه عند فراره إلى فلسطين ثروة قدرت ب 800 ألف محبوب ذهبي[3]أما مملوكه أبو الذهب فما تلقيبه بهذا الاسم إلا لما صار يفرق الذهب على الفقراء كما كان لا يضع إلا ذهبا في جيبه[4].

1-3/ألبسة المماليك : كغيره من الرحالة الأوروبيين[5] ، تفنن فولني في وصف لباس المماليك، فقال عنها أنها فضفاضة و تنقسم إلى :

ـ **العنتري :** هو قميص واسع من القطن، يميل لونه إلى الصفرة يعلوه رداء من كتان أو نسيج دمشق و حلب يتدلى من العنق حتى الكاحلين.

ـ **القفطان** : يعلو الثوب الأول، أكمامه متسعة حتى رؤوس الأصابع[6]مصنوع من الحرير لذا هو أغلى من الرداء الأول يضمه من الوسط فيقسم الجسم بذالك إلى نصفين.

ـ **الجبة :**هي قطعة غير مبطنة، تشبه الثوبين السابقين، غير أن كميها مقصوصان إلى المرفقين، تلبس شتاء و صيفا.

ـ**المعطف:** يأتي فوق الأردية السابقة و يغطي مجمل الجسم.

---

1 Volney, Op-ci t, P99.-

2 - Ibid., P 99.

3- نقد ذهبي تركي ، حدد سعره في القرن 18م ب 200 نصف فضة، عصمت محمد حسن، جوانب من الحياة الاجتماعية لمصر من خلال كتابات الجبرتي ،مكتبة مدبولي،القاهرة، 2003، ها ص 37.

4- المرجع نفسه، ص 36-37.

5 - Le Duc d'Harcourt, L'Egypte et les Egyptiens , Librairie Plon, paris, 1893, P01 .

6- يرى المماليك في كشفها ما ينافي الأدب و الحشمة، إدوار البستاني ، ص 112-113.

ـ **السروال** : اعتبره فولني ثوبا غريبا ، لطوله الذي يصل إلى الذقن و سعة ساقيه، التي تسع كل واحدة منها كل الجسم، سميك لكنه ناعم، يضم كل الأجزاء السابقة عدا المعطف تيسيرا للمشي غير أن فولني و في سلسة تهكمه على المماليك ربط ثقل حركتهم بنوعية ثيابهم هاته.

ـ**القا ووق** : هو العمامة التي تغطي الرأس الحليق، و هي على شكل أسطوانة صفراء اللون تحيط بها لفافة من الشاش منتظمة الإستدارة[1].

1-4/جيش المماليك : وصفه فولني بقوة مصر العسكرية ،فلا قوة غيره،خاصة مع ضعف قوات الإنكشارية التي تحول جنودها إلى خليط من الصناع و المرتزقة المشردين الذين باتوا يرتجفون أمام المماليك.

قدر عددهم فولني بحوالي 8500 مملوك ، موزعين على بيوت بكوات المماليك كبيت إبراهيم بك الذي يضم 600 مملوك، و بيت مراد بك و له 400 مملوك، أما الباقي فهم يتوزعون على حوالي 18 الى20 بيت من بيوت البكوات كما وجد نفرا آخر من المماليك ينتمون إلى أسر منقرضة نعتهم فولني بالمبهمين، يناصرون أي أحد لقاء المال[2].

غير أن الأمر المهم في جيش المماليك هو افتقاده للمشاة بل و افتقاد كل تركيا لهم غياب أرجعه فولني إلى تقاليد التاريخ الأسيوي التي لا تعترف بغير الفارس .فالسعي على الأقدام دليل حقارة، لذا اختصوا الشعب و المسيحيين واليهود به، فلا يسمحون لسكان مصر باقتناء إلا الحمير و البغال محتفظين لأنفسهم بركوب الجياد و لو لمسافات قصيرة[3].

أما عن تسليح المماليك فهو بسيط جدا، لا يتمثل سوى في بنادق إنجليزية ب10 أو 12 رصاصة، مع سيف معقوف، تعجب منه فولني لعدم استعمال أمثاله في أوروبا، مشددا على اهتمام المماليك و ولعهم بأدوات القتل و التقتيل وهو أمر لا يستغربه مادام المماليك متعودين على القتل والحروب[4].تجلب هذه الأسلحة لعامة المماليك من الأستانة و أوروبا أما البكوات فيتنافسون على السيوف الدمشقية، وهو مؤشر على ضعف الصناعة الحربية بالقاهرة المتميزة بخفتها و صفاء معدنها

---

1 - Volney,Opcit,p154,155,156.

2- عد موت علي بكفي مصر ،تقاسم الحكم فيها كل من إبراهيم بك ومراد بك،مما أدخل الولاية في حالة من الفوضى والصراع بين المملوكين،للتفصيل أكثر ،انظر فولني ،المصدر السابق،ص96،107.

3- البستاني، نفس المصدر ، ص 111.

4 - Volney ,Op.cit. ,p159.

و رقته ،جعلت فولني يعترف بروعتها غير أنه انتقد خفتها ما دامت سريعة العطب كالزجاج[1].
بهذه الأسلحة يتدرب المماليك يوميا، و هو شغلهم الشاغل ما دام الأمن غائب و الفوضى منتشرة مما جعل فولني يشبه الوضع في مصر بوضع أوروبا منذ ثلاث قرون خلت، عكس الوقت الراهن الذي تعيشه في جو من السلام الداخلي.

ترتكز تدريبات المماليك على التسديد بالبنادق و السيوف، حيث اعترف فولني بمهاراتهم فيها بقوله: <<و **هم على قسط وافر من المهارة بحيث إن الكثيرين منهم يقطعون بسيوفهم الحادة حزمة من القطن كما يقطع قالب الزبدة** >>[2]، عكس تدربهم على رمي السهام الذي لم يعد يحظى بعنايتهم السابقة .كل هذه التدريبات يواصل فولني ، تتم في سهل خارج القاهرة على شكل احتفال يحضره المتنافسون و المهنئون من البكوات .

رغم الطبيعة العسكرية للمماليك، إلا أن فولني استغرب من غياب التنظيم في الجيش المملوكي، حيث من الخطأ تصور وجود الوحدات المنتظمة في الكتائب التي عادة ما تزينها الأزياء العسكرية الملونة و الحركات الخاصة خلال المناورات، إذ لا يعرف المماليك شيئا من هذا، محاولا المقارنة بين القوات المملوكية و القوات النظامية في أوروبا، قائلا :<< **فلا أزياء رسمية عندهم،ولا نظام وحدات و لا انتظام .لا يمتثلون لأمر فتجمعهم غوغاء، وسيرهم فوضى،وحربهم شقاوة و لصوصية**>>[3] و يرجع فولني هذه الفوضى إلى أسباب تكوين المماليك و نشأتهم، فماذا ينتظر من فتى قروي بيع في جورجيا و جيء به إلى مصر، معدا لأن يصبح سيدا غير اعتزاز أموال أسياده و التمرد عليهم، فلا يكاد يعتق الرقيق حتى يتطلع إلى أعلى المناصب[4].

يكمل فولني قوله بأن المماليك أدركوا أن مصلحة الحرب تعود على أسيادهم ،فتركوا لهم شرف المغامرة في أخطارها، فإذا ربحوا كان ذالك من الصدف الجميلة و إن غلبوا على أمرهم،استسلم المماليك للمنتصر و هم يعرفون أن مصلحتهم في التزام السكون،فيطمأنون إلى السيد الجديد

1- البستاني ،المصدر السابق،ص، 116.

2- نفسه ، ص 116، فولني ،المصدر السابق، ص 160-161.

3 - Volney , op.cit ,p163 .

4 - ibid , p166.

ويرجعون معه حيث يصبحون عالة عليه[1]، وهو الأمر الذي ينطبق على محمد بك أبو الذهب حين تمرد على سيده علي بك أثناء حصار دمشق[2].

1-5/حكومة المماليك : بعد تفصيله في أصل المماليك ونشأتهم، آدابهم و تنظيمهم العسكري تساءل فولني – و بكثير من الإستهزاء بل و الشفقة- على نوعية الحكم الذي يفرض من مثل هؤلاء على محكوميهم من المصريين إذ يقول :<< **هذا النوع من الناس الذي يحكم اليوم في مقدورات المصريين ، فماذا ينتظرون من غير العبيد في صورة ثوب المملوك؟**[3]>> .

إن وصول المماليك إلى الحكم في مصر لم يأت بشكل قانوني وشرعي، بل جاء عن طريق ضربات السيف و الدسائس،ومن ثمة فالسيادة والحكم في نظرهم، وسيلة للإستغناء وزيادة الجاه،النساء والعبيد[4].

انطلاقا من هذا، وصف فولني حكومة المماليك بالمستبدة، لأنها قائمة على استرضاء قصر السلطان العثماني بالأستانة تجنبا لدفع الضرائب و تحاشيا لغضبه .

إنها قائمة على شراء العبيد و إبادة الخصوم إما قتلا أو تسميما، فالمماليك طغاة لا يعيشون إلا وسط البنادق و السيوف، و لا يفهمون فكرة السلام و الأمن و النظام العام، مستدلا في حكمه على واقعة خطف زوجة رجل يهودي فيما كانا يعبران النيل، فشكا اليهودي أمره إلى مراد بك فأجابه<< **دع هؤلاء المماليك يعبثون، و في المساء أبلغه بأن يدفع (100) مائة قرش لإرجاع زوجته و هو ما حصل**"[5].فحكمهم يقوم على جمع المال و اغتصابه بأية وسيلة.

تحت ظل هذه الحكومة المستبدة الظالمة، تحدث فولني، عن سفك المماليك لدماء الناس كما تسفك دماء الثيران ،و القضاء غير العادل يريقها دون قيد أو شرط :<< **فضابط الليل في طوافه وضابط النهار في تجواله يحاكمان و يحكمان و ينفذان في لمح البصر، يرافقهما جلادون يقطعون الرؤوس عند أول إشارة ويلقوا بها في أكياس من الجلد**>>[6]، يحدث كل هذا من دون ارتكاب جريمة تحق فيها العقوبة،ولكن دائما يكون الأمر مرتبطا بجشع المماليك،حتى أصبح الثراء في مصر

1- البستاني، ص 119، فولني، ص 165.

2- نفسه، ص 119، نفسه ص 165.

3 - Volney, op.cit ,p170 .

4 -Volney, Op.cit., P 170.

5- البستاني، المصدر السابق ، ها، ص 123.

6 -Volney, op.cit, P 171.

العثمانية خلال القرن 18م عند العامة نقمة، أوجب على السكان التظاهر بالفقر و الحرمان للتنصل من مضايقات البك و مماليكه، و إلا كانت العقوبة بالجلد مائتان (200) أو ثلاثمائة(300) جلدة أو تصل العقوبة في بعض الأحيان إلى حد الموت[1] .

2-تمرد علي بك:

شهدت الدولة العثمانية مع مطلع القرن 18م، بروز ظاهرة جديدة في تسيير شؤون ولاياتها العربية بأن تضاعف النفوذ المحلي و ازدادت معه رغبة الأسر الحاكمة في الإستقلال عن الباب العالي. ويعتبر تمرد علي بك في مصر، نموذجا بارزا لهذه الظاهرة التي اعتبرها المؤرخ **روبير مونتران** فريدة من نوعها في التاريخ العثماني[2] لاسيما و أنه جاء في ظروف أقل ما يقال عنها عصيبة على الدولة العثمانية محليا و دوليا.

لقد ظل نظام الحكم العثماني في مصر يسير طبقا للأسس التي كان قد وضعها السلطان سليم الأول و من بعده السلطان سليمان منذ القرن 16م و طيلة القرن 17م، و كان هذا يعني سيطرة الباشا أو الوالي باسم السلطان، تساعده في مهامه فرقة البكوات المماليك و عناصر من الجيش الإنكشاري[3]. إن هذا التنظيم ، سرعان ما فقد تأثيره بداية القرن 18م فتراجعت هيبة الباشا[4] الذي أصبح خيالا عديم الشأن بتعبير فولني أمام تعاظم نفوذ البكوات المماليك وبالذات أمام سلطة زعيمهم شيخ البلد – حاكم مدينة القاهرة-و سيطرتهم على الحياة السياسية والعسكرية في مصر[5] مع ما صاحب هذا النفوذ من تمرد لفرق الإنكشارية ، التي كثيرا ما تسببت في عزل الباشا أو سجنه[6]. نتيجة لهذا الفراغ السياسي الناجم عن ضعف السلطة المركزية خاصة مع اندلاع

---

1 -Volney,Op.cit,.P 174.

2- روبير مونتران ، تاريخ الدولة العثمانية، تر، بشير السباعي، ، دار الفكر للدراسات والنش والتوزيع،ط1 القاهرة 1993، ص 608

3- فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ط1،دار المدار الإسلامي ،بيروت،2003، ص83-93

4- جب وبون، المجتمع الإسلامي و الغرب ، ج2 ، دار المعارف بمصر القاهرة، 1971 ، ص 42 . 4-فولني ،المصدر السابق ، ص 79.

5- الغالي غربي، دراسات في تاريخ الدولة العثمانية و المشرق العربي، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 2007 ،ص، 132

6- تمرد الإنكشارية بقيادة إبراهيم كهية ضد الوالي ما بين 1741-1742م ، فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي ،ط1،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت،2007، ص 415

الحرب الروسية العثمانية 1768-1774 م[1]، برز **علي بك** لتحقيق طموحاته السياسية في الإنفصال بحكم مصر، و لم لا تحقيق حلم إعادة إحياء الدولة المملوكية من جديد[2]،بروز قال عنه فولني أنه استأثر اهتمام أوروبا لسنوات طويلة[3].

2-1نشـــأتـــه: يكتنف حياة علي بك خاصة في مرحلته الأولى الكثير من الغموض .فعلى حسب تعبير فولني، يرجع أصله إلى قبيلة أباظة بمنطقة القوقاز، بيع في سوق النخاسة بالقاهرة عام 1743 م[4] أين قدم هدية إلى شيخ البلد إبراهيم كتخدا و عمره لم يتجاوز اثنا عشرة سنة . وفي هذا الصدد يشير فولني إلى استحالة معرفة أعمار الشرقيين من مسلمين أو مسيحيين لأنهم لا يملكون سجلات المواليد[5].

تربى علي بك في بيت سيده أين تدرب على الفروسية و الرماية كما لقن مبادئ القراءة والكتابة ولبراعته لقب **بالجن علي**[6] . عتقه سيده وهو في سن الثامنة عشر مسندا له منصب الكاشف [7]،ليتقلد منصب الباكوية [8]عام 1754 م غير أنه تعرض لعداوة شيخ البلد الجديد فأجبره على المغادرة إلى الصعيد أين استجمع قواته و زحف على القاهرة عام 1762 م منصبا نفسه شيخ البلد الجديد[9]. إلا أن الأوضاع لم تستقر له في مصر لتحالف بكوات المماليك ضده

1- انتهت هذه الحرب بالتوقيع على معاهدة كوجوك كينارجه في 21جويلية1774 ببلغاريا،للتفصيل أكثر في بنودها ،يرجى العودة إلى ، Mehrdad kia ,The Ottoman Empire ,Greenwood Press .london ,2008 ,p166,167.

2- الغالي غربي، المرجع السابق ، ص 132

3- فولني، المصدر السابق ، ص 79.

4- روبير مونتران، المرجع السابق ، ص 609

5- فولني ، المصدر السابق ،ص 82

6- لفظ تركي يعني المجنون، نفس المصدر ، ص 82

7- هو حاكم المقاطعة ،جوانب من الحياة الاجتماعية لمصر من خلال كتابات الجبرتي ،عصمت محمد حسن،المرجع السابق ص 80.

8- روبير مونتران ، المرجع السابق ،ص 609 .

9- عمر الإسكندري ، سليم حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، ط2 مكتبة مدبولي ، القاهرة 1996 ، ص81.

ففر إلى غزة ومنها إلى عكا الذي توسط له أميرها عند السلطان العثماني[1] فثبته على مشيخة البلد و تسلم زمامها عام 1766م[2]

2-2سياستـــه: كانت مشيخة البلد بالنسبة لعلي بك بداية الطموح نحو الإستقلال بمصر لاسيما و أن انشغال الدولة العثمانية بحربها مع روسيا 1768-1774 م سيساعده في ذلك كثيرا. عمل علي بك على تنفيذ أولى خطواته بان أبعد منافسيه بالقتل أو النفي و في هذا المجال يذكر فولني أنه في ليلة واحدة بعد رجوعه إلى القاهرة من عكا قتل أربع بكوات و نفى أربعة آخرين[3]، كما عمل على جمع أعداد كبيرة من المماليك و إعدادهم لتنصبهم في سلك الأمراء كما هو الشأن بالنسبة لمملوكه محمد بك أبي الذهب [4].

اهتم علي بك بتقوية جيشه من المرتزقة و توفير الموارد المالية للإنفاق عليه،و لم يجد من وسيلة لذلك سوى فرض الضرائب على السكان مع التضييق على التجار الأوروبيين و مصادرة أملاك خصومه[5]. والإجراء الأكثر أهمية ، هو أن علي بك قام بضرب العملة باسمه من خلال سك القرش الفضي الذي حمل في ظهره طغراء[6] السلطان الحاكم و هو الأمر الذي وصفه المؤرخ روبير مونتران باغتصاب الإمتيازات السلطانية التي لم يفكر فيها أحد من قبله [7]،كما قام بطرد الباشا العثماني من مصر والإمتناع عن تسديد الإرسالية [8] كما تذكر بعض المصادرأن الخطباء دعوا له في المنابر ولقبوه بسلطان البرين وخاقان البحرين[9] وفي السنة ذاتها 1769م ،قام علي بك

1- هو السلطان مصطفى الثالث (1757-1774)

2- عمر الأسكندري ، المرجع السابق ص 81-82 .

3- فولني ، المصدر السابق ، ص.

4- محمد بك أبو الذهب بن عبد الله الخزندارالجركسي،مملوك علي بك اشتراه في ستينات القرن 18 م أصبح قائدا لقوات علي بك ، سلك الدرر ،ج1 ، ص 54-55.

5- جب وبون ، المرجع السابق ، ص 44-46.

6- هي الختم السلطاني و التوقيع الذي يوضع على الفرمان أو المرسوم ، تعرف بـــ ينشان همايون للتفصيل أنظر فيصل عبد الله الكندري ، الفرمانات السلطانية ، حوليات الآداب و العلوم الإجتماعية الرسالة 151، جامعة الكويت،2000 - 2001 ، ص 26-29.

7- روبير مونتران ،المرجع السابق ، ص 609.

8- تعني القيمة المالية التي كانت تدفعها مصر للخزينة العثمانية منذ 1518

9- الغالي غربي ، المرجع السابق ص 132

بالسيطرة على الصعيد ، فأخضع قبيلة الهوارة[1] ومعها زعيم قبائل بدو الصعيد كله الشيخ همام[2] على يد قوات مملوكه محمد أبي الذهب بحجة تمرده على سلطة شيخ البلد واحتضانه لكل المتمردين من قبائل البدو[3]،كما وجه حملة عسكرية لاحتلال مكة برا وبحرا . بتتبعنا لسياسة علي بك هذه ، يحق لنا أن نتسائل عن دوافع علي بك لغزو الحجاز،رغم أن هدفه كان مصر ،أو على أقصى تقدير إعادة مجد الدولة المملوكية ؟

مما لا شك فيه ،أن علي بك كان يريد أن يضمن طاعة شريف مكة،ومن وراءه ولاء ذلك الجزء الهام من الدولة الإسلامية،إذ أن بقاء شريف مكة موال للدولة العثمانية كان سيثير متاعب جمة ،قد تؤدي إلى تضرر الحج وتذمر حجاج مصر وهو ما سيحرج علي بك ،فتعيين شريف مكة من الموالين له سيكون ضامنا كافيا لتهدئة الأوضاع ،ولرواج سمعته بحماية الحرمين الشريفين وبقدرته على تأمين الحج للمسلمين ،ما سيزيد من نفوذ في مصر وهيبة في بلاد المغرب و السودان وبلاد الشام[4] ،كما كان يهدف أيضا ،إلى تحقيق مشروع اقتصادي كبير شجعه عليه مستشاره التاجر روزيتي[5]،الذي أقنعه بأهمية الإستيلاء على الحجاز وتحويل تجارة الهند من ميناء جدة في البحر الأحمر إلى السويس مباشرة ،وجعل ميناء جدة مستودعا وسيطا لتجارة الهند والشرق الأقصى تحت السيادة المصرية خاصة ونحن ندرك أن السلطان العثماني وشريف مكة كانا يعارضان وصول السفن الأوربية إلى السويس لأنهما كانا يتقاسمان عائدات الرسوم المفروضة وهو ما يعلل سبب رفض طلبات علي بك المتكررة للحصول على فرمان سلطاني يسمح للأوربيين بتفريغ شحناتهم في السويس .

1- قبيلة عربية الأصل ،هاجرت إلى بلاد المغرب قبل الإسلام،ثم استقرت بعد ذلك في مصر العليا حوالي القرن الرابع عشر الميلادي ،تزايد نفوذها حتى صارت الحاكمة الفعلية في للوجه القبلي لمصر، حسام محمد عبد المعطي ،العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1999، ها ص ،87 .

2- ولد حوالي 1709 و توفي عام 1769 و هو ابن الشيخ يوسف ابن احمد محمد همام الذي ألت إليه زعامة قبائل الهوارة منذ أواخرالقرن17م ،لعب دورا مهما في أحداث صعيد مصر ، للمزيد عن شيخ العرب همام ، انظر إيمان محمد عبد المنعم المرجع السابق، ص 31، 26،27، 28

3- فولني، المصدر نفسه ص 84

4- حسام محمد عبد المعطي ،المرجع السابق، ص 39

5- كارلو روزيتي Carlo Rosetti أحد التجار البنادقة بمصر،أسعده الحظ بالتعرف إلى علي بك،كان له أكبر الأثر في توجيه علي بك في مشروعاته لتنظيم التجارة وكثيرا من شؤون السياسة الخارجية،عمل كقنصل عام للنمسا في مصر ، نفس المرجع ، ص88 .

انطلاقا من كل هذه الأهداف،خرجت الحملة العسكرية بقيادة أبي الذهب من مصر أواخر شهر صفر1184ه/1770م في غير ميعاد قافلة الحج لاعتبارات هامة ،تعكس بوضوح شدة ذكاء علي بك في توسعاته :

– رغبة علي بك في تجنب إحداث أية متاعب للحجيج جراء هذه الحملة العسكرية التي تراوح عدد ودها 3000جندي .

–الحيلولة دون قيام تحالف عسكري بين شريف مكة وأمير قافلة الحج الشامي آنذاك .

وصلت الحملة بقيادة أبي الذهب إلى مدينة ينبع[1] التي سيطر عليها كإجراء استراتيجي منه لإنزال الذخائر ومؤن الحملة،أما مكة[2] فدخلها في جوان 1770م،بعد انسحاب شريفها وبقي فيها 65 يوما أي إلى غاية سبتمبر1770م. رغم أن الحملة لم تتمكن من إرساء قواعد الحكم المصري في الحجاز،إلا أنها استطاعت على الأقل اقتصاديا في جذب الدول الأوربية وخاصة شركة الهند التجارية الشرقية للتفاوض مع علي بك للوصول مباشرة بتجارتهم إلى السويس،حيث كتب أحد التجار الإنجليز إلى علي بك سنة 1770م يقترح عليه فتح طريق تجاري مباشر بين الهند و السويس ،وهو ما كان يمثل أقصى طموحات علي بك ،إلا أن هذا الإجراء لم يتم نتيجة تطورات حرب علي بك ضد الدولة العثمانية وتمرد مملوكه أبي الذهب عليه[3] .

أمام عجز السلطة العثمانية عن توقيفه ، امتد طموح علي بك إلى بلاد الشام على أمل إعادة بعث الدولة السورية ـــ المصرية التي اختفت منذ سنة 1517م،مصدرا العملية على أنها موجهة ضد باشا دمشق عثمان العظم[4]،الذي عرف عنه استبداده في فرض الضرائب على السكان[5]،فتحالف

1- مدينة سعودية وميناء هام على البحر الأحمر،تبعد عن المدينة المنورة ب200كم،أما جدة فتبعد عنها حوالي 350كم شمالا، موسوعة ألف مدينة إسلامية ، ص.520

2- هي مدينة الرسول الكريم التي ولد فيها ،وهي أقدس مدن العالم الإسلامي،وعاصمة الحجاز القديم. تبعد عن جدة حوالي 100كم الى الشرق،نفس المرجع ، ص464.

3- حسام محمد عبد المعطي ،المرجع السابق ، ص43.

4- تعود أصل العداوة بين محمد بك و عثمان باشا إلى فترة تولي علي بك إمارة الحج قبل أن يصبح شيخ البلد، حيث فر منه مملوك لاجئا إلى عثمان باشا الذي رفض تسليمه و هو الأمر الذي أثار غضب علي بك تجاهه عبود الصايغ المصدر السابق ، ص 55،56.

5- روبير مونتران ، المرجع السابق، ص610.

مع متزعم حركة الإنفصال في فلسطين ظاهر العمر[1] ، و سيرا جيشا قوامه ستين ألف[2] نحو دمشق بقيادة محمد بك أبي الذهب،غير أننا نجد فولني يقلل من قيمة هذا العدد فكما قال، ستين ألف جندي من الأتراك أبعد من أن يوازي ستين ألف جندي أوروبي فهو خليط من المماليك والمغاربة لا أثر للترتيب و النظام في صفوفه[3].رغم هذا الخليط من الجنود تمكنت القوات المتحالفة المصرية السورية من دخول دمشق و محاصرة القلعة في عام 1771م كل شيء كان يوحي بانتصار قوات علي بك غير أن محمد بك أبو الذهب تراجع صبيحة اليوم الموالي قاصدا القاهرة و هو ما أثار غضب ظاهر العمر و حلفائه من قبيلة المتاولة[4].

يشير فولني و من ورائه العديد من المصادر التاريخية إلى سبب تراجع محمد بك من دون سابق إنذار في اتفاق سري جمع بين قائد قوات الجيش المصري و مبعوث الباشا الذي تمكن من إقناع محمد بك أبو الذهب بـــ :

- تنافي مصلحة محمد بك مع هذه الحرب لاسيما و أن رد فعل السلطان العثماني سيكون عنيفا.
- احتلال مدينة مقدسة كدمشق هو تشويه لقدسيتها المرتبطة بمكانة السلطان.
- إهانة محمد أبو الذهب لنفسه بخدمة مصالح شخص أخر دون السلطان
- سعي علي بك من وراء هذا التوسع إلى تحقيق أغراضه الشخصية دون الاهتمام بتعب محمد بك أبو الذهب أو جنوده[5].

- **2-3نـهايـته :** كان لهذا التراجع أثره الكبير في استمرار حركة علي بك ،إذ يعتبره البعض من المؤرخين بداية النهاية لهذا الزعيم المصري ، حيث تمرد عليه مملوكه أبو الذهب و أجبره على المغادرة نحو عكا أين استقبله حليفه ظاهر العمر بعد هزيمته العسكرية على أبواب القاهرة في نيسان 1772 م. وإدراكا ، من علي بك لضعف إمكانياته العسكرية ،البشرية و المادية والتي لا تمكنه من الإستمرار في مواجهة الدولة العثمانية و مواصلة التوسع ، لجأ إلى الإتصال بروسيا و التحالف

1- هو حاكم عكا من من قبيلة الزيادنة اليمنية ، أنظر، الفصل الثاني من هده الرسالة .

2- فولني ، المصدر السابق ، ص 86

3- نفسه ، ص 88.

4- قبيلة شيعية بجبل عامر جنوب لبنان في جبل لبنان وصفد، قدم أميرها ناصيف نصار المساعدة لظاهر العمر عبود الصباغ ،المصدر السابق ، ص 67

5- نفس المصدر ، ص 65 ، فولني ،المصدر السابق ، ص 88 .

معها خاصة و أن أسطوله الحربي كان متواجدا على سواحل البحر الأبيض المتوسط[1]طالبا منها المساعدة بالسلاح و الخبراء لتقوية جيشه مقابل أن يخلع طاعة السلطان و يقاتل جيوشه في بلاد الشام ، وأن يسمح للأسطول الروسي بالإنزال في الموانئ المصرية و التزود منها على أن يحميه من أية هجومات للأسطول العثماني عبر البحر [2] غير أن هذه المفاوضات لم تسفر عن أية نتيجة على الأقل بالنسبة لعلي بك الذي سعى إلى العودة لمصر على أمل حكمها من جديد لاسيما بعد وصول بريد له من بكوات مصر يطالبونه بضرورة العودة[3].و رغم إلحاح الشيخ الظاهر بضرورة التريث إلى حين وصول المساعدة الروسية ، قرر علي بك الرجوع إلى مصر حيث انهزم أمام قوات محمد أبو الذهب في الصالحية عند مشارف القاهرة في أفريل 1773 م ،ليتوفى بعدها بأيام ،و قد أورد فولني سبب الوفاة إما إلى تعفن جرح علي بك بعد معركة الصالحية أو إلى السم يكون مملوكه قد دسه له بعد أن أكرم ضيافته في الأسر[4].

4-2 موقف فولني من علي بك: رغم اهتمامه بحركة علي بك التمردية لما مثلته من تحد للدولة العثمانية في أصعب أوقاتها ، و استوقفت بخطورتها اهتمام أوروبا حقبة من الزمن، بل وتوقع بعض ساستها انقلابا خطيرا من ورائها ، إلا أن فولني نجده سلبيا في موقفه من المملوك علي بك عكس ما سيكون لاحقا مع ظاهر العمر.

اعتبره رجلا خارقا غير أنه يتدارك هذا الوصف بقوله ، أنه من المبالغة تصنيفه في خانة الرجال العظماء[5] ، فهو يفتقر إلى الثقافة التي حالت دون نمو تفكيره ملمحا إلى قناعة علي بك بعلم التنجيم[6] الذي كان يسير حياته ناهيك عن أخلاقه الوضيعة- وضاعة أصله المملوكي — من

1- يشير باز يلي إلى أن علي بك اتصل بالكونت أورلوف قائد الأسطول الروسي علم 1771 م ليرسل مجددا رسائل أخرى في ماي و أكتوبر 1772 ، المصدر السابق ، ها ، ص 57

2- الغالي غربي، المرجع السابق ، ص 133

3- وصلته رسائل من محمد بك أبو الذهب تطالبه بالعودة، استعملها كحيلة لاستقطاب علي بك و إلقاء القبض عليه ، فولني ، المصدر السابق ، ص 92، بازيلي ،المصدر السابق ، ص 64

4- فولني ،المصدر السابق ، ص93 ،سيار الجميل، تكوين العرب الحديث ، دار الشروق، ط 1، 1997 ص 280.

5- فولني ،المصدر السابق ، ص 93

6- يشير فولني إلى اعتماد علي بك على منجمه القبطي الذي حدد له ساعة العودة من عكا إلى مصر وطمأنه بأنها ستكون موفقة على حسب ما تشير إليه الكواكب، وأن مملوكه محمد أبو الذهب سيكون مصيره الموت ، نفس المصدر ، ص92 .

خيانة وحنث بالوعود للوصول إلى السلطة،إلا أنه أبدى إعجابه بميزة الطموح في حركته الإنفصالية لكنه فشل في تجسيده على الواقع و يعلل فولني سبب فشله هذا إلى :

-غروره الذي اكتسبه بعد أولى انتصاراته خاصة على حساب بدو الحجاز <<**فظن أنه بعد انتصاره على أمير ضئيل الشأن في الصعيد و فتحه أكواخ مكة، من حقه السيطرة على العالم بأسره متوهما نفسه كسلطان الأستانة شوكة وسطوة** >>[1].

- كثرة نفقاته على جيوشه لتعدد جبهات توسعه ، فحملة مكة لوحدها كلفته ست و عشرين فرنكا فرنسيا ،كلها جاءت من فداحة الضرائب المفروضة على السكان و التجار الأجانب وأثرت بشكل كبير على الوضعية الإقتصادية و الإجتماعية بأن انتشرت المجاعة ما بين 1770-1771م[2]

- ركونه المبكر للراحة و اعتماده المطلق على معاونيه من المماليك البكوات، الأمر الذي حط من قدره عندهم و جرأهم على الثورة ضده .

- إغداقه الثروة على أحد خاصته المقربين — أبو الذهب— و ثقته الزائدة فيه[3]، رغم محاولته تدارك ذلك في آخر مراحل تمرده لكن من دون جدوى[4] .

3-المدن و العمران : قدم فولني وصفا دقيقا لها خاصة مدينتي الإسكندرية و القاهرة، متفننا في ذكر عيوب كل منهما رغم ما تمثلانه من أهمية اقتصادية وحركية تجارية، ولم تسلم من انتقاده سوى مدينة رشيد Rosette التي أثارت مياه النيل فيها إعجابه ، ذكرته بنهر السين في فرنسا،كما ذكرته منتجاتها بمثيلاتها في أوروبا [5].

هي بوابة مصر الحقيقية ،رأي شاطره فيه رحالة فرنسي آخر زار مصر خلال نفس الفترة **1784** م ،حيث فضلها على مدينة الإسكندرية لاخضرارها و جمال مناظرها[6].

1- فولني ،المصدر السابق ، ص 84، 85

2- نفسه ، ص 95

3- روى فولني على لسان التاجر البندقي **Rosetti** الذي كان مقربا من علي بك أن هذا الأخير سأله : هل لسلاطين الفرنجة أولادا يضاهون بالثورة ابني محمد ؟ فأجابه التاجر: لا يا مولاي ، وهم يمتنعون عن فعل ذلك مخافة أن يعظم شأن الأولاد فتأخذهم العجلة ليرثوا آبائهم ، المصدر السابق ، ص 89

4- بأن حاول قتله، لكنه فشل حيث تمكن أبو الذهب من الفرار إلى صعيد مصر ، المصدر نفسه ، ص 90 .

5 - Volney , op. cit ,p,

6 - S ,H, Voyage en Turquie et en Egypte, fait l'Année 1784 ,chez roiyer libraire, 1788, P108

1/مدينة الإسكندرية: هي أقدم مدن مصر كلها [1].كانت في العصور الوسطى، قبلة لجمهور الرحالة من المسلمين و المسيحيين على حد سواء[2]، قال فيها **ابن جبير : <<... أنه ما شاهد بلدا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ،و أسواقه في غاية الإحتفال أيضا >>** [3]أما **ابن بطوطة** فقد بهره جمـــالها وثرائها لازدهار التجارة فيها[4] ،في حين وصفها الرحالة الإنجليزي **جوزيف بيتس**[5] بالمدينة الشهيرة جدا لعظمتها وروعة آثارها القديمة التي تجعل عقل الإنسان يتخيل مدى ما كانت عليه من عظمة [6].

يناديها العرب والأتراك بالسكندرية على حد تعبير القنصل دي ماييه،تقع في قلب الصحراء بعيدة عن نهر النيل،وهو ما جعل فولني ينتقد موقعها.فأريافها كلها رملية جدباء،ولم يبق من عظمتها إلا اسمها [7]المرتبط باسم مؤسسها الإسكندر الأعظم[8] رغم أن المقريزي يشير إلى غير ذلك في خططه [9]. عظمة تاريخها لم تمنعها من أن تتحول إلى مدينة أقل ما يقال عنها أنها عادية بل ومنظرها أصبح مرعبا في القرن 18م.

استغرب فولني كل شئ في هذه المدينة ، بدءا من سكانها رجالا و نساء ، مرورا بلغتهم منازلهم وانتهاء بتحصيناتها العسكرية .

1-1 السكان و العمران: لم يقدم فولني رقما إحصائيا لسكان هذه المدينة الذين وصف لغتهم بالبربرية ذات النبرات الحلقية النابية ، كما أعاب عليهم لباسهم العجيب لشدة طوله و عرضه

---

1 - De Maillet, op .cit , p150

2- السيد عبد العزيز سالم،تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي،ط2 ،دار المعارف،1961 ص1،2.

3- رحلة ابن جبير، المرجع السابق ، ص 14 .

4- رحلة ابن بطوطة ، المرجع السابق، ص 38 .

5- أو الحاج يوسف ،أول رحالة أوربي يزور مكة سنة1680م،من أصل انجليزي ولد سنة1652مغادر بريطانيا عام1668،وقع في الأسر في الجزائر،قام مع مولاه برحلة للأماكن المقدسة ،زار خلالها مصر ،رحلة جوزيف بيتس ،المصدر السابق ، ص7.

6- نفس المصدر ، ص 30 .

7- فولني ، المصدر السابق، ج1، ص 16 و دي ماييه ،المصدر السابق، ص151.

8- هو الإسكندر المقدوني 356-323 ق.م للتفصيل حياته فتوحاته، عد إلى ميتوديوس زهيراتي، الإسكندر الأكبر ،دار طلاس للدراسات ، ط1،1999

9- أورد المقريزي في خططه، أن الإسكندر الأكبر ليس هو باني الإسكندرية بل سبقه إليها شداد بن عماد من ملوك عاد للتفصيل عد إلى المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، الخطط المقريزية ج1 ،ط1 ، مطبعة مدبولي ، القاهرة ، ص419.

وانسداله من الرأس إلى القدمين، مستغربا من رؤوسهم الحليقة المغطاة بالعمائم الطويلة رأي حافظ عليه رحالة القرن التاسع عشر،اذ كتب أحدهم :<< **نحن في عالم جديد ،فالشعب الذي يعيش هنا لا يختلف عنا في لباسه الفضفاض فقط ولكن أيضا في طبيعته كانسان** >>[1].

أما المرأة فوصفها بالأشباح المتنقلة ،ولولا العيون البارزة من ثقوب البرقع ما تفطن المرء إلى أنوثتها. وصف خالفه فيه الرحالة الفرنسي **سونيني**[2] الذي ذكر أن المرأة المصرية على اختلاف ديانتها مسلمة كانت أو مسيحية ، على قدر كبير من الجمال الذي يزيد من رونقه وضع الكحل في العيون و صباغة الرموش و التزيين بالحناء[3].

الجانب العمراني، لم يسلم هو بدوره من انتقادات فولني، فوصف البيوت بالحقيرة والوضيعة التي أكدت سوء تنظيم عمران المدينة . كل شيء يوحي بإعطاء المدينة مظهرا حزينا و طابعا رتيبا[4]، فالشوارع ضيقة و غير مرصوفة، عديمة النظافة لانتشار الحمير و النوق فيها مع عدد كبير للكلاب الضالة، ليس بها أي مجرى مائي لتصريف مياه الأمطار، لذا تظل موحلة حسب الطقس[5]. نفس الموقف سجله الرحالة الفرنسي **الأب لوكا**[6]، الذي قضى سبعة أشهر في المدينة جعلته يجزم بأنها مدينة مخربة، مبانيها سيئة تشبه أعشاش الفئران صالحة للخنازير و ليس للبشر[7]. غير أن كل الكتابات سواء كانت لفولني أو لغيره من الرحالة أشادت وبانبهار كثرة المساجد

1- Le Duc d, Harcourt , l'Egypte et les Egyptiens, Librairie Plan, paris ,1893, P01.

2- Sonini De Manoncours ،ولد في اللورين الفرنسي، عمل محاميا و مهندسا بحريا، زار أمريكا ما بين 1772-1775 ،اهتم بالطب و التاريخ الطبيعي، زار مصر ما بين 1775-1780 م في رحلة رسمية ، وصفها في كتاب من 3 أجزاء ، الهام ذهني محمد علي ،المرجع السابق ،ص70 .

3- نفس المرجع ،ص285

4- فولني، المصدر السابق، ص 13

5- جراتيان لوسير، موسوعة وصف مصر، مدينة الإسكندرية ،تر، زهير الشايب، ، ص33.

6- Paul Lucas ، من مواليد مدينة روان الفرنسية 1644م شغف بدراسة الآثار فلقب بأثري الملك لويس 14 . كلف من قبل الحكومة الفرنسية بالسفر إلى الشرق للبحث عن النباتات النادرة والأحجار الكريمة ، زار مصر سنة1700، سجل رحلته في مذكرات طبعها عام 1722م بعنوان: Voyage Du Sieur Paul Lucas Au Levant ذهني الهام محمد علي،المرجع السابق، ص 57.

7 - Paul Lucas, Voyage du Sieur Paul Lucas au Levant, chez Nicolas Simart Libraire pp 26.28

والمآذن التي يتراوح عددها ما بين 25-30 مسجد و هو ما يؤكد للزائر الغريب خاصة الوافد من الغرب أنه فعلا موجود في عالم آخر بسحره ألا وهو الشرق[1].

1-2/تحصينات المدينة : تكاد تكون غائبة و إن وجدت فهي عديمة الجدوى.فالمنارة غير جديرة بهذا الإسم، فلا المدافع صالحة ولا المدفعيين أكفاء، أما قوات الحامية العسكرية – الإنكشارية فهي لا تتعدى خمسمائة 500 فرد بل و أنزل تعدادهم إلى النصف،لا يحسنون من مهمتهم العسكرية غير تدخين الغلايين . نتيجة لهذا ،فالمدينة في رأيه بإمكانها أن تقع بكل سهولة في يد أي قوة أوروبية كروسيا ،بل وستحولها إلى رماد غير أنه سرعان ما استبعد قيام مثل الهجوم لأن المدينة لا تمتلك مغريات الإحتلال وهو موقف كلفه انتقادا كبيرا من لدن الساسة الفرنسيين الذين اعتبروا هذا الموقف دعوة صريحة لروسيا من أجل احتلال مصر رغم ما تمثله هذه الأخيرة من فائدة هامة لفرنسا .

1-3نشاط الجاليات الأوربية:منح الموقع الساحلي لمدينة الإسكندرية امتيازا كبيرا جعلها محور تجارة عظيمة،ومحطة لتجميع السلع من مصر نحو المتوسط ومنه إلى أوربا وحتى عبر المقايضة مع البضائع الأوربية،الأمر الذي سمح بتواجد التجار الأوربيين ومتاجر لهم ،إضافة إلى رسو عديد السفن القادمة من مرسيليا و البندقية .

ورغم الموقع الساحلي الهام لهذه المدينة ،يعيب فولني عليها خطورة مينائها الجديد على الملاحة البحرية لامتلائه بالرمال،وهو ما يعرض السفن الراسية للإصطدام بقاع البحر خلال فصل الشتاء بل والى إغراقها مستدلا بحادثة مماثلة منذ 18سنةأدت إلى تحطم 42سفينة[2]، عكس الميناء القديم الذي اعتبره علماء الحملة الفرنسية[3] فيما بعد ومن قبلهم فولني من أجمل موانئ العالم،إذ بإمكانه استقبال كل أنواع السفن بمختلف أحجامها وحتى الحديثة منها.غير أن فولني وبكثير من التحسر و التذمر ،يشير إلى أن هذا الميناء ممنوع على السفن الأوربية ولا يتقبل إلا سفن المسلمين بقرار من السلطان العثماني [4].

1- جراتيان لوسير، المصدر السابق، ص31 .

2- فولني ،المصدر السابق،ص15،16.

3- جراتيان لوسير،المصدر السابق،ص22.

4- فولني ،المصدر السابق،ص15.

يتساءل فولني في حديثه، عن جدوى وجود ميناءين لا يعودان بالفائدة على المدينة، خاصة الميناء الجديد الذي استفسر عن عدم إصلاحه و ترميمه من قبل الأتراك لكنه سرعان ما يقدم جوابا لسؤاله. فحسبه الأتراك يتلفون ولا يرممون: فذهنية التركي في نظره تقوم على تهديم أعمال الماضي و آمال المستقبل لارتباطهم بالجهل و البربرية بل و يذهب في انتقاده لهم عدم استغرابه حتى من تهديمهم للميناء القديم[1] وهو نفس الإتهام نجده عند القنصل الفرنسي دي ماييه في حديثه عن إهمال الأتراك لقلعة مدينة القاهرة[2].

بحكم هذا الموقع التجاري المفتوح على العالم الخارجي و الرابط بين مختلف الأسواق في الغرب والشرق تواجدت الجاليات الأوربية على اختلاف جنسياتها في المدينة حتى قبل الفتح العثماني لمصر بل إلى فترة ما قبل العصور الوسطى وبداية الفتح الإسلامي لهذه المدينة ، غير أنه لم تبرز أهمية هذا التواجد إلا زمن المماليك[3].

عاشت الإسكندرية عصرا مزدهرا نهضت فيه اقتصاديا وعمرانيا، فازدحمت المدينة طول السنة بالأوربيين الوافدين إما للإتجار أو الحج للأماكن المقدسة في سيناء وفلسطين ، وأصبحت المدينة من وراء هذا النشاط، لا تقل أهمية عن أكبر المدن التجارية في العالم كالبندقية ومرسيليا.

كان للأحداث السياسية الجديدة التي بات يشهدها العالم خلال القرن الخامس عشر أثرا بالغا على المدينة لا سيما في النصف الثاني منه وتحديدا عند نجاح الفتح العثماني للقسطنطينية سنة1453م، أين حول التجار البنادقة رؤوس أموالهم إلى بلاد المماليك، فصارت بذلك البندقية أكبر متعامل في تجارة شرق المتوسط وأنشأت جالية كبيرة لها بالإسكندرية وغيرها من موانئ مصر حتى صار لها فندقا خاصا بها في المدينة[4] .

تشير سجلات المحاكم الشرعية للإسكندرية خلال القرن الخامس عشر ، أن المماليك حرصوا على سلامة الأوربيين فوق أراضيهم ، فقد حدث أن وقعت مشاجرة بين بعض التجار الأوربيين وأهل مدينة الإسكندرية ، فتحيز الوالي المملوكي للتجار وعاتب المتشاجرين من الأهالي الذين

1- فولني ، المصدر السابق، ص15.

2 - De Maillet, op cit, P239.

3- صلاح أحمد هريدي علي ، الجاليات الأوربية في الإسكندرية في العصر العثماني ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1989، ص 16.

4- نفسه ، ص 16، 18.

ثارت ثائرتهم، فأرسل السلطان رسولا من القاهرة فتحيز هو الآخر لصالح الأوربيين بأن حبس كبار الشخصيات من الأهالي وغرمهم الأموال وقتل ست وثلاثين منهم وهذا كله يدل على حرص دولة المماليك على تأمين وجود الجاليات الأوربية، فهم مصدر دخل عظيم لها[1] .

تعاظم توافد الجاليات الأوربية على المدينة مع الوجود العثماني في مصر وبلاد الشام خاصة وأن السلطان سليم الأول جدد امتيازات البنادقة بتاريخ 14فيفري1517م ، نصت على دفع الجزية للسلطان العثماني ذهبا ومقدما لخمس سنوات مع دفع كميات عينية من السكر والحبوب على أن يتعهد السلطان بالمقابل حماية البنادقة وحسن معاملتهم في كل ثغور وموانئ مصر، بل وفتح المجال أمام باقي الجنسيات الأخرى كالفرنسيين الذين انفردوا في المنطقة بعد معاهدة فيفري 1535م بين السلطان سليمان القانوني وملك فرنسا فرانسوا الأول، والتي بموجبها تمتع الفرنسيون بأفضلية ممارسة البيع و الشراء ، كما تقرر إعفاء الرعايا الفرنسيين من الخضوع للقضاء المحلي كما نصت هذه المعاهدة على دعوة ملك انجلترا للإنضمام إليها في مدة لا تتعدى ثمانية أشهر، وهو ما يعكس رغبة الدولة العثمانية في توسيع المعاهدة، غير أن انجلترا لم تستجب لها وعقدت معاهدة ثنائية أخرى مع الباب العالي سنة 1558م تضمنت نفس امتيازات الفرنسيين و البنادقة[2].

إن هذا الحرص العثماني على استمرارية العلاقات الخارجية مع الغرب المسيحي ، شجع على الأوربيين إلى مدن الشرق العثماني لا سيما الإسكندرية، حيث ساهموا وبشكل فعال في بناء اقتصادها سواء في الصناعة ، صرف الأموال أو التجارة التي برعوا فيها كثيرا، إما لحسابهم الخاص أو كوكلاء لغيرهم توافد كما تشاركوا مع الأهالي في بعض الأحيان أو حتى مع جاليات أخرى مقيمة الإسكندرية على غرار المغاربة .

2-مدينة القاهرة : من الإسكندرية وعبر رشيد ، انتقل فولني إلى القاهرة ، هذه المدينة الفاطمية التي تأسست سنة 969م و ظلت عاصمة سياسية لمصر في عهد المماليك إلى حين دخول العثمانيين لها، فتحولت إلى مجرد ولاية تابعة للسلطة المركزية بالأستانة .

يعني اسمها المدينة المنتصرة دوما[3]، جاء وصف رحالة القرن الثامن عشر لها مطابقا إلى حد كبير

1- صلاح أحمد هريدي علي، المرجع السابق ، ص17.

2- نفسه ، ص24، 81.

3- سمير عمر ابراهيم، الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة خلال النصف الأول من القرن 19 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1992 ، ص 79.

لما ورد ذكره في كتابات الرحالة السابقين، حيث اتفق معظمهم على أنها عاصمة البلاد، فهي مدينة شهيرة يسميها العرب مصر و كايرو Cairo بتعبير الأروبيين [1].

هي ثاني مدن الإمبراطورية العثمانية من حيث الأهمية ، تقع عند رأس الدلتا، لذا هي أكبر المدن ازدحاما، غير أن آراء الرحالة اختلفت حول تحديد موقعها ، فذكر فولني أنه موقع سيئ لابتعاده عن النيل مما حرم المدينة من الحصول على مياهه مباشرة، كما أنها شيدت على مكان منخفض، أسفل جبل المقطم[2] و هو ما يعرضها باستمرار لهبوب الأتربة و الرياح[3].

شبهها الرحالة الأوربيون بالمدن الأوربية من حيث كبر حجمها، حيث أشار **الأب سيكار**[4] بأنها أطول من باريس ولكنها أقل عرضا منها ، وأكد هذا الأمر أحد الرحالة الروس بتفوقها على مدينة القسطنطينية حجما ، كما هي من أغنى مدن العالم [5].

2-1السـكان: اتفق معظم المؤرخين و الرحالة الذين زاروا القاهرة وكتبوا عنها خلال القرن الثامن عشر، أنها من أكبر مدن الإمبراطورية العثمانية و أكثرها ازدحاما بالسكان بعد القسطنطينية حيث قدر عددهم القنصل الفرنسي دي ماييه ب 300 ألف/ن فقدت منهم المدينة حوالي 40 ألف خلال الطاعون الأخير الذي ضربها سنة 1784م[6]، في حين أورد المؤرخ أندري ريمون عدد 263 ألف/ن نقلا عن كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية[7]، بينما لم يشر الرحالة فولني إلى أي تعداد دقيق بحجة غياب سجلات المواليد والوفيات وهو ما يربطه برفض المسلمين للإحصاء، غير أنه استغرب أن يتجاوز عدد سكانها 250 ألف/ن[8].

تنوعت تركيبة مجتمع مدينة القاهرة بين الأقباط،الأتراك،اليهود،المغاربة والأوربيين من

1- كارستن نيبور ، المصدر السابق ، ص223 .

2- جبل ينتمي إلى السلاسل الشرقية الممتدة حتى البحر الأحمر .

3 - De Maillet, op.cit, p 238.

4- Claude Sicard 1677م/1726م ، عمل أستاذا للدراسات الإنسانية في ليون ثم رحل إلى الشرق على رأس بعثة دينية لتحويل الأقباط إلى الكاثوليكية، تعلم في سوريا العربية ، مكث بمصر حوالي 20سنة ، توفي بمرض الطاعون ، ذهني الهام محمد علي ، المرجع السابق ، ص 59 .

5- نفسه ، ص 207، 208 .

6- أندري ريمون المرجع السابق ، ص50، سمير عمرابراهيم، المرجع السابقص53.

7- أندري ريمون ، المرجع السابق ، ص 83، 106

8- فولني ، المصدر السابق ، ج1، ص152.

فرنسيين، يونانيين وبنادقة. فيما يخص الأقباط، أشارت دراسة أندري ريمون إلى أن عددهم قدر ب 10 آلاف /ن، امتهنوا صناعة الحرير والصياغة كما أن بعضهم اختار العمل ككتبة في منازل البكوات المماليك وكبار ضباط فرق الإنكشارية اعتمادا على تصريح القنصل الفرنسي عام 1778 م، أما الأتراك فتولوا الوظائف العسكرية المختلفة كالباشا الوالي و أغا الإنكشارية[1].

لا يمكن الحديث عن سكان القاهرة من دون تسليط الضوء على المغاربة الذي يشير المؤرخ عبد الرحيم عبد الرحمان إلى دورهم المهم -إيجابا أو سلبا - في حياة مصر السياسية والإقتصادية[2].

أ/المـــغاربة: يرتبط وجود المغاربة في هذه المدينة بسببين رئيسيين أولاهما ديني محض، ويتمثل في قافلة الحج المغربية المنطلقة من مدينة مراكش[3] عبر الجزائر، تونس، طرابلس الغرب فالقاهرة ومنها إلى الأماكن المقدسة آلاف المغاربة ذهبوا إلى القاهرة و أقاموا فيها عدة أسابيع قبل انطلاق القافلة، ثم في العودة فضلوا إطالة مدة إقامتهم بها إما لمتابعة الدراسة في أكبر مساجدها الأزهر الشريف الذي وصفه الرحالة نيبور بأنه أقدم وأوسع وأفخم مساجد القاهرة على الإطلاق[4]، أو الإقامة فيها نهائيا حيث برز فيهم العديد من العلماء، لم تتوان المصادر التاريخية في وصفهم بأعيان الإفادة والتدريس بجامع الأزهر ، كما حاز بعضهم ثقة أساتذتهم من العلماء المصريين فأوكلوا لهم مهمة التدريس نيابة عنهم مثل الشيخ محمد بن حسن الجزائري المتوفى عام1187ه/1773م[5] .

أما ثاني الأسباب فكان تجاريا صرفا، و ارتبط بنوعية العلاقات التجارية التي جمعت بين المغرب ومصر، الأمر الذي دفع عديد التجار المغاربة للإستقرار في مصر والإتجار في الزيوت و االمنتوجات الصوفية و الجلدية المصنوعة في شمال إفريقيا بالمقابل كانوا يصدرون نحو بلدانهم المنتجات الشرقية من توابل و منسوجات مصرية ، كما تاجروا في البن وهو ما يوحي بضخامة الثروة التي تكونت

---

1 - De Maillet, op.cit, p237.

2- عبد الرحيم عبد الرحمان، فصول من تاريخ مصر الإقتصادي والإجتماعي في العصر العثماني ، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، 1990، ص362.

3- مدينة مغربية ، أسسها المرابطون على يد يوسف بن تاشفين ، في القرن الخامس للهجرة /سنة1060م عاشت أزهى مراحلها خلال حكم الموحدين ، من أهم علمائها ، الشيخ عبد الواحد المراكشي صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، موسوعة ألف مدينة إسلامية ، ص451.

4- كارستن نيبور، المصدر السابق ، ص229

5- عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم ، المرجع السابق ، ص372، 373.

عند هؤلاء. قدر عددهم أندري ريمون ب 15 ألف مغربي توزعوا عبر كامل أنحاء القاهرة، تميزوا بسمعة ثرائهم و نفوذهم ، انتظموا في جماعة يرأسها شيخ رواق المغاربة في الأزهر الشريف[1]

ب/اليـــهود: شكل اليهود طائفة مهمة في مجتمع مدينة القاهرة لخطورة الدور الذي لعبوه لاسيما في المجال التجاري. اختلفت الدراسات التاريخية في تحديد عددهم،والذي يمكن أن يكون قد تراوح ما بين 2000 إلى 5000 يهودي، وصفهم الرحالة **سونيني** بأنهم لا يتحدثون بصوت عال بل يتهامسون فيما بينهم عكس المسلمين و ذلك لخوفهم من سكان البلاد فاليهودي يسير منحني الرأس وبخطوات سريعة، يمارسون شعائرهم في ثمانية معابد في حي خاص بالقاهرة [2]، شوارعه ضيقة ومظلمة قذرة وملوثة، من عاداتهم ارتداء الثياب البالية التي لا تعكس ثرائهم المادي، يدفعون الجزية مثل السكان الأقباط وكغيرهم من أهل الذمة[3].

ارتبط نشاطهم بصناعة الذهب و الفضة و المنسوجات الخفيفة كالقطن والحرير الواردين من الهند وسوريا، كما هيمنوا على التجارة.وفي هذا المجال يشير القنصل دي مايه الى أنهم أنشأوا شركة تجارية مناصفة مع بعض التجار الفرنسيين القادمين من أوربا عام 1727م ولكنها كللت بالفشل، بينما أشار الرحالة نيبور إلى أنهم تمتعوا بحرية العمل في كل المهن مع ضمان الحماية التامة لهم من قبل الإنكشارية و الديوان، فتمكنوا بفضل رؤوس الأموال التي جمعوها من القيام بأنشطة بنكية في بلاد كانت فيها البنوك غير متطورة ، كانوا يقرضون الأموال للأتراك بالربا ، كما نشطوا في قطاع الجمارك[4]، إذ أورد ذات القنصل الفرنسي حادثة اليهودي زافير –مسؤول جمرك الإسكندرية–الذي رفعت ضده عديد الشكاوي خاصة من قبل التجار الفرنسيين الذين طالبوا من الباشا معاقبته، واستدعي للديوان أين وجهت له الإتهامات ورفعت الشكاوي إلى أسطنبول استدعي على إثرها للمحاكمة[5] .

تمتع اليهود من وراء هذه الأنشطة الإقتصادية بثراء كبير ، أشار إليه ذات القنصل الفرنسي حينما تحدث عن تاجر يهودي – إبراهيم سير انو – أصبح من أغنى تجار القاهرة عام 1747م

1- أندري ريمون ، المرجع السابق، ص78

2- ذهني الهام محمد علي ، المرجع السابق ، ص 282

3- سمير عمر ابراهيم، المرجع السابق، ص57-58

4- كارستن نيبور، المصدر السابق، ص245

5- دي مايه، المصدر السابق، ص92.

غير أن هذا النفوذ سرعان ما تراجع مع حلول عام1769م[1]، حيث قضى على بك على كل نفوذ اليهود في الجمارك، بأن أوقف المشرف على جمرك مدينة بولاق وشنقه مع مصادرة أملاكه واستقدم بدلا عنهم الشوام الكاثوليك[2]. عن هذا التغيير، كتب القنصل الفرنسي دي مور[3]: <<**لقد انتهى أمر اليهود، فقد فقدوا السيطرة على الجمار ك اختفت أسماؤهم من سجلاتها**[4]>>.

إن هذا التغير يقودنا إلى الحديث عن عنصر رابع، برز وجوده في المجتمع المصري بدايات القرن 18م لكنه لم يصبح فاعلا و مؤثرا إلا في نصفه الثاني ومع وصول عل بك إلى حكم مصر.

ج/ **الـــشوام**: توافد الشوام الكاثوليك على مدن دمياط[5]، رشيد ثم القاهرة مع مطلع سنة 1724 م .كان عددهم عائلتين أو أكثر [6]و بفضل تعاظم نفوذهم المادي المرتبط بعلاقاتهم التجارية مع التجار الأوروبيين تمكنوا من الحصول على التزام الجمارك عام 1750م الذي كان حكرا كبيرا على اليهود كما أشرنا إليه آنفا ليحلوا محلهم نهائيا في عهد على بك.

شكل هذا التغيير على حد تعبير أندري ريمون ثورة حقيقية في سياسة علي بك الذي ورغبة منه في التخلص من الإنكشارية قام بإبعاد مقربيهم من اليهود كعامل سياسي أما ماديا ففكر بأن التحالف مع قوة السوريين المالية قد يحتاجها، لاسيما و أن طموحاته التوسعية خارج مصر تتطلب موارد كبيرة[7].

قدر علماء الحملة الفرنسية عددهم بـــ 5 ألاف مسيحي، هيمنوا على تجارة المنسوجات خاصة

1- فولني ، المصدر نفسه ، ص 145.

2- لفظ يرتبط تاريخيا بسكان باد الشام و نستخدمه هنا كتعبير اصطلاحي للدلالة على من هاجر من هذه المنطقة كما عرفوا بهذه التسمية من المصريين أنفسهم، ماهر محمد سعيد درويش هجرة الشوام إلى مصر خلال النصف الثاني من القرن 19 م و بدايات القرن 20، جامعة النجاح الوطنية فلسطين 2003 ص10.

3- قنصل فرنسا في الإسكندرية من(1779/1774م)جاء بعد القنصل جوان فيل (1759/1752م) وداميرا (1774/1759م)، الهام ذهني محمد علي ، المرجع السابق ، ص81 .

4- المرجع نفسه ، ص 284

5- مدينة مصرية على الضفة الشرقية لنهر النيل ، تبعد عن ساحل البحر المتوسط ب12كم ، عبد الكريم العفيفي، المرجع السابق، ص237 .

6- فولني، المصدر السابق، ص 145

7- أندري ريمون، المرجع السابق، ص 83 .

تلك المستورد ة من أوروبا ، مما سمح بتزايد ثروتهم . رغم هذا، وصفهم فولني بأسوأ أنواع البشر إذ أن أخلاقهم لا ترتفع إلى أخلاق المسلمين و هو أمر لا يجعلنا نفسره على أنه مدح لهؤلاء إذا اعتبرنا أنه يصفهم بالأكثر انحطاطا من المسلمين، كما حملهم مسؤولية عدم استقرارالقاهرة[1].

د/الجاليات الأوربيـــة: تنوعت جنسياتهم بين البنادقة ، البريطانيين و الفرنسيين، ولابد من الإشارة هنا إلى تأثير العلاقات الإقتصادية و التجارية بين الدولة العثمانية و دول هذه الجاليات على زيادة عدد ها أو تناقصها، خاصة إذا علمنا أن السلطان سليم الأول عند دخوله مصرسنة1517م جدد الإمتيازات التي كان البنادقة قد تحصلوا عليها أيام المماليك، أما الفرنسيين فقد تعاظم نفوذهم منذ امتيازات 1535م و هو ما جعل فولني يقر بأفضلية وجودهم في مصر على حساب غيرهم و يؤكد على حدة المنافسة بينهم و بين الإنجليز مستشهدا بمكيدة تجارية دبرتها شركة الهند التجارية الشرقية البريطانية عام 1769 م ضد تاجر فرنسي هو السيد سان جرمان عندما تعرضت قافلته من ميناء السويس[2] إلى القاهرة للنهب على يد البدو ، و التنكيل بأفرادها[3].

تحدث فولني عن الحي الأوربي ، فوصفه بأنه زقاق واسع، بيوته مريحة[4] لكن بيت القنصل أجمل منها بكثير على حد وصف الأب لوكا[5].

يشير فولني في حديثه عن تواجد الأوروبيين بالقاهرة فبين كيف أنهم يتحاشون الخروج لشوارعها إما تجنبا لشتائم السكان الذين يكرهون الفرنجة[6] أو لإهانات المماليك الذين يتعمدون إنزالهم من على ظهور الحمير في أزقة الشوارع و هو رأي وجدناه عند الرحالة نيبور الذي قال أن الأوربيين لا يسمح لهم إلا بركوب الحمير و أن عليهم النزول منها أمام بكوات القاهرة أو أحد وجهائها[7]، كما أشار فولني إلى أن الأوربيين في كثير من الأحيان يلتزمون حيهم تفاديا لفرض

1- فولني ، المصدر السابق ، ص149 .

2- Suez مدينة مصرية على قمة خليج السويس المتفرع إلى البحر الأحمر، تبعد عن القاهرة بـــ 1200 كم فرعونية الأصل لقبت بالقلزم في العصور الوسطى ، عبد الكريم العفيفي، المرجع السابق، ص 296.

3- فولني ، المصدر السابق، ها ، ص 146، 147.

4- نفسه، ص ، 149.

5 - Paul Lucas , op .cit, P33.

6- فولني ، المصدر نفسه ، ص 149.

7- نيبور ، المصدر السابق ، ص253، 254.

ضرائب جديدة عليهم من قبل الباشا أو البكوات أو تجنبا للفوضى التي كثيرا ما تعم شوارع القاهرة أو حتى كوسيلة لعزل أنفسهم عن السكان تخوفا من انتشار مرض الطاعون[1].

2-2 العمران: هذا عن سكان المدينة، أما عن الجانب العمراني فيها، فتجد تباينا واضحا بين وصف فولني الذي يحمل في طياته الكثير من روح العداء لهذا الجزء من الفضاء العثماني وبين آراء غيره من الرحالة الذين زاروا مصر خلال فترة الدراسة ذاتها، أو قبلها بسنوات قليلة.

إن المتبع لتطور مدينة القاهرة العمراني سيلاحظ جملة التغييرات التي حدثت، لأسباب سياسية اجتماعية وحتى اقتصادية . فانتقال مصر من عاصمة لدولة المماليك إلى مجرد ولاية عثمانية ترتب عنه الكثير من الإنعكاسات ، وما قام به السلطان سليـــم الأول عشية دخوله القاهرة بنقله لخيرة حرفييـــها و صناعها و علمائها إلى القسطنطينية، زيادة على نمو مجتمع مدينة القاهرة بزيادة عدد الشوام والأوربيين كلها عوامل ساهمت في تحول المدينة إلى أكثر مدن الإمبراطورية كثافة بعد القسطنطينية زيادة على تعاظم نشاطها.

كل هذه العوامل ساهمت والى حد كبير في تغير الوجه العمراني للمدينة نحو الأسوأ. وصف أكده الرحالة الفرنسي **تيفينو**[2] الذي أشار إلى انعدام الشوارع الجميلة في القاهرة بل وينتشر في المقابل، عددا من الشوارع الصغيرة المليئة بالإنحرافات والمنعطفات الأمر الذي يؤكد على انعدام التهيئة العمرانية في هذه المدينة.

في هذا الصدد، يشير أندري ريمون أن مدينة القاهرة ، توسعت خلال القرن السابع عشر باتجاه الجنوب الغربي و ليس باتجاه الشرق لاعتبارات طبيعية و اجتماعية، تمثلت في وجود سلسلة جبل المقطم إضافة إلى تمركز المقابر بها منذ العصر المملوكي ، ناهيك عن كون هذه الجـــهة كانت مخصصة لرمي قمامـــات و فضلات سكان المدينة، شكلت مع مرور العصور تلالا تصعب إزالتها [3]، كما جاء هذا الإختيار بحثا عن الأمن وابتعادا عن مراكز التوتر والثورات وطلبا للهواء

1- فولني، المصدر السابق ، ص 148 .

2- تيفينو جان، من أهم الرحالة الفرنسيين في النصف الثاني من القرن 17م ، عمل في مكتبة الملك الفرنسي تعلم اللغة العربية ، زار مصر سنة1657م ومكث بها عامين ، اشتهرت كتاباته بوصف مظاهر الحياة الإجتماعية في مصر العثمانية ذهني الهام محمد علي ، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، المرجع السابق ، ص 65 .

3- أندري ريمون، المرجع السابق، ص 139-157 نيبور ، المصدر السابق .ص 223

النقي ولمصدر المياه [1] و هو الأمر الذي جعل فولني يقدم وصفا قبيحا ومنفرا للمدينة إذ تعجب وبازدراء من كيفية تسميتها بالقاهرة الكبيرة، وهي ليست سوى مدينة متخلفة لا تختلف عن مدن القرن العاشر الميلادي،تفتقد للبنايات الفخمة والساحات المنتظمة والشوارع المبلطة ضواحيها كلها تلال من الأنقاض المتراكمة و المقابر العديدة ،أزقتها ضيقة متعرجة و موحلة يزدحم فيها الناس مع الجمال و الحمير و الكلاب التي لا يقتلها المسلمون رغم علمهم بقذارتها بل و يقدمون لها فضلات طعامهم، فقذارتها لا تختلف عن قذارة الإسكندرية حيث تنتشر روائح ومناظر تنفر العين و الأنف معا.هي حالة مدينة تعكس الهمجية المفروضة عليها ، هكذا يلمح فولني إلى دور الأتراك في إفقاد المدينة جمالها[2].

تمتاز منازل القاهرة بالجمال خاصة من الداخل، ولكنها سيئة المظهر من الخارج حيث تحمل مسحة السجون لعدم إطلال نوافذها على الشوارع . توزيع غرفها رديئ رغم تعدد طوابقها الأمر الذي لم يجده ذاته في بيوت البكوات التي أعجبته زخرفة جدرانها بالآيات القرآنية و بلاطها الخزفي وسعة أحواضها الرخامية[3] . في هذا الشأن، علل الرحالة الأوروبيين ظلمة شوارع القاهرة بطبيعة المساكن التي أقر فولني نفسه بتعدد طوابقها عكس منازل الإسكندرية و هو ما جعلها تحجب أشعة الشمس[4] ، تعدد أرجعوه إلى طبيعة الرجل الشرقي بل إلى طبيعة الزوج الشرقي المحافظة والتي تصل إلى حد التجبر و الطغيان [5] بأن عزل نسائه في أعلى الطوابق بعيدا عن الأنظار[6] .

من هذا الوصف ، نلاحظ إمعان فولني في ذكر عيوب القاهرة وإهماله لإيجابياتها المتمثلة خاصة في كثرة أبوابها ومساجدها ، حيث أشار في هذا الشأن القنصل دي ماييه، إلى أن أجمل ما في القاهرة مساجدها وخص بالذكر جامع الأزهر الشريف[7] ، إضافة إلى أبوابها إذ يعتبر باب الفتوح من أقدمها وأعظمها على الإطلاق [8]، كما اشتهرت المدينة وكغيرها من مدن الشرق

1- ذهني الهام محمد علي ، مصر في كتابات الرحالة في القرن 18 ، المرجع السابق، ص 100.

2- فولني ، المصدر السابق ، ص150، 153.

3- فولني ، المصدر السابق، ص 151.

4- ذهني الهام محمد علي، المرجع السابق، ص 207

5- فولني، المصدر السابق، ص 151

6- ذهني الهام محمد علي، المرجع السابق، ص 210

7 -De Maillet , op. cit, P246.

8- أرفق نيبور كتابه بصورة لهذا الباب ، المصدر السابق ، ص 219.

الساحر بكثرة أحواض السقاية التي وضعت على حافتي الشوارع لسقاية العابرين، وقد حرص أصحابها على وضع أكواب على جوانبها لتسهيل العملية [1]، كما قدم الرحالة نيبور وصفا مغريا لحماماتها الرائعة في حين اكتفى فولني بانتقاد حرارتها الشديدة[2].

2- 3 التجارة في القاهرة: على الرغم من تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية في مصر جعلت من فولني يصفها بالهمجية الشاملة [3] إلا أنه بدا متعجبا من حيوية المدينة التجارية وبقائها محافظة على ريادتها رغم الصعوبات التي لحقت بالمنطقة بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح أواخر القرن الخامس عشر، و علل فولني سببها إلى:

- تمركز كبار الملاك و الأثرياء من المماليك و العلماء فيها.
- أهمية موقعها الجغرافي الذي جعلها ملتقى للطرق التجارية المؤدية إلى الجزيرة العربية و الهند عن طريق البحر الأحمر و إلى الحبشة عن طريق نهر النيل و إلى أرويا و الدولة العثمانية عبر البحر الأبيض المتوسط
- انطلاق قافلة الحج المصري من القاهرة[4].
- تمركز جالية معتبرة من التجار المغاربة على ما عرف عنهم من ثراء .

كل هذه العوامل مكنت مدينة القاهرة من الإحتفاظ بحركيتها التجارية بل و إلى منافسة مثيلاتها في الساحل المصري و في بلاد الشام. في هذا الصدد يشير أندري ريمون إلى أن القاهرة ظلت مركزا للتجارة، فقد كان يمر عبرها 100 ألف قنطار من البن الوارد من اليمن لكي يباع في باقي أسواق الإمبراطورية أو يعاد تصديره إلى أرويا مؤكدا على زيادة عدد الأسواق و القيساريات (خان- فندق- وكالة) و هي أساس التجارة الضخمة و تعد مؤشرا هاما للنشاط الاقتصادي ، فقد ذكر المقريزي[5] أنه كان بالقاهرة في النصف الأول من القرن 15م 87 سوقا

1- ذهني الهام محمد علي، المرجع السابق ، ص 209

2- نيبور ، المصدر السابق ، ص230، 231. ص 230-231.

3- فولني، المصدر السابق ، ص 134.

4- نفسه، ص135.

5- هو أحمد بن علي بن عبدا لقادر أبو العباس تقي الدين المقريزي (766، 845ه/1365، 1441م) مؤرخ الديار المصرية ، ولد ونشأ ومات بالقاهرة، تولى فيها شؤون الحسبة والإمامة، من مؤلفاته ، كتاب المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار والمعروف بخطط المقريزي ، الزر كلي ، ج1، ص 177، 178

و57 قيسارية، بينما ارتفع عددها في العصر العثماني[1] إلى145سوق و360 قيسارية.

ارتبطت تجارة القاهرة بمظهرين رئيسيين تمثلا في:

أ/:حركة القوافل التجارية : حددها فولني بثلاثة رئيسية :

1- قافلة الحبشة والسودان : تنطلق هذه القافلة من مدينة دارفور[2] إلى مصر عبر مدينة أسيوط[3] بمحاذاة نهر النيل خلال مدة تتراوح ما بين 40الى50يوم، سالكة طريقا صحراويا نادر المياه ، لذا تنقسم هذه القافلة عند انطلاقها إلى قسمين، يبدأ أحدهما الطريق قبل الآخر بعدة أيام تكون كافية لتتجدد مياه الآبار إلى حين مرور القسم الثاني [4].

لم يشر فولني إلى تعداد هذه القافلة التي تتكون من حوالي 5آلاف جمل، يخصص ثلثها لحمل مياه التموين اليومي ، ربعها لحمل الطعام ولا يخصص لحمل البضائع إلا 1/8 من العدد الإجمالي فقط بينما يبقى العدد الآخر لحمل المرضى أو تحسبا لأي طارئ خلال مسار القافلة[5] .

قبل وصول هذه القافلة إلى مدينة أسيوط، تتوقف عند قرية صغيرة تبعد عنها مسيرة اثنا عشر يوم لانتظار المراقب أو الكشاف المرسل من قبل بكوات القاهرة لتحديد قيمة رسومها وتفتيش بضائعها التي حصرها الرحالة فولني[6] في العبيد والذي قدرهم بحوالي 1200 عبد، رغم أن بعض الدراسات قدمت رقما يفوق هذا بثلاث أضعاف[7]، إضافة إلى سلع أخرى تشتهر بها إفريقيا السوداء كريش النعام[8]، يبينها الجدول التالي، الذي أشار إلى معطياته علماء الحملة الفرنسية على

1- أندري ريمون ، المرجع السابق ، ص37، 38 .

2- مدينة سودانية معروفة ، دخلها الإسلام عن طريق القوافل التجارية الآتية من مصر في القرن الأول الهجري، تشتهر بزراعة القطن والدخان ، اشتراها الخديوي إسماعيل من العثمانيين سنة 1874م لتوسيع ممتلكاته ، موسوعة ألف مدينة إسلامية ، المرجع السابق ، ص 224 .

3- من أهم مدن الوجه القبلي لمصر ، تبعد عن القاهرة ب375كم جنوبا ، دخلها الإسلام عام 20ه 641م، منطقة عبور تجاري لقوافل السودان نحو مصر ، المرجع نفسه ، ص53، 54.

4- جيرار بيير سيمون، تر، زهير الشايب، موسوعة وصف مصر ، الحياة الإقتصادية في مصر في القرن18م ج1 ، من دون دار نشر ، 1968 ، ص239.

5- نفس المصدر ، ص238 .

6- فولني ، المصدر السابق، ص135.

7- أشار بيير سيمون جيرار عضو الأكاديمية الفرنسية الملكية للعلوم وصاحب موسوعة وصف مصر، أن عدد العبيد يتراوح ما بين 5و6آلاف عبد ، المصدر السابق ، ص237، 238

8- فولني ، المصدر السابق ، ص 135

مصر سنة 1798 م من خلال ذكرهم لأهم صادرات وواردات مصر خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر :

صادرات القافلة إلى مصر	كمية البضائع
العبيـــــــــــد	6000/5000عبد
ســـن الفـــــــيل	03قنطار
التمر الهندي	600قنطار
الصمغ	2000/1000قنطار
ريش النعام	30/25قنطار
قرون الكركدن[1]	100قرن
الشبة	200قنطار
الكرباج	300/200كرباج

المصدر ، موسوعة وصف مصر ، ج1 ، ص241 .

عند وصول هذه القافلة إلى مصر ، تشحن بضائعها عبر النيل وتضطر بذلك إلى بيع ما بقى لها من الجمال التي أصبحت عديمة الفائدة بالنسبة لها .

تمكث هذه القافلة في مصر ما بين 6 إلى 8 أشهر، تشتري عند عودتها بضائع تختلف عما وردته لمصر سواء كانت منتجات محلية كالمنسوجات القطنية والحريرية المصرية والسورية ، أو منتجات أجنبية أوربية وأسيوية على غرار الحرير والتوابل والبن، إضافة إلى مواد التجميل من البندقية، تضح بشكل أوفر من خلال الجدول الآتي :

1- تستخدم قرون الكركدن في صناعة مقابض السيوف والخناجر لاعتقاد الأتراك بأن سلاحا معدا على هذا النحو يمنح لصاحبه الشجاعة والإقدام ، بيير سيمون جيرار، المصدر السابق، ص241

واردات القافلة من مصر	كمية البضائع
منسوجات حريرية وقطنية	1000قطعة
أقمشة كتان أسيوط	6/5آلاف قطعة
قماش حريري هندي	2000/1000قطعة
الشالات	2000شال
البن اليمني	50قنطار
حلي البندقية	05قنطار
الرصاص	500/200قنطار
النحاس	1000قنطار
الدروع	150/100درع
بنادق أوربية	30/20بندقية

المصدر ، موسوعة وصف مصر ، ج1 ، ص 245، 246.

2-قافلة الحج المغربية: و هي الأهم غلى الإطلاق، تنطلق من مراكش نحو مكة، تضم حجاجا من المغرب والسنغال لينضم إليهم حجاج طرابلس و تونس[1] لتسير بمحاذاة الساحل المتوسطي حتى تصل إلى الإسكندرية و منها عبر الصحراء إلى القاهرة فتنضم إلى قافلة الحج المصرية المتوقفة ببركة الحج [2] والتي من المقرر أن تنطلق بتاريخ 22 ماي 1762 م[3] لتغادرا معا نحو مكة و تعودان بعد حوالي 100 يوم.

أشار فولني أن قيمة هذه القافلة تكمن في ضخامة تعدادها الذي يتراوح بين 3 و 4آلاف

1- لم يشر فولني في ذكره لجنسيات الحجاج إلى حجاج الجزائر عكس الرحالة نيبور والرحالة جوزيف بيتس .

2- هي قرية شمال شرقي القاهرة بنحو5 ساعات، عرفت بهذا الإسم لنزول الحجاج بها عند ذهابهم وعند عودتهم، حسام محمد عبد المعطي ، المرجع السابق ، ص103.

3- رسم نيبور تخطيطا لقافلة الحج ببركة الحج في 20ماي1762م، المصدر السابق، ص 224.

جمل[1] ، محملة بمختلف أنسجة الهند و العطور و اللآلئ و البن اليمني القادم من ميناء جدة إلى السويس ومنها إلى القاهرة ، مقابل واردات متنوعة من مراكش ، الجزائر ، تونس وطرابلس ممثلة في الطرابيش، النعال المغربية البرانس و القرب الجلدية ، يوضحها بشكل أكبر الجدول التالي:

الصادرات إلى مصر	كمية البضائع
الطرابيش	300صندوق
النعال المغربية الصفراء	300ألف زوج
البرانس	4000برنس
الشمع	4000/3000قطعة
القرب الجلدية	6000/5000قربة

المصدر، موسوعة وصف مصر ، ج1، ص 254 .

تشير الدراسات التاريخية أن كل السلع التي يعترف بأنها تابعة لحجاج مكة ، هي معفاة من كل الرسوم عند دخولها مصر ولا تخضع إلى أي تفتيش، إجراء يدل على اهتمام الدولة العثمانية براحة الحجاج واحترامها لهذه الشريعة الدينية المقدسة.

3-قافلة دمشق: وصفها فولني بالصغيرة مقارنة بما سبقوها ، تنقل إلى القاهرة عبر ميناء اللاذقية[1] ومنها إلى دمياط، القطن والحرير المحلي والفواكه المجففة كالزبيب و المشمش و الفستق الحلبي إضافة إلى التبغ الذي أشار إلى شيوع انتشاره في مصر[2]، وبضائع واردة من الهند تأتي عن طريق بغداد والبصرة أو تجلبها إليها قافلة مكة.أما مدن فلسطين كيافا ، غزة ، نابلس، عكا والقدس فتصدر إلى مصر الصابون، زيت الزيتون، القطن والقليل من الشمع، يشحن جزء من هذه السلع إلى يافا وعكا ومنهما إلى دمياط، عبر القوافل البرية بمشاركة بعض قبائل العربان[3] .

غير أن المتتبع لحركة القوافل التجارية لمصر ، يستخلص أن فولني لم يقدمها كلها إذ أهمل ذكر قافلة الحجاز التي تحولت في القرن الثامن عشر إلى أهم مصادر دخل الخزينة المصرية بشهادة القنصل الفرنسي بالإسكندرية **جون باتيست تريكور** المؤرخ في 1783م الذي أورد أن تجارة جدة

1- مدينة سورية ساحلية، من أهم موانئ سوريا على البحر المتوسط، ، هي من المدن القديمة سماها الآشوريون باسم راميتا أما اليونانيون فسموها لاوذكية، واستمر هذا الإسم إلى أن دخلها الإسلام على يد خالد بن الوليد عام4ه/635م فتحول اسمها إلى لاذقية العرب ، عبد الكريم العفيفي، المرجع السابق، ص424.

2- فولني ، المصدر السابق ، ص136.

3- بيير سيمون جيرار ، المصدر السابق ، ص 259.

شكلت نسبة36%من عائدات التجارة الخارجية لمصر لتحتل بذلك المرتبة الثانية بعد التبادلات مع اسطنبول[1] وهو أمر لا يستدعي للإستغراب ، إذا ما علمنا أن الدولة العثمانية اهتمت بتأمين حركة الملاحة البحرية في البحر الأحمر بزيادة عدة سفنها فيه حفاظا على سلامة شعيرة الحج ، وفي عملية نقل مستلزماتها المقدسة، كما لا يمكن إنكار دور الإنجليز في رواج المبادلات التجارية في هذه المنطقة خاصة إذا تكلمنا على تجارة البن التي أصبحت رائدة خلال هذه الفترة، ويأتي هذا الدور الإنجليزي بعد أن سمحت لهم الدولة العثمانية بدايات القرن 18م من الإبحار إلى مدينة جدة[2] التي أصبحت حلقة الوصل الرئيسية بين سلع الهند وأسواق مصر[3] .

لقد ساهمت هذه القافلة بشكل كبير في بروز فئة من التجار المحليين الذين مارسوا نشاطهم على شكل واسع وكونوا في بعض الأحيان شركات تجارية مساهمة متخذين من السوق المصرية الحجازية مركزا لنشاطهم الذي تجاوز في بعض الأحيان إلى أن وصل بلاد المغرب و الشام ، كما قاموا بدور الموردين لبعض التجار الأوربيين[4]

ب/ نشاط التجار الأوربيين: ارتبط بأهمية موقع مصر عامة والقاهرة خاصة ، حيث يشير الرحالة نيبور إلى تعدد جنسيات هؤلاء التجار ومعهم تنوع تمثيلهم القنصلي من فرنسا البندقية وهولندة[5]. في هذا الشأن،قدر Paul Masson عدد الفرنسيين المتواجدين في مدينة القاهرة بـــ44فرنسي من بينهم 17 تاجرا[6] ، كما أشار إلى أن التاجر الهولندي الوحيد الذي كان مقيما بذات المدينة غادرها عشية وصول نيبور إلى القاهرة بقليل ، وهو ما يعكس هيمنة الفرنسيين على تجارة القاهرة، بالمقابل نستنتج مدى تراجع وانكماش دور الشركة البريطانية اثر حادثة 1769م، والتي يؤكد بشأنها فولني ، انه بعد هذا التاريخ لم يبق للإنجليز في مدينة السويس[7] والقاهرة أي أثر لأي

1- حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق ، ص112

2- نفس المرجع ، ص113

3- مدينة سعودية على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وعلى بعد حوالي 100كم غرب مكة المكرمة ، وهي الميناء الرئيسي للحجاز ولعبور الحجاج سنويا إلى مكة ، موسوعة ألف مدينة إسلامية ، ص187

4- للتفصيل أكثر في هذا الموضوع ، انظر نفس المرجع ، ص 113وما بعدها .

5- نيبور ، المصدر السابق ، ص246

6 - Paul Masson, op.cit, p600.

7- مدينة سعودية على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وعلى بعد حوالي 100كم غرب مكة المكرمة ، وهي الميناء الرئيسي للحجاز ولعبور الحجاج سنويا إلى مكة ، موسوعة ألف مدينة إسلامية ، ص187.

عامل من أبنائهم[1].

إن الحديث عن التجارة في مدينة القاهرة ، لن يكون كاملا من دون التطرق إلى إشكالية قناة السويس التي ذكرها فولني في خضم حديثه عن تجارة القاهرة مع الحجاز و الهند.

شغلت مسألة أو إمكانية شق قناة بين البحرين الأحمر و المتوسط بقطع البرزخ الفاصل بيهما تسهيلا لعبور السفن إلى الهند عبر أقصر طريق من طريق رأس الرجاء الصالح، شغلت الكثير في أوربا بل وشغلت الدولة العثمانية نفسها خلال القرن السادس عشر وفي هذا الصدد أشارت المؤرخة ليلى صباغ أن الدولة العثمانية دخلت في صراع كبير مع اسبانيا من أجل السيطرة على طريق البحر الأبيض المتوسط، حتى أنها فكرت بفتح قناة تصل القاهرة بالسويس على البحر الأحمر وتمر عبر صحراء رملية تمتد على مسافة سير 05 أيام أو ستة على ظهور الجمال بهدف فتح الطريق أمام المراكب للإنطلاق إلى الهند و الإستغناء عن طريق رأس الرجاء الصالح وكان التفكير في هذا المشروع سنة 1529م[2] .

عارض فولني فكرة شق القناة، نتيجة اقتناعه باستحالة تنفيذها لأسباب يراها منطقية وفي مقدمتها:

1-اختلاف مستوى البحرين، فحسبه مستوى البحر الأحمر أعلى من مستوى البحر الأبيض المتوسط

2-الطبيعة الرملية لشواطئ البحرين المتقابلين والتي تجعل حفر قناة ثابتة على أرض رملية متحركة أمرا مستحيلا.

3-انخفاض شواطئ البحرين، مما يصعب على السفن الرسو والإبحار .

غير أنه قدم عرضا بديلا وصالحا في رأيه عن قناة السويس، وهو إقامة المواصلات بين البحرين عن طريق نهر النيل، وهي فكرة قديمة ذكرها المؤرخ سترابون، كما أشار إلى استخدامها من قبل العرب المسلمين زمن الخليفة عمر بن الخطاب[3]، حيث أصاب مكة الجفاف ، فأمر عامله

1- فولني ، المصدر السابق، ص146، 147

2- ليلى صباغ ، الجاليات الأوربية في بلاد الشام ، ج1، ص455 .

3- هو عمر بن الخطاب ، بن نفيل القرشي العدوي أبو حفص ، (40ق ه-23ه/584-644م)، ثاني الخلفاء الراشدين وأول من لقب بأمير المؤمنين، هو أول من وضع للعرب التاريخ الهجري واتخذ بيت مال للمسلمين وأمر ببناء البصرة والكوفة وأول من دون الدواوين في الإسلام ، الزركلي ، ج5 ، ص45، 46

عمرو بن العاص أن يشق قناة من نهر النيل إلى قلزوم أو السويس حتى تمر عبرها المؤن إلى جزيرة العرب ، وهي نفسها القناة التي تمر اليوم في القاهرة، غير أنها أصبحت قديمة ، وضيقة وتحتاج إلى الترميم والتنظيف ، ولكن لا يستبعد هذا الأمر من الحكومة التركية التي لا تهتم إلا بجمع الأموال عن طريق الضرائب[1].

4-الأمراض و الأوبئة :سجل فولني في كتابه الرحلة الى مصر و سوريا انطباعا سوداويا عن الوضع الإجتماعي المتردي للسكان و الذي انعكس بشكل سلبي على الواقع الصحي ، بانتشار رهيب لعديد الأمراض و الأوبئة خلفت آلاف الضحايا عبر مختلف المراحل الزمنية حتى يخيل للقارئ أنها استوطنت في هذا الجزء من الفضاء العثماني .

4-1 المجـــاعة : تشير مجموع الأبحاث و الدراسات التاريخية التي تناولت هذا المجال ، أن الواقع الصحي في مصر لم يكن بأحسن حال عما وصفه الرحالة فولني في مراحل ما قبل الوجود العثماني، اذ تشير المعطيات إلى انتشار المجاعات و الأوبئة كالطاعون خلال فترة المماليك وبشكل رهيب.فقد عاصر المؤرخ المقريزي إحداها وهاله ما شاهد من كثرة الوفيات ولجوء السكان إلى حد أكل القطط والكلاب من شدة الجوع[2].

تشيرا لإحصاءات إلى أنه في الفترة الممتدة مابين سنوات1503-1513م لم تغادر المجاعة مصر مما أدى إلى تناقص عدد سكان القاهرة التي شبهها فولني **بالمدينة التي تأكل أبنائها**[3] .

تفاقمت الأوضاع في مصر خلال السنوات الثلاث التي سبقت قدوم فولني، نظرا لتزامن الكوارث الطبيعية كعدم وفاء نهر النيل، وهو ما أرغم السكان على تخزين الغلال ضمانا لقوتهم كما سارع التجار أيضا إلى نفس الفعل ولكن طمعا في المزيد من الأرباح برفع الأسعار عن سقفها الحقيقي[4] مما أدى إلى انتشار الفوضى في القاهرة، كما ساهمت الإضطرابات السياسية نتيجة صرع المماليك فيما بينهم واستبدادهم في إثقال كاهل السكان بالضرائب.كلها عوامل ساعدت على انتشار المجاعة وسط المصريين، حيث ذكر فولني أن سنة 1783م شهدت مجاعة كبيرة، زاد من خطورتها

1- فولني ، المصدر السابق ، ص138، 139، 140

2- قاسم عبده قاسم، النيل و المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ط1 ، دار المعارف، 1978 ص57 .

3- فولني، المصدر السابق ، ص 52

4- المصدر نفسه ، ص158

تزامنها مع الكوليرا القادمة من الأستانة، فخلفت 1500قتيل، ومع مطلع سنة 1784م لم يكن فيضان نهر النيل كافيا ولموسمين متتاليين، فعم الجفاف وانتشرت المجاعة تحصد من سكان القاهرة وحدها نفس عدد قتلى الكوليرا ، حتى أنها —وحسب فولني دائما-فقدت1/6 من سكانها خلال السنتين المعنيتين، على ما فيه من غياب لأي إحصاء رسمي على عادة الأتراك الذين لا يهتمون بسجلات المواليد و الوفيات[1] .

لقد أدت هذه الوضعية إلى تفاقم عدد المتسولين و الجياع في شوارع القاهرة الذين أفقد و ها سحرها وجمالها، فقد غلبت رائحة الموت نسيم هوائها[2]، وفي هذا الصدد ، يروي لنا فولني مشاهدته لرجلين جاثمين على جثة جمل يتنازعان مع الكلاب الضالة لحمه النتن في مدينة شهر مارس 1785[3] .

كان هؤلاء التعساء ، يلفظون آخر أنفاسهم فيما هم مستلقون بظهورهم على منازل البكوات التي يعرفون جيدا أنها تزخر بالأرز و الحنطة وكثيرا ما كان صراخهم يزعج البكوات فيطاردونهم بالعصي و الهراوات أما الذين فضلوا مغادرة البلاد، فقد كثر عددهم باتجاه الشام، إذ ذكر فولني أنه شاهدهم في سوريا عام1785م أفواجا وجماعات حتى ضاقت بهم شوارع صيدا وحيفا[4]وسائر بلدات فلسطين[5].

4-2الطاعون :اجتهد الرحالة فولني في تحديد أصل هذا الوباء ، ونفى نفيا قاطعا أن يكون موطنه مصر ، على اعتبار كثرة انتشاره في هذا الجزء من الفضاء العثماني، إذ يصف مؤرخ الفتح العثماني لمصر ابن إياس في بدائعه، تزايد هذا الوباء وفتكه للجميع من دون تمييز بين الصغار والكبار ، النساء و الرجال، المماليك و العبيد، بل وحتى الغرباء، حيث أشار إلى أن مغاسل السبيل فتحت جراء ارتفاع حصيلة القتلى التي قدرها ب200ألف هالك[6].

1- فولني ، المصدر السابق، ، ص126 .

2- ستانلي لنبول ، سيرة القاهرة، تر ، حسن إبراهيم حسن ، علي إبراهيم حسن ، ط2، مكتبة النهضة المصرية القاهرة 2001 ، ص 3.

3- فولني، المصدر السابق، ص.128.

4- مدينة فلسطينية عريقة ، يعني اسمها بالكنعانية البلدة، تقع على خليج عكا ، اعتبرت ميناء تجاري هام مع شمال إفريقيا وجنوب أوربا ، فتحها المسلمون عام 640م، موسوعة ألف مدينة إسلامية ، ص209

5- فولني ، المصدر السابق ، ص127.

6- حسين عاصي، ابن إياس مؤرخ الفتح العثماني لمصر ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، 1993 ، ص 85، 86

إذا كان ابن إياس ، قد أرجع سبب هذا الوباء إلى انحسار القيم الأخلاقية في مصر المملوكية وأنه جاء نقمة إلهية لكثرة انتشار الخمر وأكل الربا و القمار وجور المماليك وظلمهم للناس أكد فولني أن أصل هذا الوباء من الأستانة ، لما يظهره الأتراك من إهمال كبير في إتلاف ألبسة الموتى الموبوئين ، إذ تسمح الدولة العثمانية بتنقل ألبستهم المباعة غبر السفن إلى الإسكندرية لتعرض في أسواقها مما يتسبب في انتشار الجراثيم ، ويكون اليونانيون هم أولى الضحايا لتعاطيهم هذه التجارة[1] من الإسكندرية إذن ، ينطلق الوباء نحو رشيد ، القاهرة فدمياط ، متأثرا بمسلك البضائع من الساحل نحوالمناطق الداخلية ، فالوباء حسبه مرتبط بوصول البواخر من الموانئ العثمانية لكل من أزمير و الأستانة[2] فرضية أكده عليها الرحالة الإنجليزي جوزيف بيتس الذي توقف بمدينة القاهرة عائدا إليها من الحج عام 1680م: <<**وجدنا الطاعون يحصد الناس حصدا ، قيل انه قضى على 6آلاف خلال أسبوعين ، لقد كان الطاعون منتشرا بالإسكندرية** [3] >> .

لاحظ فولني ، أن هذا الوباء يصيب مصر كل أربع أو خمس سنوات عكس سوريا التي لم يظهر فيها منذ خمس وعشرين سنة ، نتيجة قلة الحركة التجارية بين الموانئ التركية و السورية كما بدا مستغربا من اختلاف توقيت ظهور هذا الوباء بين مصر وتركيا .فتركيا يظهر فيها صيفا ويزول عنها شتاء عكس مصر التي يغادرها صيفا ليحل فيها في فصل الشتاء غير أنه سرعان ما زال استغرابه بإدراكه لسبب هذا الإختلاف المرتبط بتباين نوعية المناخ في المنطقتين، فتركيا رغم حرارتها الصيفية إلا أنها تبقى متشبعة ببخار الماء والرطوبة لقربها من المسطحات المائية وارتفاع معدل تساقط الأمطار بها، بخلاف مصر التي تتميز بجفاف صيفها وحرارته لتوغل موقعها في اليابسة وطول حدودها الصحراوية[4] .

حمل فولني الحكومة التركية مسؤولية انتشار هذا الوباء لعجزها عن توفير الرعاية اللازمة بإنشاء مراكز الحجز الصحي مستدلا بالتجربة ذاتها المنتهجة في تونس ، مسؤولية يتقاسمها السكان بسبب جهلهم لقواعد العزل والوقاية عكس التجار الأوربيين الذين يعزلون أنفسهم في الحي الأوربي، ويقطعون كل صلة لهم بالخارج، فحتى الأغذية تقدم لهم عبر كلاليب حديدية وإذا

1- فولني المصدر السابق ، ص 161.

2- فولني ، المصدر السابق ، ص162.

3- جوزيف بيتس ، المصدر السابق ، ص 75

4- فولني ، المصدر السابق، ص 163

شاءوا مكالمة أحد وقفوا بعيدا عنه دون لمسه أو حتى لمس ثيابه[1] .

3-4 أمراض العيون : هي من الأمراض التي أثارت اندهاش فولني في مدينة القاهرة ، لكثرتها إذ كتب يقول : <<**فكثيرا ما كنت أشاهد في تجوالي بين أزقة القاهرة بين مائة شخص عشرون أعمى وعشرة حول وعشرين من ذوي العيون الحمر أو المتقيحة**>>[2]، مبديا استغرابه من تجلد المصريين وصبرهم تعكسه عباراتهم المتداولة <<**هذا ما كتب الله لنا**>>[3] الذي اعتبره فولني دليل ضعفهم وعجزهم الناجم عن الجهل المستشري في صفوفهم.

استحضر فولني خبرته السابقة في مجال دراسة الطب ليحدد أسباب هذا المرض، وتوصل من خلالها إلى جملة من الملاحظات:

1 - أن أمراض العيون ليست خاصة بمصر وحدها بل هي منتشرة في بلاد الشام على قلتها.

2 - انحسار وقلة هذه الأمراض عن الساحل .

3- ارتفاع نسبة المصابين في مدينة القاهرة، نتيجة قذارتها الرهيبة.

4- كثرة الإصابات عند فلاحي الدلتا .

5- إصابة عوام الناس من دون الأثرياء وندرتها عند المماليك و البدو.

6- قلة الإصابات عند أفراد الجاليات الأوربية .

7- ليس لها فصلا معينا بل تحدث على الدوام.

انطلاقا من هذه الإستنتاجات، توصل فولني الطبيب الرحالة، إلى تحديد مسببات هذا الداء و التي تمثلت في :

1 - امتزاج الرطوبة مع درجة الحرارة المرتفعة في مدينة القاهرة .

2- احتواء الهواء على نسبة معتبرة من الملوحة في منطقة الدلتا ، تؤدي إلى تهيج العيون وهو ما اختبره فولني شخصيا[4] .

3- نوعية طعام المصريين العوام التي تعتمد على الجبن –اللبن الرائب –، الثمار و الخضار الطازجة لا سيما البصل الأخضر.

4- التعرق من المخارج التي هي أقل مقاومة كالعيون .

1- فولني ، المصدر السابق، ص162، 164

2- نفس المصدر ، ص .155

3- نفسه، ص 154.

4- فولني ، نفس المصدر ، ص 155، 156

5 - الإستعداد الوراثي ، وهو ما يفسر إصابة أهل البلد دون الأجانب

6 - انعكاسات مرض الجدري شائع الإنتشار في القاهرة [1].

لعلاج هذا المرض، يعيب فولني على السكان جهلهم، وعدم استعمالهم التلقيح الذي يعرفونه منذ القديم، كما أنهم يتحاشون أمرا في غاية الأهمية وهو غسل عيني المريض حتى لو امتلأت قيحا و التصقت جفونه جراء ذلك إلى غاية أربعين يوم ، تكون على إثرها العين قد تآكلت .

ساهم تدهور المستوى المعيشي للسكان في سوء تغذيتهم ، فبدوا مجرد هياكل ذميمة المنظر فكأنهم بأعينهم الجوفاء وسيماهم الشاحبة المتورمة ، وبطونهم المنتفخة، وأطرافهم الهزيلة ولونهم الصفراوي، يغالبون الموت دائما وأبدا ، كما سمح ببروز عديد الأمراض الأخرى مثل الجدري و التهاب الخصيتين الذي أرجعه فولني إلى الحمامات الحارة المنتشرة في الشرق بصورة كبيرة[2].

ثانيا- حكم الأتراك في سـوريا :

1-طبيعة الحكم العثماني: منذ سيطرة العثمانيين على سوريا و انتصارهم على المماليك بقيادة السلطان سليم الأول، اعتبروا المنطقة - حسب فولني -غنيمة عدو منهزم، أو ملكية خاصة آلت إليهم بحق السلاح و الحرب ، وهو حق تخوله شرائح الشعوب البربرية لنفسها في انتصاراتها ، بأن تفرض قانونها على تلك المنهزمة[3]. إن الحكم العثماني الذي فرض على بلاد الشام منذ 1516م، هو حكم عسكري مطلق ومستبد أخضع بموجبه سكان المنطقة إلى حكم مجموعة عسكرية تتحكم في كل شيء[4].لا يستغرب فولني، هذا الإستبداد ما دام العثمانيون في نظره برابرة، لم يكونوا في بدايات ظهورهم إلا قبائل من اللصوص تتنازعها المصالح ، انقسمت فيما بعد إلى قبائل عسكرية تهجم لتدافع أو تغزو.

إذن من هذا المنطلق، فاستبداد الحكم العثماني ليس وليد القرن الثامن عشر ، بل تعود جذوره إلى تكوين الدولة العثمانية نفسها، أي إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، فهي قبل أن تصبح دولة كانت مجرد قبيلة متنقلة من الرعاة[5]، شكلوا جنودا خاضعين لسلطة شيخ القبيلة

1- فولني، المصدر السابق، ص156.

2- نفسه، ص157.

3 - Volney, op.cit,T 2 , P341.

4 -Ibid. P 340.

5- للتفصيل في أصول الدولة العثمانية عد إلى، يلماز أوزتونا ، المرجع السابق، ج1 ، ص84 وما بعدها .

خضوعا أعمى، جعلهم يشعرون بقوة الانتماء و ضرورة الولاء له، فآخر جندي في القبيلة المنتصرة يرى نفسه أفضل من سيد في القبيلة المنهزمة[1]. في هذا الشأن يشير المؤرخ عبد العزيز الشناوي، إلى أن النزعة العسكرية أو الحربية لدى العثمانيين لم تكن نزعة طارئة، بل متأصلة استمدوها من بيئتهم الأولى في أواسط أسيا، و من هذا فكل صفات الحياة العسكرية القائمة على الصرامة و الإنضباط إلى حد الطاعة العمياء كانت مصاحبة لنشأتهم الأولى[2] فكانت القوة لدى العثمانيين أداة حرب و حكم معا[3] و هو ما جعل الرحالة فولني يربط الإستبداد العثماني بأعلى أجهزة نظام الحكم المتمثلة في :

1-1السلطان[4]: هو أعلى هرم في الدولة العثمانية[5]، و رأس الحكم فيها و مركزه ، وأداة قوته في القانون العثماني[6]، يعتبر الممثل الوحيد لسكان الإمبراطورية و مصالح الإسلام و المسلمين باعتباره حامي الأماكن المقدسة و منظم الحج. يدين له الجميع بالولاء التام، و نلمس هذه المكانة في معاني التقديس و التعظيم الواردة في كتاب الشقائق النعمانية لطاش كبري زادة[7]، أما فولني فيراها من ألقاب التفخيم التي أطلقها السلطان العثماني على نفسه في مراسلاته مع ملوك فرنسا[8] إذ تجسد قمة الإستبداد السياسي فكيف لسلطان بكل هذا الغرور و الكبرياء أن ينظر لرعاياه إلا بنظرة العبيد، أما جنوده فليسوا إلا أدوات يضمن بها طاعة هؤلاء، وهو نفس الرأي نلمسه عن

---

1 - Volney ,op.cit, P 341,342.

2- عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج1، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1980 ، ص 50.

3- الغالي غربي، المرجع السابق، ص69

4- اختلفت التسمية من الغازي في القرنين 13-14م إلى سلطان الروم خلال القرنين 14-15م ثم البادشاه إي إمبراطور الإسلام، أما لقب الخليفة فلم يرد إلا في معاهدة كوجوك كينا رجه مع روسيا 1774م، كما استعمله السلطان عبد الحميد الثاني خلا فترة حكمه (1876-1908م)، الغالي غربي، المرجع السابق، ص28

5- محمد علي عامر، المرجع السابق، ص 88.

6- خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار الغربية في العهد العثماني، إستانبول، 2000 ، ص 532.

7- هو أحمد بن مصطفى بن خليل المعروف بطاش كبرى زادة، من مشاهير الموسوعيين و كتاب السير، ولد في بورصة سنة 901ه، له عديد المؤلفات منها، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، العقد المذكورفي ذكر أفاضل الروم.

8- "سلطان السلاطين، متوج الملوك على الأرض، خادم الحرمين الشريفين مكة و المدينة، حاكم المدينة المقدسة القدس سيد أوروبا و آسيا و إفريقيا، افتتحها بسيف المظفر، سلطان البحرين الأبيض والأسود ..... أنا ظل الله في الأرض، فولني المصدر السابق ، ص 342-343.

المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي، إذ يعتبر أن الحكم العثماني قائم على ثلاث عناصر ، ممثلة في السلطان و هو بمثابة الراعي، السكان وهم قطيع الأغنام ، أما الجيش فما هو إلا كلب الحراسة[1]

وفي هذا الشأن ، يورد المؤرخ خالد زيادة أن القانون العثماني يرى بأن الرعية و الأرض تعودان إلى السلطان و هو ما يوفر له السيادة المطلقة في الدولة [2]. و مادامت أرجاء الإمبراطورية مترامية الأطراف، فلا يمكن للسلطان الإلمام بكل شؤونها، لذا ، كان لزاما عليه تعيين مساعدين له فمنذ السيطرة العثمانية بلاد الشام سنة 1516م ، قام السلطان سليم الأول بتقسيمها إلى خمس ولايات أو باشاليك[3] هي حلب، طرابلس، صيدا المتنقلة إلى عكا دمشق و فلسطين التي تغير مقر الحكم فيها ما بين غزة و القدس [4] على رأس كل ولاية من هذه الولايات باشا وهو ما يلغي فكرة الإستبداد التي دافع عنها فولني .

1-2 البـــاشا[5]: هو ممثل السلطان في الولايات ، وصفه فولني بأنه خليفة الملك، الذي لا يقل استبداده عن استبداد مسئوله المباشر، إذ تحول باستبداده إلى سلطان في ولايته بيده أمور الحل والعقد ما دام يمثل صورة السلطان المستبد[6]، يجمع كل الصلاحيات بيده باعتباره مسئولا على الجانب العسكري و الضريبي كما يتحكم في الشرطة و العدالة، التي يصفها فولني بالإجرامية [7] هو مكلف بضمان الأمن و الإستقرار ومحاربة كل الأخطار الداخلية و الخارجية كالقضاء على التمردات و صد الهجمات الإجرامية بالإضافة إلى جمع الضرائب المتنوعة.

و ما دام الباشا هو نائب السلطان في كل الولايات، فهو صورة مصغرة عنه، يجمع كل

1- الغالي غربي، المرجع السابق، ها، ص 75.

2- خالد زيادة، الخسيس و النفيس، الرقابة و الفساد في المدينة الإسلامية، رياض الريس للكتب و النشر ط 1 بيروت 2008، ص 91.

3- للتفصيل أكثر في التنظيم الإداري العثماني، فاضل بيات ، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ط1 دار المدار الإسلامي، 2002، ص 67.وما بعدها .

4 - Volney, op.cit, p127, 329.

5- عرفه فولني في الهامش على أنه مصطلح فارسي ، يعني نائب الملك ، ص 126 ، وهو نفس التعريف الذي قدمه المؤرخ الدمشقي ابن كنان، وزاد عليه بأنه من أعلى الألقاب العثمانية ، تمنح لحكام الأقاليم المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، تحقيق، حكمت اسماعيل، القسم1، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1993، ص339 .

6 - Volney, op.cit, p344.

7 -Ibid. p346.

الصلاحيات بيده إلا في ولاية حلب[1]، تساعده في مهامه فرقة عسكرية من 500-600 جندي[2] .بكل بساطة له الحق في الحياة أو الموت و بكلمة صغيرة بإمكانه فعل كل شيء[3].

رغم قصر مدة تعيين الباشا في منصبه التي لا تتعدى السنة الواحدة[4] و هو أسلوب من أساليب السلطان للحد من تعاظم نفوذ وصلاحيات هذا الموظف، إلا أن هذا الأخير، استغل قصر هذه الفترة في جمع أكبر قدر من الثروة و لو على حساب السكان من تجار و فلاحين، الذين تحايلوا عليه بتقليص إنتاج أراضيهم مادام الإنتاج الوفير أصبح جريمة يعاقب عليها الباشا بزيادة الضرائب

إن استبداد الباشا وسكوته عن تجاوزات فرقه العسكرية، ساهم في نشر حالة من الفوضى الكبيرة ، بل وفي إضعاف كيان الدولة بكاملها ، فتدهورت الزراعة و التجارة وعهما مختلف الفنون و الحرف[5]، حيث يشير فولني في هذا المجال إلى تضاءل عدد قرى ولاية حلب من 3200قرية إلى 400قريةفقط وهذا لنزوح الفلاحين من أراضيهم نحو المدن هروبا من استبداد الباشاوات[6] الذين لا هم لهم سوى جمع الأموال ، لكنهم يجهلون —حسب فولني-أنها ستكون سبب نهايتهم ، إذ كثيرا منهم من قتل بسبب ثرائه كأسعد باشا العظم الذي قتل على يد مملوكه في الحمام مخلفا ثروة قدرت ب8مليون ونفس المآل كان لكتخدا ظاهر العمر إبراهيم الصباغ فيما بعد[7].

كما تمت الإشارة إليه سابقا ، سعت الدولة العثمانية إلى تقييد سلطة الباشاوات إما بتحديد فترات حكمهم أو بتأكيد مراقبتها لهم من خلال إرسال فرق القابيجي[8] الذين شكلوا علامات

1- اعتبر فولني باشا حلب غير جامع لكل الصلاحيات، إذ هو محروم من امتياز جمع الضرائب لتكليف الدولة العثمانية لموظف آخر هو المحصل .

2 - Volney, op.cit, p131.

3 - Ibid. p346, 353.

4- تتراوح مدته ما بين3الى6أشهر، كما يمكن أن تصل الى السنة الواحدة.

5 -Volney, Op-cit, P 348.

6 -Ibid. P 135.

7 -Ibid. P 351.

8- مصطلح تركي من جزأين : قابي و يعني الباب ، و جي يعني صاحب، أي صاحب الباب أو حارس البوابة الرئيسية للقصر السلطاني، مفوض بنقل الفرمانات السلطانية إلى الولاة و الباشاوات، جب و بوون ج1، ص 121، ج2، المرجع السابق، ص 224.

تخوف وترقب لدى الباشاوات ، كما عاقبتهم في كثير من الأحيان بفرمانات العزل لكن من دون إرغامهم على إرجاع الأموال المسلوبة ، وهو ما جعل فولني يحكم بإجرام العدالة العثمانية [1].

رغم حرص فولني في نقل كل صغيرة وكبيرة عن استبداد الحكم العثماني في بلاد الشام وخاصة ممثل السلطان في الإيالات الشامية ، إلا أنه تعمد إهمال وصف موكب الباشا الذي كان يعتبر من أبرز وأهم الأحداث التي تشهدها دمشق عند استقبال باشا جديد أو رحيل آخر قديم ونلمس هذا من خلال وصف ابن طولون الدمشقي وابن كنان لهذا الموكب الذي لم يكن مجرد احتفال فحسب بل تعداه إلى كونه وقفة احترام للسلطان في شخص ممثله الباشا من السكان وموظفي الدولة العثمانية على اختلاف مهامهم ناهيك ، عما كان يقدمه هذا الحفل من توزيع للعطايا والهدايا للسكان من قبل الباشا الجديد ، إذ يقول في هذا الشأن ابن طولون :<< **يوم دخوله، تخرج إلى ملاقاته قرب حمص من أركان السرايا والجواجبية ومع كبارهم الهدايا من محاسن المأكول والشرابات السكرية مما تليق بخدمةالباشا**>>[2]

1-3 الـــوالي [3]: هو بمثابة نائب الباشا[4]، و لا يقل عنه من حيث السلطة و النفوذ، مكلف بتوفير الأمن وبإلقاء القبض غلى اللصوص المجرمين، يحاكم و يقاضي من دون معارضة.

و المجرم إذا القي عليه القبض يدلي برأسه إلى الجلاد الذي يفصلها عن جسده ليرميها في كيس جلدي ، كما يتكفل بمراقبة الأسعار و الموازين إلى جابي المحتسب[5]، حيث يتعرض أي مخالف للجلد (500) مرة و أحيانا إلى الموت[6]، و لتعدد هذه المهام، تساعده في شؤونه مجموعة من

---

1 - Volney, op.cit, p346.

2- شمس الدين محمد بن علي بن أحمد ابن طولون الصالحي، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، ط1 1998، ص327.، ابن كنان، المصدر السابق، ص 339

3- أصله عربي من الولاة أو الولاء، و في الإدارة بعين الحاكم الإداري، للمزيد انظر، محمود علي عامر المرجع السابق ص 101

4 - Volney, op.cit, P 351.

5- هو مفتش يساعد قاضي المدينة لمراقبة سلوك المسلمين و تعاملاتهم خاصة في منطقة السوق، كأن يراقب الأوزان و المقاييس و الأسعار و نوعية البضائع ، خليل اينالجيك، التاريخ الاجتماعي والإقتصادي للدولة العثمانية، المجلد 1، ص 607.

6 - Volney ,op.cit, P 353,354.

الجواسيس تجعله يعلم بكل شيء و هو جالس في مكانه فلا غرابة أن تحولت مدن مثل القاهرة حلب أو دمشق إلى مدن أكثر أمنا من جنوة نابولي أو روما و لكن بأي ثمن يتساءل فولني[1] .

يقارن فولني دور الوالي في بلاد الشام بمثيله في أوروبا ، إذ لا مجال للمقارنة بينهما الوالي لا يقوم بدور الشرطة التي يعرفها فولني في دياره، فالمدن سواء في سوريا أو مصر، غير نظيفة شوارعها غير مرشوشة تغمرها أكوام القمامات، تجوبها الكلاب المشردة، و المنتشرة أمام البيوت في كل يوم، مندهش من أن الأتراك لا يقتلونها بقدر قتلهم للناس. إن التجول في مدن مصر وسوريا مخاطرة كبرى حسب فولني، فلا يجب البحث فيها عن التنزه ولا عن الأشجار فالحياة فيها ليست آمنة ولا مثيرة، وهذا مظهر آخر من مظاهر الاستبداد المطلق للسلطان[2].

غير أن المتصفح لكتابات المؤرخين سواء كانوا المعاصرين لهذه الفترة كابن كنان الدمشقي أو المحدثين كأندري ريمون ، يستخلص عكس ماذهب اليه فولني من تحيز ونفور واضحين، فشوارع المدن العربية كسوريا ، مصر أو الجزائر كانت نظيفة، سواء بإشراف الدولة العثمانية المباشر أو بشكل فردي من قبل السكان الذين كانوا يقومون برش الشوارع وعند أبواب المنازل.

تمتع الولاة بامتيازات إقطاعية تمثلت في السالیانات[3] التي تدر 100 ألف أقجة[4] لسد نفقاتهم غير أنها لم تكن لتكفي وهو ما جعلهم يفرضون المغارم في كل مناسبة[5].

و للحيلولة من سوء استغلال هذا المنصب، وضعت الدولة العثمانية عددا من الموظفين في كل ايالة، فلم تكن للوالي سلطة تنفيذ الأحكام الشرعية و كانت الأمور الاقتصادية بيد المتسلم[6] أو المحصل[7]، أما عسكريا فضلا حياته كادت حياته تكون معدومة لاستقلال المؤسسة العسكرية عنه

---

1 - volney, op.cit, P 355,356.

2 - Ibid. , p356.

3- لفظ فارسي يعني في العربية سنوي، و استخدمت في الدولة العثمانية للدلالة على الإيالات التي لم يطبق فيها نظام الزعامة والتيمار كمصر، حلب، بغداد و اليمن و الجزائر، للتفصيل أكثر انظر فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، ص 108، 109، 110.

4- هي عملة فضية، عثمانية ضربت لأول مرة في عهد أورخان ، خليل انالجيك، المرجع السابق، ص 608.

5- الغالي غربي، المرجع السابق، ص 84، 85.

6- شخص معفى من الضرائب المختلفة مقابل تأدية بعض الخدمات العسكرية، خليل اينالجيك، المرجع السابق 608.

7- لقب أطلق على ملتزمي الأراضي الميرية من الوزراء، الولاة والأعيان، وذلك إلى عهد التنظيمات عام 1839م ، سهيل صابان ، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية ، مطبوعات الملك فهد الوطنية ، 2000 ، ص203 .

و خضوعها لأمر أغا الانكشارية، كما عملت و منذ عهد السلطان مراد الرابع[1] على تحديد فترة ولايتهم بالنسبة الواحدة بعدما كانت غير محددة بل تنتهي بالإعفاء لكبر السن أو الموت، و المتبع لتاريخ الولايات العربية في العهد العثماني يلاحظ و منذ أواخر القرن 16م انتشار ظاهرة تغيير الولاة لانتشار ظاهرة شراء المناصب الحكومية والرشوة فانتشرت الفوضى وعم اللاستقرار لعدم كفاءة هؤلاء الولاة[2].

1-4 الآغـــا[3]: هو رئيس حامية الانكشارية في مركز كل ولاية يتم تعيينه من قبل أغا الانكشارية بالأستانة[4] تتمركز هذه الحامية في القلعة، مهمتها مساعدة الوالي في توطيد نفوذ الحكم العثماني في أرجاء الإيالات المختلفة و على تنفيذ أوامر السلطان[5]، كما يعهد إليها بحراسة أسوار و أبواب المدينة وفي بعض الأحيان الإشتراك في حملات الوالي المحلية أو الحملات السلطانية كما تبينه الأحكام السلطانية الواردة في الدفاتر المهمة للقرن 16م[6].

و لطبيعة حكم الدولة العسكري، لعبت شخصية الأغا دورا مهما في الولايات العربية لاسيما أن هذه الأخيرة مثلت خزان اسطنبول من الثروات و الأموال، لذا تمكن الأغا من فرض سيطرته سياسيا بعضويته في الديوان و عسكريا بقيادته لأكثر من 600 جندي ومثلهم من المشاة[7] تمكن بأن تدخل في إدارة الولاية، بتمرده المتكرر على قرارات الباشا حينا أو بإرغامه على تنفيذ مطالبه أحيانا أخرى، كما لعب دورا اقتصاديا مهما[8]، و نتيجة لتعاظم خطورته، تغاضت الدولة

1- فترة حكمه هي: 1623-1640م، خليل ايناجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ط1، المدار الإسلامي، 2002، ، ص 314.

2- الغالي غربي، المرجع السابق، ص 86 .

3- الرئيس، السيد أو رئيس قسم الخدمات، خليل ا ناجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار ص 333.

4- الغالي غربي، المرجع السابق، ص 88.

5- محمود علي عامر، المرجع السابق، ص105 .

6- الحكم 1908/7 المؤرخ ب 20صفر 976ه/14 أوت 1568 و هو حكم إلى قائد انكشاري الشام بان يشارك في الحملة على اليمن بالشكل الذي يراه قائد الحملة مناسبا، ، و الحكم2487/7 بتاريخ 23 جمادي الأول 976ه/13 تشرين الثاني 1068 والمتضمن إعلان حاجة أمير سنجق نابلس إلى عدد من انكشاري الشام لاستخدامهم في إلقاء القبض على أهل الفساد، فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج2، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام ، الجامعة الأردنية ، عمان ، 2006 ، ص 40 ، ص57.

7 - Volney ,Opcit,p

8- الغالي غربي، المرجع السابق، ص 88.

العثمانية عن تجاوزاته و معه قواته المغاربة و الإنكشارية الإنكشارية اليرلية[1]، مما أدى إلى زرع الفوضى و عدم الاستقرار طيلة القرن الثامن عشر[2] .

1-5 القاضي[3] : انقسمت الدولة العثمانية منذ تأسيسها إلى أهل السيف وأهل القلم بتعبير المؤرخين جب و بوون [4] إذ لم يكن بإمكان الطبقة العسكرية الحاكمة تسيير شؤون الإمبراطورية و ولاياتها من دون الإستعانة بأهل القلم من قضاة و مفتين[5].

كل قضاة الدولة العثماني مسئولون من قاضي العسكر المقيم بالقسطنطينية[6]، ومنه يقول فولني تظهر الخاصية العسكرية الإستبدادية للعدالة في الدولة العثمانية[7] ، حيث يقوم كبير القضاة بتعيين ممثلين عنه في عواصم الولايات كحلب ، دمشق و القدس ليقوموا هم بدورهم بتعيين قضاة آخرين في مختلف المناطق. انطلاقا من هذا ، يكون القاضي هو المسئول الوحيد في الولاية العثمانية المستقل عن سلطة الباشا و يعلل فولني هذه الاستقلالية لاقتناع السلطان بكثرة مهام الباشا وبضرورة الإستفادة من وجود موظفين آخرين أكثر دراية بالعدل والقضاء منه ، وهو مؤشر آخر على بطلان افتراء فولني حول استبداد الحكم العثماني وتأكيد منه على ديمقراطيته و دليل على مبدأ فصل السلطات الذي دعا إليه مونتسكيو خلال هذا القرن، غير أن فولني يعمى عن رؤية هذه الميزة التي تعد أسبقية للحكم العثماني الإسلامي عن نظيره الأوربي. رغم هذه الإستقلالية في المهام

1- هي الانكشارية المحلية دخلت في صراع مع قوات القابيقول في دمشق خلال القرن 18م و تمكن أسعد باشا من القضاء عليها، روبير مونتران، المرجع السابق ، ص538.

2- الغالي غربي، المرجع السابق، ص 88.

3- من يفصل بين الناس في الخصومات استنادا للأحكام الشرعية، عبود الصباغ، المصدر السابق، ص 49.

4- المجتمع الاسلامي و الغرب، ج1، ص 217.

5- من يتولى عملية الإفتاء باستنباط الأحكام الشرعية وإصدار الفتاوى ، كان في كل مدينة مفتي حنفي ومفتون من المذاهب الأخرى، عين بداية من الأروام ثم أصبح من كبار سكان البلاد في القرن 18م، لقبه السلطان العثماني بعلامة العلماء ومفتاح كنوز الحقائق الدينية، مراد جه دوسون، نظام الحكم و الإدارةفي الدولة العثمانية أواخر القرن18موبداية القرن19م تر، فيصل شيخ الأرض، بيروت، 1949، ص74.

6- كان يقوم بمرافقة السلطان في غزواته وحروبه ، وان لم يخرج هو ، بقي مع السلطان وبعث عنه نائبا هو قاضي الجيش لحل المسائل الفقهية والعسكرية التي تحدث للجيش، كان منذ عند السلطان محمد الفاتح المنصب الأوحد في إصدار الفتاوى لكنه تغير الأمر منذ1481م بانفصال قضاء عسكر إلى قضاء عسكر الروم اللي وقضاء عسكر الأناضول ، سهيل صابان المرجع السابق ، ص 174.

7 - Volney, op.cit, , P 357.

والصلاحيات لم يستغرب فولني اختلاف القاضي عن غيره من رموز نظام الحكم العثماني المستبد ما دام هو في حد ذاته نتاج هذه المنظومة السياسية المستبدة نفسها ا لتي أنجبت السلطان، الباشا أو الوالي[1].

يشير المؤرخ روبير مونتران، إلى أن تعيينات القضاة كانت تتم لمدى الحياة، لكن وجود قضاة في مدينة واحدة لمدة غير محددة الأجل كان ينطوي على أخطار بارزة، لذا اعتبارا من القرن 17م تمّ تحديد مناصب القضاء في عواصم الولايات سنويا، حيث يبدأ التعيين عادة بداية شهر محرم أي مطلع السنة الهجرية [2] .

يتساءل فولني عن كيفية حصول القاضي على منصبه الذي أرجعه إلى الرشوة التي أصبحت ظاهرة عادية و مألوفة ، فكل الوظائف بما فيها الوظائف الإدارية السابقة الذكر تشترى بالمال[3] وبعبارات التهكم يقدم فولني و صفا دقيقا للمحكمة التي يجري فيها القضاة محاكماتهم، فهي لا ترقى إلى قدسية العمل الذي يمثله القاضي إنها مكان خال حيث يجلس القاضي على حصيرة بالية مصدرا قرارات و أحكاما نهائية غير قابلة للطعن لأنها -نابعة و صادرة من القرآن- ، لذا فهو يرى العدالة غائبة بل إجرامية إذ ليس هناك من بلد تنتشر فيه رشوة العدالة مثل مصر وسوريا وباقي مناطق الإمبراطورية خاصة إذا ماكان القاضي لا يخشى من العقاب والمتابعة[4]، غير أن الوقائع التاريخية تكذب ادعاءات فولني فكثيرا ما عزل الباشاوات والولاة وصودرت أحكامهم وتم التشنيع بهم وتجريسهم، كما يعاب على فولني هذا التعميم في الحكم فالرشوة تواجدت حتى في أوربا خلال هذه الفترة ولكنه يأبى أن يجعلها ميزة عامة ويخصصها للعثمانيين المسلمين .يستغرب فولني ، اعتماد المسلمين في أحكامهم القضائية على ما ورد في القرآن الذي يعتبره فارغا وغير صالح لأن يكون مصدر تشريع و قضاء ، فهو لا يشير إلى دور الإنسان في المجتمع ولا إلى تركيبة الجهاز السياسي و أسس و قواعد و فنون الحكم. كل ما يضمه هو أربع أو خمس و صفات حول تعدد الزواج، الطلاق و الرق، وهي كلها متناقضة فيما بينها، أما الباقي فكله جملا فارغة المعنى[5].

---

1 - Volney ,Opcit ,, P 356

2- روبير مونتران، المرجع السابق، ص 534 .

3 - Volney, op.cit , P357, 359.

4 - Ibid, P 358-359.

5 - Volney ,Opcit, P 360-361.

هذا الكتاب، يواصل فولني-يقود أتباعه إلى الطاعة العمياء لمحمد (عليه الصلاة والسلام) والنتيجة النهائية هي تطبيق الإستبداد المطلق المتمثل في شخص الحاكم. فمحمد- عليه الصلاة و السلام — لا يريد أن يهدي بل يريد أن يحكم ، فمن كل الأشخاص الذين تجرؤوا و قدموا قوانين للشعوب لا أحد منهم كان جاهلا أكثر من محمد عليه الصلاة و السلام و ليس هناك من مأساة أكثر من كتابه — القرآن الكريم- بدليل ما يحدث في آسيا منذ مئات السنين من فوضى و اضطرابات ناجمة عن جهل شعوبها و هي من الآثار المباشرة لتعاليم القرآن[1]، ويواصل فولني استهزاءه و تهكمه من عدالة المسلمين النابعة من القران الكريم الذي وصفه بمستودع كل المعارف، مصدر كل تشريع[2]. فيتساءل أين هي عدالة القرآن في التعامل مع المسيحيين المقيمين ببلاد الشام ، فكل شيء ممنوع عليهم ممنوع إظهار شعائرهم الدينية عكس المسلمين اللذين يسارعون نحو المساجد في وقت كل صلاة[3] كما هو ممنوع عليهم بناء كنائس جديدة أما القديمة فإصلاحها يتم مقابل أموال ضخمة[4]، إن المسيحي لا يمكنه ضرب المسلم ، و إن فعل فمصيره سيئ في حين إذا قتل مسلم مسيحيي يدفع مالا . المسيحي لا يمكنه ركوب الخيل في المدن و ممنوع عليهم انتعال اللون الأصفر و التو شح بالشالات البيضاء أو الخضراء مفروض عليهم لونين فقط ، الأحمر للنعال والأزرق للملابس يقرهما الباب العالي بإصدار قرارات سلطانية[5]. يستغرب فولني من عدالة لا تتساوى فيها شهادة المسيحي أمام المسلم[6] و هو ما يجعل انتصار مسيحي في حال وقوفه أمام أي مسلم عند القاضي أمرا مستحيلا ، ناهيك عن الضريبة التي يضطر المسيحيون إلى دفعها و التي سماها فولني بالخراج أو الجزية [7].

غير أن ما ورد في الأحكام السلطانية، يثبت عكس ما ذهب إليه فولني، حيث توضح كيف أنه صدر حكما إلى قاضي المدينة المنورة و أمير بورصة و قاضي الشام بالنظر في شكوى لأحد ذميي

1 - Ibid, P 361 ,362.

2 - Ibid ,p363,364,365.

3 - Ibid ,p360.

4 - Ibid ,p367.

5 - Volney Op.cit. ,p365.

6- يشير فولني إلى أن القاضي لا يقبل شهادة المسيحي وحده بل مسيحيان مقابل شهادة مسلم واحد، ص 366.

7 - Volney ,Op-cit, P 366,367.

بيروت من الوزير مصطفى باشا الذي غرمه مبلغا كبيرا من المال بحجة بيع الحبوب لطائفة الإفرنج و جاء الأمر بالنظر في الشكوى و استرداد ما يثبت عليه منه [1].

2- تهديدات البـــدو: يعتبر تاريخ البدو[2] هو تاريخ العرب الحضر نفسه بل هم أصل العنصر العربي، انطلقوا من شبه الجزيرة العربية نحو بلاد الشام و مصر على شكل موجات تتابع ورودها منذ آلاف السنين قبل الميلاد [3]، وهذا لأسباب عدة ، طبيعية ومناخية أدت إلى انتشار مواسم القحط و قلة الغذاء ، أو لتناحر القبائل فيما بينها حول المراعي والخيل [4].

إن البدو الحقيقيين بتعبير أوبنها يم الرحالة الألماني[5] هم قبائل رحل أقحاح و مربو جمال ينتقلون من موقع لآخر بحثا عن المراعي والماء ، فهم ساكني الصحراء الرملية والصخرية السهبية[6].

اعتبرهم فولني نموذجا غريبا عن المجتمع الأوربي[7]، لذا أمعن في تمثيل و وصف حياتهم وترحالهم فمن الصعب على الأوروبيين عامة و الفرنسيين خاصة أن يروا شعوبا متشردة و يتصوروا نمط معيشتهم، بل من الصعب عليهم تصور الصحراء ، فكيف إذا كانت هذه المناطق الجدباء آهلة بالسكان[8]؟ أرجع فولني تنقل البدو إلى سببين رئيسيين، تمثل أولها في العامل الطبيعي حيث

1- الحكم 2038/7 بتاريخ 15 ربيع الأول 976ه-/أيلول 1568م، فاضل بيات ، ج 2 ، ص46.

2- البادية هي اسم للأرض التي لا حضر فيها و إذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحاري قيل قد بدوا، و الإسم، البدو ، ابن منظور، المجلد1، ص179، فولني ، المصدر السابق ، ص233.

3- أحمد وصفي زكريا، عشائر الشام ، ج 1 ، دار الفكر، بيروت، 1945، ص 66.

4- المرجع نفسه ، ص 67.

5- ماكس فرايهيرفون أوبنها يم (1860-1946م) رجل قانون دبلوماسي و سياسي مستشرق و عالم آثار و رحل مخابرات، درس القانون بستراسبورغ ثم ببرلين. قام بالعديد من الرحلات إلى الشرق تركيا سوريا، الهند، التقى بالسلطان عبد الحميد الثاني عام 1895 في اسطنبول، عمل مستشارا للقنصل الألماني بالقاهرة ما بين سنة 1896 و في 1902 و في عام 1905 زار الجزائر لحضور مؤتمر الإستشراق. من أهم مؤلفاته رحلة عبر البادية السورية و بلاد ما بين النهرين الى الموصل و بغداد 1893، ماكس فرايهيرفون ابنهايم، أرش برونيلش، فرنر كاسكل، البدو ما بين النهرين العراق الشمالي و سوريا ، تر، محمود كبيبو، ج1، ط2، شركة دار الوراق للنشر، لندن، 2007 ، ص 36.37.

6- المصدر نفسه، ص 75، ا دوار البستاني المصدر السابق ، ص237.

7 - Volney, op.cit, T1 ,P 348.

8- يسود البادية إقليم صحراوي قاسي، ففيه موسمان، صيف حار جاف و شتاء بارد جاف، عشائر الشام، ج1 المصدر السابق، ص 31، 32. 7-أدوار البستاني، المصدر السابق ، ص 234.

ساهمت طبيعة الأرض القاحلة وقسوة المناخ في تنقل بدو شبه الجزيرة العربية[1] أما السبب الثاني فيكمن في العامل السياسي ، وهو السبب في تنقل بدو سوريا، إذ يعتبر فولني أن أرض بلاد الشام صالحة للزراعة وخصبة في عديد الأماكن لذا يحمل الحكومة التركية -باعتبارها علة العلل- [5]مسؤولية هذا الترحال.

إن سكان سوريا لم يختاروا التشتت بل كان إرغاما و إكراها و هروبا من استبداد الحكام وظلمهم لأن من طبيعة الإنسان ميله للإستقرار و استغلال الأرض خاصة إذا كانت خصبة و هو حالها بسورية. إن الحكومة ألحت بالجور على سكان القرى فهجروها إلى الجبال أو تشردوا في السهول، فمن الأضمن لسكان يعيشوا في ظل الحكومة التركية أن يعيشوا رحلا لا زراعا مقيمين[2].

يشير فولني إلى اختلاف عدد قبائل البدو[3] باختلاف طبيعة السطح، فيقل عددها في الأراضي المقفرة كصحراء السويس والبحر الأحمر و جزء كبير من صحراء نجد بالحجاز بينما يكثر عددها بين باديةالشام[4]حلب، حوران[5]وغزة حيث وفرة النباتات والنشاط الزراعي[6] إذ قدر الرحالة أوليا جلبي عدد أمراء البدو وشيوخهم من الشام و حتى الحجاز ب 70 أمير[7].

إن قسوة المناخ و شح الطبيعة لم يتسببا فقط في تنقل البدو[8]، بل كان لهما أثرهما السلبي على أجسام البدو، بل كان لهما أثرهما السلبي على أجسام البدو التي بدت نحيفة و هزيلة و شديدة

---

1 - Volney, op.cit, T1, P 349.

2 - IBID,p 349-350

3- تتكون القبيلة من وحدات و هي البيت و الأسرة و هو أصل القبيلة ، الفخذ هو عدة بيوت من جد قريب لا يتجاوز الجد الخامس، العشيرة وهي عدة أفخاذ تعيش مجتمعة أما القبيلة فهي تتألف من عدة عشائر بينما الإمارة تتكون من عدة قبائل ، أوبنهايم ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 9.

4- هضبة مرتفعة عن سطح البحر من 500-1000م من شرقي دمشق حتى الحدود العراقية ، أحمد وصفي زكريا المصدر السابق، ص 43.

5- تقع بسوريا جنوبي دمشق، تضم أعالي جبل الدروز قرب هضبة الجولان وهي حلقة وصل بين سوريا الأردن ومنها إلى العراق فالسعودية، معجم الإسلام التاريخي، المرجع السابق، ص274، 275.

6 -Volney, op.cit, p351.

7- فاضل البيات ، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص 139.

8- ادوار البستاني، المصدر السابق ، ص 236.

السواد مع قصر القامة[1] عكس شيوخ القبائل. و يربط فولني هذا الإختلاف بمدى وفرة الغذاء أو قلته [2]إذ لا يتعدى في بعض الأحيان سبع تمرات مغموسة بالسمن وبعض اللبن أو الرائب حيث يشير فولني إلى أن البدوي يكون سعيدا لو أضاف إلى غذائه بعض الدقيق أو كتلة من الأرز ، أما اللحم فهو لا يراه إلا في الأعياد و الأفراح أو المآتم، ما يتعجب فولني من صحة البدو و قلة تعرضهم للمرض عكس سكان الحضر رغم نحافة البنية و هزال الجسم[3].

2-1طبائع البـــدو: أشار فولين بكثير من الإستغراب و التعجب إلى عادات و تقاليد البدو في المسكن و الحرب و الثأر و الكرم بل و حتى في الصناعة و العلوم.

أ/ مخيمات البدو: يسكن البدو في خيم منسوجة من وبر الماعز أو الإبل بألوانها السوداء أو الصفراء عكس قبائل التركمان[4]، موزعة في شبه حلقة غير منتظمة و على أبعاد متفاوتة تظهر من بعيد كبقع سوداء لقلة ارتفاع أوتادها مما يجعل شكلها مفلطحا [5].

تنقسم كل خيمة إلى شطرين بحجاب فاصل ، يخصص أحدهما للنساء. يشير فولني إلى أن مخيمات البدو غير محصنة بالمتاريس بل الكلاب هي الكفيلة بهذه المهمة ، وهو ما يشجع في نظره على انتشار حوادث السرقة و التعدي و الخطف[6] .

ب/طبيعة الحكم عند البدو: يخضع أفراد القبيلة إلى حكم كبيرهم الملقب بالشيخ أو السيد الذي تزداد هبته بازدياد عدد أقربائه و أولاده و أحفاده كما يقاس فقر البدوي بفقر شيخه[7]. العصبية القبلية هي العنصر الأساسي في اجتماع و تكاتف القبيلة وفي تسيير شؤون الحكم فيها والذي

1- أشار فولني أنه في أيام عمر الظاهر وصل بعض فرسان البدو إلى عكا فأثاروا من الفضول بين السكان ما قد أثار عندهم متوحشو أمريكا حيث كان السكان ينظرون بدهشة إلى أولئك الرجال و هم أنحف بنية و أنحل جسما و أشد سوادا من أي بدوي عرفوه، أدوار البستاني، نفس المصدر ، ص239.

2- يشير فولني إلى وفرة الغذاء عند المشايخ و قلته عند عامة البدو بأن أحدث المقارنة ذاتها بين الجمال العربية القوية و التركمانية الهزيلة، نفس المصدر، ص 240، volney، ص 359.

3- نفس المصدر ، ص 241 ، volney ، ص 360 .

4- خيم القبائل التركمانية ، لونها أبيض، نفس المصدر ، ص359 .

5- نفسه، ص 243، volney، المصدر نفسه، 364.

6- نفس المصدر ، ص 245 ، نفسه ، ص 364.

7- ادوارا لبستاني، المصدر السابق ، ص 248 ، volney المصدر السابق 369- 370.

يعتبره فولني حكما جمهوريا، أرستقراطيا و استبداديا في الوقت ذاته[1].هو جمهوري لأن أفراد القبيلة هم أصحاب الكلمة الأولى في جميع القضايا، فلا يقضي شيخ القبيلة في أمر إلا برضى الغالبية و موافقتها ، وهو أرستقراطي لأن أسرة الشيخ أو السيد تنعم بامتيازات تستند إلى القوة و هو استبدادي لأن للشيخ سلطة لا متناهية بل وتكاد تكون مطلقة[2].

وقد أشار الرحالة أوبنها يم إلى أن قيادة البدو يغلب عليها طابع الحرية ، العصبية و الوحشية لكثرة التجوال و التنقل فلم تكن لهم مدينة اجتماعية و لا حكومة سياسية و إنما كان المجتمع مجتمع القبيلة والخيمة لا مجتمع الشعب و الأمة، فالحكومة كانت لرؤساء العشائر، يملكون بالإرث ويحكمون بالعرف[3].

ج/عادات البـــدو: من أهم العادات التي شدت انتباه الرحالة فولني واستوقفته، هي شريعة الثأر التي تفرض افتداء دم لا تسقط أحقيته بالتقادم. فمن أهمل الأخذ بالثأر لحق به العار، إذ تنتقل هذه الأحقاد كالإرث من الأب إلى الأبناء و لا تخمد نارها إلا بهلاك أحد المتخاصمين أو بالإتفاق على فدية من المال أو الماشية ، و ما عدا هذا فلا صلح و لا مهادنة و لا مصاهرة بين المتنازعين ، و قد تتعدى شريعة الأخذ بالثأر إلى ما دون القبيلة الواحدة حيث تصبح القبائل في حالة حرب معتادة [4] وهو ما جعل فولني يصف المجتمع البدوي بالمحارب رغم كونه لا يتقن فنون الحرب لبساطة أسلحته التي لا تتعدى الفرس، الرمح الطويل، السيف المعقوف و بعض البنادق[5].

أما العادة الثانية التي أثارت إعجاب هذا الرحالة الفرنسي هي، الكرم و تباهي البدوي بإكرام ضيفه رغم قلة أمواله و ممتلكاته التي عددها فولني ببعض الجمال ، النوق، الماعز، الدجاج، الفرس مع سرجها والخيمة مع بعض الأواني المنزلية كالمطحنة، والقدر ومحمصة البن[6].

رغم هذه الممتلكات البسيطة، يضع البدوي الجائع فضيلة الكرم على رأس الفضائل وهو ما أكده فولني بمعايشته لإحدى قبائل البدو في غزة أواخر سنة 1784م، صورة قال عنها أنه

1- أوبنهايم ، المصدر السابق ، ص 09 .

2- ادوار البستاني ، المصدر السابق ، ص 245 ، فولني، المصدر السابق، ص 367.

3- أوبنهايم ، المصدر السابق ، ص 133 .

4- ادوار البستاني ، المصدر السابق، ص 242.243 .

5- للمزيد عن عادات البدو يرجى العودة إلى كتاب البدو ج1 ، ص 09 وما بعدها

6- ادوار البستاني ، المصدر السابق ، ص 248.

يصعب على المرء تخيلها ما لم يشاهدها بعينه[1]، فالبدوي الجشع خارج مخيمه هو سخي في قبيلته ومهما يكن ما يملكه زهيدا فهو يقاسم غيره عليه، فالبدوي صادق في كرمه الذي لا يحسبه فضيلة يحمد عليها بل واجبا مفروضا عليه[2].

د- العلوم و الفنون عند البدو :بحكم ضيق معيشة البدو، و تنقلاتهم نفى فولني وجود أي جانب إبداعي أو فني لديهم ، فالفنون تكاد تكون غائبة عدا البسيطة منها و التي لا تتعدى نسج الحصائر و الخيام مع استخراج السمن أما تجارتهم فهي تقتصر على مقايضة الجمال ، الماعز ، الأحصنة والألبان بالألبسة ، الأسلحة ، الأرز و القمح. أما العلوم هي معدومة ، فالبدو يجهلون علوم الفلك الجبر و الطب حيث لا كتب عندهم مطلقا غير أنهم بارعين في رواية القصص و الأخبار كألف ليلة و ليلة التي تزين أوقات فراغهم في سهراتهم الليلية الطويلة [3].

هـ- المعتقدات عند البدو : إن نمط الحياة التي يعيشها البدو ، فرضت عليهم الحرية في كل شيء بدءا بالحرية السياسية في عدم خضوعهم لأية قوة أوتمردهم المستمر عليها كما هو شأن علاقاتهم بالدولة العثمانية، و انتهاء بالحرية الدينية عكس سكان الحضر الذين يعانون من الإستبداد السياسي و الديني للأتراك و تعاليم الإسلام[4].

رغم احتفاظ البدو المتاخمين لنفوذ الدولة العثمانية [5] ببعض المظاهر الدينية ، إلا أنهم يصرحون علانية ، أن الدين ليس لأمثالهم فكيف يمكنهم الوضوء و لا ماء عندهم؟ و كيف يؤدون الزكاة ولا مال لهم؟ و لم صوم رمضان و هم يقضون السنة صياما، و ما فائدة الحج إلى مكة و الله موجود في كل مكان[6]؟

انطلاقا من هذه التساؤلات، يتصرف البدو بحرية تلقائية وبتسامح كبير[7] بعيدا عن التعصب الذي شاهده لدى سكان دمشق، فقلما أبرزوا مراسم الدين الخارجية، فلا كهان ولا معابد و لا

1- إدوار البستاني، المصدر السابق، ص246 .

2- المصدر نفسه ، ص 246.247.

3- نفس المصدر ، ص250 .

4- المصدر نفسه ص 248-249.

5- فولني ، المصدر السابق ، ص379

6- يستخدم دائما فولني في كتابه عبارة الأتراك للدلالة على العثمانيين .

7- ادوار البستاني ، المصدر السابق ، ص 253 ، فولني ، ص 379.

عبادة منتظمة عند البدو كما قال فولني [1].

2--2موقف فولني من البـــدو: نلاحظ عند فولني موقفين من البدو:

أولهما سلبي : عارض من خلاله بعض تصرفات البدو خاصة ميلهم للغزو و الإعتداء – الذي علله بحياة التشرد المفروضة عليهم-، فتحولوا من جشعين بسبب قسوة المناخ إلى لصوص جراء الطمع. يصف البدوي بأنه نصاب أكثر منه محاربا، فان لقي مقاومة لا يرى في الغنيمة ما يبرر المخـــاطرة بحياته ، هم شعب محارب رغم عدم إتقانه فنون الحرب ، كما يعيب عليهم إهمالهم للعلوم و الفنون التي تكاد تكون معدومة و التي تقتصر فقط على معرفة القراءة[2].

والثاني ايجابي :يظهر من خلال عبارات التعجب و الإستغراب التي وظفها في كتاباته عن حياة البدو حيث عظم من حياة البساطة التي يعيشونها و استغرب كيف لسيد في قومه أن يتولى شؤونه بنفسه فهو من يسرج فرسه و يلجمها و يقدم لها العلف كما تقوم نساؤه بإعداد القهوة و العجن و الطهي و غسل الثياب وحمل الماء، فهي صورة يصعب على رحالة قادم من أوروبا أن يستوعبها[3].

لم يخف فولني انبهاره بالمجتمع البدوي، فهو مجتمع يسوده من الثقة و الكرم و الشجاعة ما يشرف أعرق الحضارات الإنسانية، إذ يكفي، أن السلطان العثماني بكل نفوذه لا يستطيع استرداد لاجئ في قبيلته ما لم يقض على قبيلة بأكملها[4].

إعجابه بحياة البدو جعلته يقارن بينهم و بين سكان أمريكا الهنود، متسائلا لماذا لا نرى عند العرب شراسة الهنود؟ و لماذا لا نجد عندهم هذا الميل إلى أكل اللحوم البشرية رغم قساوة الطبيعة

1- يشير فولني إلى فترة إقامته عند بدو غزة أواخر 1784 م ، حين اقترح عليه شيخ قبيلتها المكوث عندهم بدل الرحيل مقابل أن يعطوه كل ما يحتاج إليه من مال، و فرس و زوجة رغم أنه كافر كما يشير إلى حديثه مع شيخ أخر بادره بالصلاة على رسول الله و هو ما جعل فولني يجيبه بعبارة أنا مصغ إليك عوض عبارة صليت عليه و هو ما آثار غضب رجل تركي من القدس سمع الحديث في وجه البدوي قائلا: كيف توجه إلى كافر كلاما لا يوجه إلا للمؤمنين؟ فرد عليه الشيخ البدوي بأنها زلة لسان و انتقد التركي بل و وبخه بإهانته لغريب اقتسم معهم الخبز و الملح و هذه ليست من عادات العرب، البستانيص 254، فولني ، ص 380-381.

2- المصدر نفسه ، ص 255 ، فولني، ص ، 383 .

3- ادوار البستاني ، المصدر السابق ، ص 247.

4- ضيوف العرب فئتان: فمنهم المستجير و هو الذي يستعين بحماية القبيلة و منهم المطا نب الذي يشد أطناب خيمته في جوار خيام القبيلة، فكأنه جانبهم ، المصدر نفسه ، ها ، ص 251 .

التي يعيشونها؟ لم هم اجتماعيون عكس الهنود؟ . لقد توصل فولني إلى أن الهندي يعيش في منطقة غنية بالمراعي و الغابات و البحيرات و هي بهذا ملجأ للعديد من الحيوانات الأمر الذي جعل الهندي يميل بطبعه إلى القنص.فهو صياد لا راع ، أكسبته مشقة الصيد و القنص الصلابة والخشونة فصار متعودا على سفك الدماء و مشهد الألم ، أما البدوي العربي فحالته جد مختلفة لأنه يعيش في مناطق واسعة جدباء لا ماء فيها و لا نبات ، فلا يستطيع أن يكون صيادا لانعدام الطرائد فكان راعيا للجمال مكتفيا باللبن و التمر بعيدا عن سفك الدم فما تعودت يداه القتل و لا ارتاحت أذناه إلى أنين الوجع مما جعله يحتفظ بإنسانيته.غير أن هذا الراعي الرقيق، بدل الجمل بالفرس مما سهل عليه قطع المسافات فأصبح متشردا، و بعدما كان جائعا بسبب القحط، صار لصا بسبب الطمع و هذه هي صورته الحالية فهو نهاب أكثر منه محارب[1].

2-2. تهديدات البدو: شكلت تهديدات العشائر البدوية أكبر تحد للدولة العثمانية منذ سيطرتها على ايالة الشام حيث جاءت هذه الإظطرابات في وقت لم تكمل الدولة العثمانية تنظيماتها الإدارية بعد في المنطقة [2]، لا سيما و أن تمرد هذه العشائر كان غالبا ما يتم في المناطق البعيدة عن المراكز الإدارية و التي اتسمت بضعف الوجود العسكري العثماني[3].

يأتي هذا الموقف العدائي للبدو من العثمانيين باعتبارهم مغتصبين، يسعون دائما لإيذاء القبائل العربية المجاورة لنفوذهم مما فرض عليها حياة القلق و الإضطراب .فهؤلاء الغرباء الأتراك يدعون ملكية البلاد بحق الفتح و ينظرون إلى الشعوب نظرة الأتباع المتمردين أو الأعداء الخطرين عكس البدو الذين يعشقون الحرية بكل أنواعها[4] ويعتبرون كل غريب عدو لهم[5].

إن معظم العشائر البدوية أبدت ولائها للسلطة العثمانية الجديدة منذ عهد السلطان سليم الأول بعد دخوله دمشق أول مرة ووافقت على دفع ما كانت تدفعه للمماليك من التزامات مالية غير أن

1- إدوار البستاني ، المصدر السابق، ص 250-251 ، Volney، المصدر السابق، ص 374، 375، 376، 377.

2- يشير ابن طولون إلى تعرض قافلة الحج عام 925 هـ لهجوم البدو غير أنه فشل لقوة مرافقي القافلة و هو ما أفرح دمشق ، للتفصيل أكثر ، عد إلى مفاكهة الخلان ، المصدر السابق ، ص 387.

3- الدولة العثمانية في المجال العربي ، المرجع السابق ، ص 147.

4 - Volney, op.cit, p24.

5- البستاني ، المصدر السابق ، ص 251.

البعض منها أعلن تمرده [1] خاصة بعد انتقال السلطان سليم من دمشق إلى القاهرة ظنا منها بأنه سيهزم أمام مماليك مصر و يفقد بذلك مكاسبه العسكرية و السياسية في بلاد الشام. إن المتصفح لمجموع الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة لبلاد الشام 951-973 ه/ 1544-1566 م يستخلص مجموع التمردات البدوية و هجماتهم خاصة على قوافل الحج مع محاولات الدولة العثمانية لاحتوائها أو القضاء عليها.

رغم قدرة الدولة العثمانية على قمع ثورات هذه العشائر مهما كانت خطورتها نتيجة قوتها العسكرية إلا أن ما كانت تقوم به القبائل البدوية من غارات على قافلة الحج ظل مصدر قلق وتوتر للدولة العثمانية[2] خاصة و أن البدو ركزوا هجماتهم على طول طريق الحج الشامي ذهابا وعودة على ما مثله هذا الطريق من مسلك للحجاج الشوام و القادمين من إيران و تركيا[3] حيث تشير الأبحاث التاريخية إلى أن قافلة الحج، تعرضت في الفترة الممتدة ما بين 1517-1757م إلى نحو 24 هجوما من قبائل البدو منها عشرة (10) ناجحة وإحدى عشر (11) فاشلة وثلاث(03) هجمات كانت بين النجاح و الفشل و غير واضحة النتائج لعدم توفر المعلومات الكافية في حين ، شهد القرن الثامن عشر لوحده، تسعة عشر (19) هجوما منها ست (06) ناجحة و عشرة (10) فاشلة وثلاثة (03)بين النجاح و الفشل و هو ما يعكس ازدياد شوكة قبائل البدو وخطورتهم على طول طريق قافلة الحج[4]. وللحد من هذه الظاهرة ، لجأت الدولة العثمانية ، إلى اتخاذ جملة من التدابير بهدف حماية الحجاج، تملت في :

1- تمرد ابن حنش في المناطق الممتدة بين صيدا و بيروت غير انه اضطر بعد عودة السلطان سليم إلى دمشق للفرار نحو ديار بكر أين قتل في معركة بين أتباعه و قوات الوالي العثماني جان بردي الغزالي الدولة العثمانية في المجال العربي ، ص 147-148.

2- الحكم رقم 297/3 الصادر إلى بكلربكي حلب بتاريخ6ذو الحجة966هـ/1559م حول قيام الأعراب بنشاطات مريبة .في أرجاء حمص و اعتدائهم على الرعايا مع صدور الأمر بتعيين أميرالاي حمص للمحافظة على تلك الأرجاء للحيلولة دون إلحاق الضرر بالرعايا ، والحكم 1297/3 الصادر بتاريخ 5 شوال 967/1560 إلى بكلربكي الشام حول شكاوي أهالي عجلون من تعرضهم لهجمات البدو وبعض ممتلكاتهم مناشدتهم بناء قلعة في عجلون لصد الهجمات مع صدور الأمر بالتحقيق من جدوى بناء القلعة، فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج 1 ، ص، 32-44.

3- خالد صافي، حسين باشا مكي، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد 13، العدد 2، جوان 005، ص35وما بعدها.

4- الحكم رقم 67/17 المؤرخ بتاريخ 8 رجب 975هـ / 1568 و الصادر إلى بكلربكي حلب والمتمثل في طلب قافلة حج سمرقند و بخارى بحماية السلطان لهم من أجل تسيير عودتهم إلى بلدانهم لكون طريق إيران غير امن و صدور الأمر بتلبية طلبهم و إيصالهم امنين إلى حدود ديارهم، فاضل بيات، الأحكام السلطانية ، ج2 ، ص 22.

أ- جمع الحجاج في نقطة تجمع و انطلاقهم في وقت واحد ضمن قافلة واحدة.

ب- تعيين أمير عثماني على القافلة برتبة أمير الحج للإشراف على تسيير شؤون الحج[1].

ج- مرافقة قوة عسكرية تحت أمرة أمير الحج أو قائد الجردة .

د- كسب العشائر البدوية بتوزيع مبالغ مالية أو ما يعرف بالصرة السلطانية تقدم إليهم في كل موسم حج[2] .

ولكن عندما لم تكن هذه المعونة تدفع بالكامل، كما حدث خلال حروب الدولة العثمانية مع النمسا ما بين 1683-1699م وعدة مرات بالتأكيد خلال القرن 18 م[3]، أو أن القبائل تستهين بها، ترى في نهب و سلب الحجاج مكسبا لا يمكن التفريط به ، لذا تكثر غاراتهم خاصة عندما تكون القوة العسكرية المرافقة للقافلة في طريق عودتها غير كافية لحمايتها[4].كما تمردت الكثير من القبائل الصغيرة احتجاجا منها على عدم استفادتها من مدا خيل الصرة السلطانية التي عادة ما تمنح للقبائل الأكثر نفوذا و قوة، وهو ما جعلها تنتقم بمهاجمة قافلة الحج لعام 1758م[5] غير أن أكبر ضربة هزت أركان الدولة العثمانية كان الهجوم على قافلة الحج لعام 1757م و التي ضمت بين حجاجها أفراد ا من العائلة السلطانية ، إذ تمكن البدو حسب فولني من إبادة معظم الحجاج و المقدر عددهم بـــ60 ألف مع سبي العديد من النساء و الإستيلاء على ثروات كبيرة ما بين مبالغ مالية و بضائع .ضربة لازالت الدولة العثمانية تتذكرها إلى عهد فولني[6] .

يشير فولني لهذا الإعتداء بسرده لرواية طريفة تبين إما سذاجة البدو وبساطة حياتهم أو إلى جهلهم، حيث أنه من جملة الغنائم التي استولى عليها البدو كانت كميات من حبات اللؤلؤ التي

1- منذ 1708 عين أمير الحج من ولاة دمشق حيث حرص على تعيين والي صيدا أو والي طرابلس أميرا للجردة و هو من أحد أقربائه المباشرين لتعزيز التعاون بينهما، عبود الصباغ، المصدر السابق، ص 27 .

2- فاضل بيات،الدولة العثمانية في المجال العربي، المرجع السابق، ص 149.

3- ثريا فاروقي ، المرجع السابق ، ص 165 .

4- نفس المرجع ، ص ، 165.

5- عمل أسعد باشا أثناء فترة حكمه (1743-1757) على دفع الصرة إلى القبائل القوية المتواجدة على طريق الحج في حين فرض الضرائب على القبائل الصغيرة كقبيلة بني صخر المسئولة عن الهجوم. عبد الكريم رافق، المرجع السابق ص 12.

6 - Volney, op.cit, P92

ظنوها حبات ذرة فاستعصى عليهم طهيها إذ هموا برميها ، و هو ما جعل أحد التجار الغزاويين يقايضهم عليها بقبعة حمراء لتفطنه لقيمة الحبات[1].

إن هجمات البدو لم تقتصر على قوافل الحج بل تعدتها إلى ثروات القوافل التجارية[2] إذ تعرضت قافلة دمشق- بغداد التجارية لعام 1744/1156م لاعتداء و كان بها من الأموال مالا لا يحصى، من جملتها هدية من سليمان باشا والي الشام إلى والي بغداد ليتكرر ذات الإعتداء عام 1772م [3].

أمام خطورة هذه التهديدات المستمرة لاسيما خلال القرن 18 م ، اشتدت لهجة الخطاب الرسمي العثماني باعتبار البدو ليسوا مجرد قطاع طرق عاديين فحسب، بل يتساووا مع الكفار غالبا وهو ما يعني إمكانية اقتلاع أشجار التمر العائدة إليهم [4].غير أنه لا ينبغي اعتبار كل البدو عشائر متمردة،بل إن قسما منها ظل على ولايته للدولة العثمانية وارتبط معها بعلاقات جيدة، بل وساهم إلى جانب قواتها في محاربة القبائل المتمردة[5]، الأمر الذي جعل الدولة العثمانية تكافؤهم بمنحهم جملة من الإمتيازات في البيع و الشراء في مدينة حلب اعتمادا على ما ورد في الحكم السلطاني الوارد إلى بكلربكي حلب[6] ،كما أنعمت عليهم بالأموال و الهدايا [7].

3-حركة ظاهر العمر1750-1776 م:

شهدت بلاد الشام مع مطلع القرن،تعاظم نفوذ الزعامات المحلية وانتقالها إلى مرحلة الإنفصال عن الدولة العثماني ، مستغلة ظروفا محلية و أخرى دولية لإنجاح مسعاها ،لا سيما

---

1 - Volney ,Opcit, P315.

2- ورد في الحكم السلطاني رقم 34/7 المؤرخ في1 صفر 975 هـ/ 7 أوت 1567 و الصادر إلى أمير سنجق القدس الشريف مراجعة إحدى السيدات الديوان السلطاني للإبلاغ عن أسر ابنها من قبل البدو و نهب ممتلكاتها مع صدور الأمر بالاهتمام و العمل على تخليصه من الأسر ، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج2، ص24.

3- يوسف جميل نعيسة، مجتمع مدينة دمشق ، ص 58.

4- ثريا فاروقي ، المرجع السابق، ص165

5- فاضل بياالدولة العثمانية في المجال العربي ، ص149 .

6- الحكم رقم 292/7، المؤرخ في 23ربيع الأول 975ه/27سبتمبر1567 م ، و المتضمن الأمر بعدم التدخل في شؤون البدو التابعين لأبي ريشة أمير سنجق عانة عند قيامهم بالبيع و الشراء في مدينة حلب، بلاد الشام في الأحكام السلطانية ج 2 ، ص، 18 ، 19.

7- فاضل بيات ، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص137.

الضعف العسكري الذي ألت إليه القوات العثمانية مع ازدياد تذمر السكان جراء سوء إدارة حكم الباشاوات ناهيك عن انشغال الدولة العثمانية بحروبها الخارجية .[1]

كل هذه الظروف ساعدت على بروز ظاهر العمر في فلسطين كنموذج انفصالي، أقلق كثيرا الدولة العثمانية[2]،موازاة مع حركة أخرى مماثلة كانت في مصر بزعامة علي بك.

3-1التعريف بظاهر العمر: يعود نسبه إلى قبيلة الزيادنة القيسية [3] الملتزمة التابعة في ايالة صيدا لطبريا [4] بتزكية من أمير جبل الدروز أمير الشهابي[5]مقابل ضريبة سنوية، اختارته قبيلته بعد وفاة والده الشيخ عمر الزيداني لتسلم الإلتزام و هو لا يتعدى الرابعة عشر من عمره[6] واضطر والي صيدا آنذاك الإعتراف به سنة 1733م بعد بروز دوره في حرب البعنة [7]سنة 1721م، فأصبح إقطاعيا مستقلا في طبريا تابعا لوالي الدولة العثمانية في صيدا.

من هذه المدينة إذن، بدأ ظاهر العمر حركته سالكا طريقين أولهما، استمالة أهل القرى المجاورة له مع توسيع رقعة التزامه على حسابهم، و ثانيهما الإبقاء على علاقته الطيبة بوالي صيدا و دفعه الضرائب في وقتها المحدد[8].

1- يقصد بها الحرب العثمانية، الفارسية المتجددة في النصف الأول من القرن 18 م(1730-1746م)، والحرب العثمانية-الروسية (1768_1774) المنتهية بمعاهدة كوجوك كينا رجة ، للتفصيل عد إلى موسوعة الإمبراطورية العثمانية، المجلد2، ص 612 وما بعدها ، بازيلي ، ص 568، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، ص 623.632 .

2 - Volney .op.cit .P84.

3- هي قبيلة من شبه الجزيرة ، ينتهي نسبها إلى أشراف زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب هاجرت إلى الشام أواخر القرن 17م ، و استقرت بولاية صيدا ، سيار الجميل ، المرجع السابق، ص268، عمر الصالح البرغوثي ، خليل طوطح ، تاريخ فلسطين، مكتبة الثقافة الدينية، ص 211.

4- مدينة فلسطينية عريقة ، تعود للعهد الروماني باسم تيبيريس، دخلها الإسلام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فيها بئر يوسف وهي البئر التي رمي فيها سينا يوسف عليه السلام ، موسوعة ألف مدينة إسلامية ، ص 326.

5- هو أمير جبل الدروز ، مؤسس الدولة الدرزية في جبل لبنان ، والمتوفى سنة1697م، للتفصيل في الدولة الدرزية ، عد الى تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم ، ط2، منشورات دار لحد خاطر، بيروت ، 1984، ص17 .

6- يشير عبود الصباغ في كتابه إلى تاريخ ميلاد ظاهر سنة 1690م، في حين يكون حسب المرادي ولد بين 1694 1695 م، ص 24

7- هي قرية تقع بين عكا و صفد على بعد 18 كلم شرق عكا، استنجد بها شيخها الرافض لدفع ضريبة الميري بظاهر العمر الذي أجاره و هو سبب بداية تصادم الشيخ ظاهر مع الدولة العثمانية .نفس المصدر ص 25، 29.

8- عبود الصباغ ، المصدر السابق ، ص 30

لقد اضطرته سياسته هذه في بعض الأحيان، إلى إعلان الحرب على بعض القبائل البدوية كقبيلة عرب صقر[1] التي سلمت أخاه صالح الزيداني أسيرا إلى سليمان باشا دمشق[2] الذي ساءت علاقته به، لا سيما بعد أن تحالف مع ابن أخ ظاهر العمر للإطاحة به، وكان قد حاول محاصرته في طبريا عام 1743م، غير أن وفاته في نفس السنة [3] و تعيين باشا جديد على دمشق هو أسعد باشا[4]، ساعد ظاهر العمر على الإستقرار أكثر، لا سيما بعد أن تمكن من التخلص من ابن عمه الخارج عنه سنة 1745 م، لذا بدأ ظاهر العمر في التوسع أكثر[5].

2-3 سياسة ظاهر العمر: شملت سياسة هذا الزعيم البدوي كل المجالات ، فاهتم بتطوير التجارة كعادة كل حكام و أمراء آسيا بتعبير فولني[6] خاصة مع الفرنسيين المتواجدين بعكا بدليل علاقته التجارية معهم وتفضيله بيع منتوج قطن مقاطعته لهم [7].غير أنه أدرك أن التجارة من دون ميناء على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، يمكنه من حرية التبادل المباشر مع التجار لا فائدة من ورائها لذا فكر ظاهر العمر في الخطوة الثانية:

أ-الإستيلاء على عكا سنة 1746م وهي مدينة وصفها الرحالة ابن بطوطة بالمدينة الخراب [8] و قال عنها عبد الغني النابلسي:<< **بلدة عكا على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، هي بلدة خراب مندكة ، قد تهدمت أسوارها و خفيت بدائع صنعتها، و لم يبق منها إلا القليل من البيوت** >>[9].

1- هي عشيرة بدوية ، يعود أصلها إلى السردية، من قبائل حوران ، ينتهي نسبها إلى الصحابي المقداد ابن الأسود ،عبود الصباغ،المصدر السابق، ص 31.

2- هو من أسرة آل العظم، تولى حكم دمشق على مرتين ، الأولى مابين 1734-1738 م، و الثانية عام 1741م، توفي خلال محاصرته لطبريا عام 1743م، نفسه، ص 31.

3 - Volney, op.cit, P 86.

4 - Ibid , P86.

5- تمكن الشيخ ظاهر بعد قتله لإبن عمه من التوسع على حساب المناطق التي كانت تابعة له في قرية الدامون جنوب شرق عكا، عبود الصباغ ، المصدر السابق، ص 23-25.

6 - Volney , op.cit, P 86.

7- عبود الصباغ ، المصدر السابق ، ص 49 .

8- حسين مؤنس، ا بن بطوطة و رحلاته، ص 49.

9- عبد الغني النابلسي ، الحقيقة و المجاز في رحلة بلاد الشام، مصر والحجاز، ص294 ، موسوعة رحلات العرب و المسلمين إلى فلسطين، ج3، تيسير خلف ، ط1، 2010، ص 95.

رغم هذا الوضع المزري لمدينة عكا والبائسة بتعبير فولني[1]، اهتم ظاهر العمر بالسيطرة عليها مع مدينة حيفا لما تمثلانه من أهمية اقتصادية و عسكرية. فمن خلالهما يسيطر على الطرق الساحلية العسكرية بين حيفا و عكا ويؤمن بذالك سلامـــة الـــطرق بين شمال وجنوب البلاد ناهيك عن سيطرته على منطقة خليج عكا مع تأمينه الكلي له بعدما كان مأوى للقراصنة شرق المتوسط [2]. فاستغل ظاهر العمر إدخال أغا المدينة لأسلحة يهدف إلى محاربته بها و هو ما اعتبره تهديدا مباشرا له ، سمح له بالزحف على المدينة التي دخلها من دون قتال بعد إنذار كان قد وجهه للأغا و السكان بالخروج منها أو تخريبها بمن فيها ، ليتقدم بطلب التزامها إلى والي صيدا عام 1749م، غير أن بعض المصادر تشير إلى غير هذا التاريخ [3].

رغم ما تمثله هذه الخطوة من جرأة كبيرة ضد الدولة العثمانية، إلا أننا نلاحظ وبالمقابل برودة الموقف العثماني إذ استجاب السلطان لمطالب الشيخ ، وهو ما فسره فولني باستيراتيجية السياسة العثمانية تجاه الحركات الإنفصالية في ولاياتها. فإعلانها الحرب في هذا الوقت سيكلفها خسائر مادية هي في غنى عنها ، خاصة إذا كانت هذه الحركات قوية الجانب مثل حركة ظاهر العمر إضافة إلى احتمال هزيمتها العسكرية، و هو الأمر الذي جعلها تنتهج أسلوب التأني و محاولة الإحتواء بالتهدئة و المراوغة [4] .

باستيلائه على عكا ، يكون ظاهر العمر قد أحكم قبضته على مدينة حيفا وما جاورها من مناطق بين صفد[5] وجبل نابلس، الأمر الذي أزعج والي دمشق ، كما أقلق الفرنسيين خاصة على اعتبار تمركز المصالح التجارية الفرنسية في موانئ المنطقة المذكورة [6]. فشرع في إعادة ترميم المدينة وتقوية تحصيناتها التي كانت تفتقد إليها سابقا، إذ كان بإمكان العدو اقتحامها من جهة البحر كما من جهة اليابسة، فبدأسنة 1750 م في بناء سور حولها وقلعة مزودة بالمدفعية، كما حصن الميناء

---

1 - Volney, op.cit, P86-87

2 -Ibi, P 95,96.

3- أورد عبود الصباغ في كتابه ، الروض الزاهر ، سنة 1749، ص 87

4 - Volney, op.cit, P 88, 89

5- بلدة في فلسطين ، شملي شرق بحيرة طبرية، وهي حصن أقامه الصليبيون للدفاع عن مملكة القدس، استولى عليها صلاح الدين الأيوبي عام1188م بعد معركة حطين ، دمرها زلزال عام 1759م بشكل كامل معجم الإسلام التاريخي ص564.

6 -Volney ,op.cit, P 89.

بمجموعة من الأسوار[1].

غير أن كل هذه التحصينات، أوردها فولني بعبارات من الإستهزاء و السخرية، فأعاب عليها ضعفها وهشاشتها لأنها غير قادرة على المقاومة و أرجع هذا الضعف إلى جهل سكان هذا الجزء من أسيا –بلاد الشام–إلى بناء القلاع و إقامة الخطوط الدفاعية ، فكما قال :<<**إنه الجهل بالتحصينات الدفاعية الحديثة، حيث بإمكان سفينة حربية مزودة بثلاثين مدفعية أن تقصف كل الواجهة من دون صعوبة تذكر، ولكن ما دام الجهل مشترك فلا يخشى من الأمر شيء.**>>[2]

ب– توفير الأمن في المنطقة، إما بإحكام قبضته على القبائل الثائرة المجاورة لنفوذه مثلما فعل مع عرب صقر[3] أو بتحالفه مع بعضها الآخر و استمالتها إليه من خلال المصاهرة، و يكون بذلك قد ضمن تعزيزا لنفوذه أمام باشا دمشق ، ناهيك عن ضمان مأوى له و لعائلته في حال ساءت الأوضاع ، زيادة على ما يراه فولني من تأمين ظاهر العمر و احتكاره للخيول الأصيلة –التي كان يعشقها باستمرار– والتي تعتبر هذه القبائل مستودعا لتربيتها [4].

ج– استمالة قبيلة المتاولة إلى جانبه اثر قيامه بدور الوسيط بينها و بين باشاوات ن و توفير عشرة آلاف فارس لخدمة ظاهر العمر.

د–انتهاج سياسة التسامح الديني، إذ كان لعودة الأمن إلى عكا مع ما تمتاز به من جودة الأراضي و خصوبتها دافعا رئيسا نحو هجرة الكثير من المزارعين إليها، ، مسلمين كانوا أو مسيحيين هروبا من تعسف الباشاوات العثمانيين من جهة ، و من تهديدات قبائل البدو من جهة أخرى[5]، حيث عمل ظاهر العمر على تطبيق سياسة معتدلة بين المسلمين و أهل الذمة، ولا غرابة في هذا الأمر مادام موظفه المباشر أو الكتخدا[6]الخاص به كان مسيحيا و هو إبراهيم الصايغ، [7] ويشير فولني

1– يشير عبود الصباغ إلى أن بناء السور تم سنة 1750م، ص 38، في حين لم يشر إليه فولني .

2 - Volney ,op.cit , P 89,90

3 -Ibid. P 90,91.

4 - Ibid ,p91.

5 - Ibid, P 92

6– الكتخدا أو الكيخيا ، ، مصطلح فارسي، معناه العامل أو الوكيل، دوسون، ، المصدر السابق، ص 72

7– من أسر الشوير في لبنان، درس الطب و مارسه في عكا، بقي في خدمة ظاهر 14 سنة لعب خلالها دورا هاما في تاريخ الجليل ، عبود الصباغ، المصدرالسابق، ص 52 .

أن لجوء المسيحيين إلى عكا لم يكن من سوريا فحسب بل تعداه حتى إلى جزيرة قبرص المجاورة للساحل السوري[1].

3-3 موقف الدولة العثمانية منه: إن تعاظم نفوذ ظاهر العمر في فلسطين و خارجها، لم تكن لتسمح به الدولة العثمانية، لا سيما تماديه في طلب تعيينه1768 م أميرا على عكا وصفد بل وعلى منطقة الجليل بأكملها[2] الأمر الذي رفضته الدولة العثمانية خاصة مخاوفها تعاظمت منذ هجوم قبائل البدو المتحالفة مع ظاهر العمر على قافلة الحج لسنة 1757م ، كما سمح لهم ببيع غنائم القافلة المسلوبة في عكا الأمر الذي أغضب الباب العالي و اعتبره تجاوزا في حق السلطان العثماني[3]، لا سيما وأن الإعتداء لم تقتصر خطورته على فداحة الخسائر البشرية بل تجاوزتها إلى التعدي على قدسية شعيرة الحج و على مقدرة السلطان في تأمين طريق الحج التي كان قد أظهرها منذ إلحاق بلاد الشام بسلطته سنة 1517م .رغم نفي ظاهر العمر للأمر و سعيه الحثيث لإرجاع المحمل [4].

سبب أخر جعل الدولة العثمانية ترفض طلبه، تمثل في علاقته بقراصنة جزيرة مالطا[5] ، الذين كثيرا ما سيطروا على غنائم السفن العثمانية شرق المتوسـط وأعادوا بيعها في عكا، وهو ما نفاه ظاهر العمر متحججا بضعف تحصينات مدينة حيفا التي يستغلها القراصنة لشن هجماتهم رغما عنه، مطالبا السلطان العثماني بضرورة تحصين المدينة بالمدافع [6].

كل هذه الأسباب جعلت الباب العالي ينظر بعين الريبة و الشك إلى ظاهر العمر خاصة وأنه قام بتعيين أبنائه [7] في المناطق التي خضعت له [8] خاصة ابنه علي[1]ما يوحي ببداية تشكل قوة محلية

---

1 - Volney,Opcit,P91.

2 - Volney,Op.cit,p95.

3- هو السلطان مصطفى الثالث 1557 -1774، موسوعة الإمبراطورية العثمانية، المجلد2، ص49

4- خالد صافي ، المرجع السابق، ص 49

5 Volney, op.cit, P95.-

6- يشير فولني إلى أن هذا الحصن سرعان ما دمره الشيخ ظاهر العمر لعدم جدواه، بعد أن استولى على مدفعيته المصنوعة من البرونز و نقلها إلى عكا، ص 96 .

7- عين صليبا على طبريا، علي على صفد، عثمان على شفا عمرو، سعيد على صفورية و أحمد على عجلون، عبود الصباغ، المصدر السابق، ص 43.

8- فاضل بيات ، الدولة العثمانية في المجال العربي، ص 288.

مستقلة في فلسطين[1] و هو ما يفسر تغيير سياسة الدولة العثمانية من المهادنة إلى التضييق و الخناق بل و إلى إعلان الحرب من خلال:

- إرسال فرق الكابيجي إلى ظاهر العمر.

- تعيين عثمان باشا[2] على ولاية دمشق سنة 1760 و المعروف بكرهه لظاهر العمر خلفا للوالي السابق أسعد باشا، و من أجل تدعيم نفوذ هذا الباشا الجديد، عينت الدولة العثمانية اثنان من أبنائه على كل من طرابلس[3] و صيدا عام 1765 م إضافة إلى القدس و فلسطين[4].

لم يطل الوالي الجديد الوقت في إعلان الحرب على ظاهر العمر بحجة امتناع هذا الأخير عن دفع الأموال الميرية و لم تهدأ الأمور بين الرجلين إلا بعد تدخل الدولة العثمانية التي أمرت بإحالة الخلاف بين الرجلين إلى المحكمة سنة 1766م،بحضور كل من علماء عكا، القاضي المفتي وممثلي كلا من المتخاصمين وهذا بموجب فرمان سلطاني[5]، أقرت من خلاله العفو على ظاهر العمر و توقيف الحرب ضده.

رغم هذا، استمر العداء بين الطرفين، إذ زاد تعسف الوالي في فرض الضرائب[6]على سكان غزا و ما جاورها مرغما إياهم على التمرد ضده ما بين 1766-1770م[7]، كما هدد ظاهر العمر و هو الأمر الذي جعل التفاهم بين الرجلين أمرا مستحيلا.

3-4تحالف ظاهر العمر مع علي بك : من جملة الإستعدادات التي انتهجها ظاهر العمر الزيدانيلمواجهة عثمان باشا، تحالفه مع علي بك، في ظل ظروف أقل ما يقال عنها غير مناسبة،

---

1 - Volney, op.cit,P 96.

2- عثمان بن عبد الله باشا الكرجي المعروف بالصادق، و هو مملوك جرجي الأصل كان كتخذا أسعد باشا، و قبل ذالك حاكما لحماة ووالیا على طرابلس، المرادي، ج3، ص161.

3- هي مدينة لبنانية على الساحل المتوسط تبعد بـــ 60 كلم شرق بيروت، فينيقية الأصل احتلها الصليبيون عام 1109م وحررها السلطان قلاوون عام 1289م، موسوعة 1000 مدينة إسلامية، ص327.

4 - Volney , op.cit,P 97

5- كلمة فارسية و تعني الأمر أو الحكم الصادر من السلطان على أي شخص داخل حدود الدولة العثمانية، فيصل عبد الله الكندري، المرجع السابق، ص 26.

6- يشير فولني إلى أن الضرائب لم يسلم منها حتى التجار الأجانب على غرار تاجر البندقية Jean damiani الذي تعرض للضرب و التنكيل لإرغامه على دفع الضرائب العالقة عليه و المقدرة ب 60 ألف جنيه للباشا، ص 101.

7- عبود الصباغ، المصدر السابق، ص 49-50، فولني، المصدر السابق ، ص 101.

لا سيما انشغال الدولة العثمانية بحربها ضد روسيا ، أما أسباب قبول علي بك التحالف مع ظاهر العمر، فقد لخصها فولني في رغبة علي بك التوسع على حساب بلاد الشام إلى حدود أنطاكية[1] أي إلى حدود دولة المماليك السابقة[2]، في حين تشير المصادر الأحرى إلى رغبة علي بك في الانتقام من عثمان باشا لعداوة بينهما[3] تعود إلى فترة تولي علي بك إمارة الحج في مصر قبل أن يصبح شيخ بلد[4]حيث كان مجرد أمير سنجق[5] بينما عثمان باشا كان واليا على دمشق.

بناء على هذا التحالف ، أرسل علي بك قواته نحو مدينة غزة فتمكنت رفقة قوات ظاهر العمر من دخول يافا و رام الله[6]، وفي 1771م، قدم محمد بك أبو الذهب على رأس اثنا عشر ألف جندي ما عدا الخدم الذي زاد عددهم عن العسكر بكثير[7]، مدعوما بقبيلة المتاولة و1500 جندي بقيادة علي بن ظاهر، حيث تمكنت هذه القوات من السيطرة على دمشق و إرغام الباشا على الفرار في أفريل1771[8]. غير أن هذا الإنتصار سرعان ما تحول إلى هزيمة، بعد إقدام محمد بك أبو الذهب على التراجع والإنسحاب نحو القاهرة، الأمر الذي استغله الباشا في الرجوع إلى دمشق و الإستعداد مجددا لكسر شوكة ظاهر العمر بتوجيه حملة عسكرية مفاجئة له في عكا أواخر شهر أوت 1771، غير أن المفاجأة جاءت من ظاهر العمر الذي تمكن من الإطاحة بالقوات العثمانية في معركة الحولة[9]02 سبتمبر 1771 م مدعوما بقبيلة المتاولة. لقد فتح هذا الإنتصار آفاقا جديدا لظاهر العمر وقواته التي قدرها فولني ب 25الف مقاتل[10]، فتمكن من السيطرة

1- مدينة في شمال سوريا على امتداد نهر العاصي، تبعد ب10كلم عن المتوسط، موسوعة 1000 مدينة أسلامية، ص69

2 Volney ,op.cit,P 101.-

3- يشير عبود الصباغ إلى فرار مملوك من علي بك و لجوئه إلى عثمان باشا الذي رفض تسليمه ، ص 55 ، 56.

4- لقب سياسي ظهر في مصر المملوكية، و هو زعيم المماليك، له سلطة في تسيير شؤون الولاية، حيث يعزل الوالي العثماني أو يحسبه في القلعة، عبود الصباغ، المصدر السابق، ، ص 55.

5- مصطلح تركي بمعنى اللواء (العلم)، جب وبوون، ج1، ص197 .

6- مدينة فلسطينية عريقة تسمى بالرملة، تبعد ب 45كلم عن القدس، فتحها عمرو بن العاص عام636م، شهدت صلح الرملة الشهير بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسدعام1192م موسوعة ألف مدينة إسلامية ، ص 256.

7- عبود الصباغ ، المصدر السابق ، ص 63.

8- في معركة سهل داريا بتاريخ 03 أفريل 1771م، نفس المصدر، ص 64.

9- هي بحيرة في فلسطين تقدر مساحتها ب 14 كلم، يعود اسمها إلى حول أو شول، أحد أبناء أرام، عبود الصباغ، ص 67.

10 -Volney, op.cit, P104.

على صيدا بعد فرار واليها درويش باشا[1]منها و عين الدنكزلي أغا[2]متسلما[3]عليها في 21 أكتوبر 1771[4]، و في طريق عودته إلى عكا أرسل ظاهر العمر إلى حليفه علي بك يهنئه بالإنتصار.

3-5-الصلح مع الدولة العثمانية : كان لانتصارات ظاهر العمر المتتالية أثرها البالغ في تغير موقف الدولة العثمانية المنشغلة بتمرد علي بك و بالحرب مع روسيا، لذا سعت إلى استمالة ظاهر العمر إليها سعيا منها لكسر التحالف بينه و بين علي بك.

يقول فولني أن بهذا الصلح، كسرت الدولة العثمانية نفوذ باشاواتها في كل من دمشق صيدا وطرابلس[5] ذ أعابت عليهم سياستهم العدائية تجاه ظاهر العمر، الذي- و بسبب كبر سنه - أراد أن يفتح صفحة جديدة مع الباب العالي، غير أن وزيره الصباغ كان له دورا بارزا في تغيير موقف الشيخ ظاهر ، مقنعا إياه بانتظار قدوم حليفه المصري للسيطرة على سوريا وبإمكانه الحصول على أكبر الإمتيازات حينئذ[6] نتيجة رغبة الوزير في الإستفادة الدائمة من قوة ظاهر العمر و بما تعود عليه من أموال تضاف إلى ثروته التي قدرها فولني بحوالي 20 مليون[7].

مانتظره ظاهر العمر، و من وراءه إبراهيم الصايغ، لم يحدث لتمرد محمد بك أبو الذهب على سيده علي بك في فيفري 1772[8]، حيث إضطر هذا الأخير في 28 نيسان 1772[9].إلى الفرار لاجئا من مصر إلى عكا حيث حليفه ظاهر .

1- ابن عثمان باشا دمشق، نفسه، ص 104.

2- هو أحمد أغا الد نكزلي، مغربي الأصل من تاهرت، عرف بمهاراته في الحروب، لذا استخدمه ظاهر العمر إلى جانبه مدة 40 سنة، عبود الصباغ ، ص 71.

3- هو الإسم الذي يطلق على متسلم وظيفة أو منصب عال إلى حين وصول المتعين الجديد وكان يسمى أيضا بالوكيل ، كما أطلق أيضا على الأشخاص الذين وجهت إليهم إدارة السناجق و الأقضية التابعة للولاة، سهيل صابان، المرجع السابق ، ص 199، 200.

4- اختلف عبود الصباغ مع فولني في تحديد التاريخ بـــ 24 أكتوبر 1771 وليس 21 أكتوبر، ص 70.

5 - Volney ,op.cit,P 105.

6- يشير فولني إلى أن ظاهر العمر تراوحت سنه ما بين، 85-86 سنة، ص 105.

7 - Volney ,Op.cit., P 105 .

8 - Volney,Opcit, P 106.

9- عبود الصباغ ، المصدر السابق ، ص 72.

إستغل أعداء ظاهر العمر هذا الأمر بأن تحالف حاكم نابلس خليل باشا[1]الدالي[2] مع الدروز بقيادة أحمد باشا الجزار معلنين التمرد على ظاهر العمر الذي تمكن من القضاء عليه نظرا لتعداده الكبير[3]، ثم مضى نحو جنوب يافا أين التقى بعلي بك الذي حمله إلى عكا موفرا له تقاليد الضيافة العربية، ومنها إلى صيدا المحاصرة من قبل قوات عثمان باشا المتحالف مع قبائل الدروز و المقدرة ب 10 آلاف جندي[4].

تجدر الإشارة هنا، إلى أن فولني، لم يشر إلى مشاركة علي بك من عدمها في هذه المواجهة رغم ما عرف عنه من تدقيق في الوصف وتقديم الأرقام و الأعداد- إلا أن عبود الصباغ أشار في كتابه، إلى أن علي بك لم يشارك في الحصار على صيدا بل بقي في عكا بداعي المرض إذ يقول: <<**أما علي بك لم ركب[5] مع ظاهر للحرب لأنه كان وقتها مشوش[6]**>>.

3-6 تحالف ظاهر العمر مع روسيا :أخذت حركة ظاهر العمر أبعادا خطيرة بخروج سياسته من بعدها المحلي كالتحالف مع قبيلة المتاولة و على بك إلى البعد العالمي بأن تحالف مع روسيا، وهو ما اعتبر تطورا كبيرا في حركة تمرد ظاهر العمر وربما سيكون من أبرز أسباب هزيمته الشعبية لاحقا .

أرسلت روسيا أساطيل بحرية عسكرية إلى سواحل عكا[7]، و في هذا الشأن، يشير المؤرخ والدبلوماسي قسطنطين بازيلي[8] أن السفن الروسية، تواجدت لأول مرة على السواحل السورية تحت قيادة الفريق ريزو في أفريل-جوان 1772 م تلبية لطلب علي بك، حيث أرغمت هذه

1- هو خليل باشا الدالي والي كليس ، إنتدبته الدولة العثمانية سنة 1771 لمحاربة المصريين و حماية بلاد الشام، نفس المصدر، ص 73.

2- مصطلح تركي بمعنى الشجاع، لقب أطلق في القرنين 17-18م على الجنود العثمانيين الغير النظاميين الذين يجمعهم الباب العالي من البلقان و يرسلهم في مهمات جريئة، نفسه، ص73.

3- قدرها فولني ما بين 5000-6000 من المتاولة والصفديين، 00 مملوك من قوات علي بك وحوالي1000 من المشاة من قوات المغاربة ، ص 107.

4 - Volney ,op.cit, P107

5- وردت بهذه لصيغة في النص الأصلي، وتعني لم يركب، عبود الصباغ ، ص 75.

6- أي أنه مريض

7 - Volney ,op.cit, P107

8- هو قسطنطين باز يلي، ولد في 03 فيفري 1809م في القسطنطينية من أسرة يونانية غنية، تولى عدة مناصب منها قنصلا لروسيا في يافا عام م1838، توفي في فيفري 1884م، للمزيد أنظر كتابه : سوريا و فلسطين تحت حكم العثمانيين، ص03، 09.

السفن القطع العثمانية على مغادرة ميناء صيدا[1] بعدما قصفت المعسكر العثماني الذي هاجمته في نفس الوقت قوات ظاهر من البر، كانت نتيجته هزيمة الأتراك والإنسحاب بخسائر كبيرة .دعم الأسطول الروسي لم يتوقف عند مدينة صيدا، بل تعداها إلى بيروت التي قصفها ما بين 07 جوان إلى 12 جويلية 1772م، فاستسلمت مع أميرها الجزار[2].

في ظل هذه التطورات الخطيرة، حاولت مرة أخرى الدولة العثمانية استمالة ظاهر العمر إليها واقناعه بضرورة التصالح معها، غير أن الجهود باءت بالفشل لموت السلطان مصطفى الثالث قبل إصداره فرمان العفو لظاهر العمر ، ومع تولي السلطان عبد الحميد [3] الخلافة ، أصدر فرمان العفو لظاهر العمر وأرسل له منديل الشخصي دليل عفو و أمان و كان هذا في شباط 1775[4].

يشير فولني، أن أبناء ظاهر العمر، رفضوا بشدة هذا الصلح، و اعتبروا من العار ألا يرثوا لقب ومكانة والدهم و أن يدفعوا مجددا الضرائب للدولة العثمانية فتفرقوا بأن ذهب علي إلى فلسطين سعيد و أحمد إلى نابلس أما عثمان فلجأ إلى قبيلة صقر البدوية[5].

أمام هذا الإنقسام الذي أحدثه صلح الدولة العثمانية في عائلة ظاهر، تحرك محمد بك أبو الذهب من مصر نحو فلسطين على رأس ستين ألف جندي، تمكن من دخول غزة و منها إلى يافا التي سقطت في يده بعد حصار دام ستة أسابيع، اشترى خلالها ذمم الأغوات المغاربة بأن دفع لهم 14 ألف ريال [6] مقابل تسليم المدينة.

كان لسقوط يافا تأثيرا هاما، بأن فتح الطريق أمام أبو الذهب نحو عكا[7] التي فر منها ظاهر العمر و وزيره إبراهيم الصباغ إلى جبال صفد، غير أنهما سرعان ما رجعا إلى المدينة بعد انسحاب القوات المصرية إثر وفاة قائدها أبو الذهب[8].

1- المصدر نفسه، ص 58.

2- قدرت القيمة المالية التي تم الإنفاق عليها بين قوات ظاهر و الأسطول الروسي ب 600 كيس أي حوالي 300 ألف قرش ، فولني ص 113 ، عبود الصايغ ، ص84 .

3- هو عبد الحميد الأول 1774-1789م ، دام حكمه 15 سنة.

4- عبود الصايغ، المصدر السابق ، ص 93.

5 - Volney, op.cit, P 116.

6- عملة إسبانية، تداولها التجار الإسبان في أراضي الدولة العثمانية و تعين الملك عبود الصباغ ، ص 66.

7- دخلت قوات أبو الذهب عكا في 31/30 مارس 1775، نفس المصدر، ص 100 .

8- توفي بعد دخوله عكا ب 11 يوما، نفسه ، ص 103.

3-7-نهاية ظاهر العمر : سارعت الدولة العثمانية ، أمام انتصارات محمد بك أبو الذهب إلى إرسال أسطول بحري لاستلام المدن المحررة[1]، حيث توجه إلى صيدا و منها إلى عكا التي حاصرها بتاريخ 19 أوت 1775 م مما أجبر أنصار ظاهر العمر الإنقسام على أنفسهم بين قسم مؤيد لاستمرار المقاومة و تزعمه إبراهيم الصايغ، أما القسم الثاني فقد تزعمه الدنكزلي باشا الذي رفض المقاومة ودعا ظاهر العمر إلى ضرورة قبول الشروط بدفع الضرائب الميرية المتأخرة لمدة ست سنوات، غير أن ظاهر و كعادته مال لرأي وزيره، متهما الدنكزلي بالخيانة وهو ما جعل هذا الأخير ينسحب بقواته المغاربة محدثا فراغا كبيرا في جيش ظاهر العمر[2].

بالمقابل، تمكن الأسطول العثماني من قصف أسوار عكا بالمدفعية ، حاول خلالها ظاهر العمر الإنسحاب من المدينة، غير أن تباطؤه[3] كلفه حياته على يد أحد الجنود المغاربة، فسلمت رأسه للباشا الذي أرسلها بدوره إلى السلطان العثماني كغنيمة حرب [4].

بعد مقتل ظاهر العمر، تم تعيين الجزار باشا على عكا و صيدا مع تكليفه بإلقاء القبض على أبناء ظاهر العمر اللاجئين عند قبيلة المتاولة ، فأعدم سعيد أما عثمان و أحمد فتم ترحيلهما إلى قسطنطينية في حين ظل علي متنقلا بين قبائل البدو العربية إلى أن قتل بتدبير من الجزار' أما الدنكزلي فتم تعيينه حاكما على غزة لكنه مات مسموما في طريقه إليها[5] .

3-8-موقف فولني من ظاهر العمر:بدا إعجاب فولني بشخصية ظاهر العمر بشكل بارز، معتبرا فشل حركته نهاية مأساوية لرجل لم تشهد سوريا مثله منذ زمن.

وصفه بالقائد العسكري الذي لا تنقصه لا الشجاعة و لا الحيوية و لا برودة الأعصاب، كما أعجبه فيه ميله للصراحة وابتعاده عن الدسائس و المؤامرات التي ربطها بوزيره المسيحي.

أعجب فولني بسياسة ظاهر العمر القائمة على العدالة الاجتماعية التي حققت الأمن المفقود في كل تركيا[6]، فلم يشكل تنوع الديانات في بلاد الشام أي تهديد لها بل بالعكس، حيث ساهمت

1- بازيلي، المصدر السابق ، ص 66.

2 - Volney ,op.cit,P 119,120.

3- يشير عبود الصباغ إلى أن ظاهر العمر تباطأ لأجل إنقاذ زوجته عيشة و هي جرجية الأصل، ص109 110.

4- بازيلي ، ص 66، عبود الصباغ ، ص 109، 110، 111.

5 - Volney, op.cit, P 125,126.

6 -Ibid, P 121.

سياسة التسامح الديني التي انتهجها في تهدئة الأوضاع و تطوير إقليمه- عكا- ملمحا إلى دور أصوله اليدوية في نجاح هذه السياسة، فالبدو بطبيعتهم بعيدين عن التعصب الديني الأعمى .

أثارت قوة شخصية ظاهر العمر انتباه وإعجاب فولني ، وقد أرجعها إلى بساطة حياته فهو لم يكن يختلف عن المزارع في ثرائه عكس وزيره الصباغ [1] .فلباسه كان عاديا ، و لم يتقلد الجواهر يوما، كان متخلقا ككل البدو فرغم ولعه بالنساء ، كان صارما في احترامه و غيرته على العادات و التقاليد إذ لم يتوان في فرض الحكم بالإعدام على كل مخل بالآداب العامة[2].

أمام كل هذه الصفات، لم يمنع فولني نفسه من التساؤل عن فشل سبب حركته و التي أوردها في :

-غياب التنظيم الداخلي و افتقاره إلى التنظيم الإداري[3].

-توريث أبناءه و هو على قيد الحياة، جعلهم يطمعون في ممتلكاته و يعارضونه في كثير المواقف بل و يتحالفون مع أعداءه[4].

-الدور السلبي لوزيره المسيحي إبراهيم الصباغ الذي يحمله فولني مسؤولية الهزيمة والفشل واستغلاله لثقة ظاهر العمر و ضعفه الناجم عن كبر سنه، حيث يقدم فولني وصفا سيئا لإبراهيم الصباغ مشيرا إلى بخله رغم ثرائه، فهو أشبه إلى الشحاذ منه إلى وزير ظاهر العمر[5].

4-نشاط المدن السورية: تحدثت فولني – كعادته في الجزء الأول- و بإسهاب عن المدن في سوريا خاصة دمشق و حلب، لما لهما من أهمية كبيرة في المجالين الديني و الاقتصادي على التوالي. و ما يلفت الانتباه في هذا الجزء هي لغة الإعجاب و الاستحسان التي ميزت وصف فولني عكس ما كان عليه الحال في وصفه للمدن المصرية.

---

1 Volney, op.cit, P 119,120-

2 - Volney, op.cit,P 120

3 - Ibid, P 122.

4- كتحالف ابنه علي مع محمد بك أبو الذهب في حملته الأخيرة على فلسطين، عبود الصايغ، ص97.

5 - Ibid ,P 123,124.

4-1مدينة دمشـــق [1]: هي عاصمة الإيالة العثمانية الممتدة من حلب شمالا إلى حبرون في الجنوب الشرقي لفلسطين، و هي مقر الباشا[2].

ذكرها فولني باسم الشام[3] الوارد كثيرا في كتابات الرحالة و المؤرخين العرب الذين أبدعوا في وصف جمالها وسحرها[4]، فقد وصفها **ابن جبير** الذي زارها في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي بقوله:"...**إنها قطر ليس بمفرط الكبر وهو مائل للطول فيها نحو أربعين دارا للوضوء يجري الماء فيها كلها، هي جنة المشرق و مطلع حسنه المشرق و هي خاتمة بلاد الإسلام و عروس المدن** " [5].

في حين قال فيها **ابن بطوطة** خلال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي:" **دمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسنا و تتقدمها جمالا، وكل وصف فهو قاصر عن محاسنها، وإن أهلها يتنافسون في عمارة المساجد و الزوايا والمدارس**" [6] ، أما القلقشندي فوصفها بالمدينة حسنة الترتيب، جليلة الأبنية، بها الجوامع ، المدارس ، الزوايا ، الأسواق و الديار الجليلة المهذبة[7]

1- Damascus، مدينة قديمة تعود إلى 3000 سنة ق.م ، قيل بان بانيها هو عازر غلام إبراهيم و كان اسمه دمشقش فسميت باسمه أوهي المدينة التي أسرعوا في بنائها ، فتحها أبو عبيدة بن الجراح عام 635م، و أصبحت فيما بعد عاصمة الأمويين تعرضت للتخريب على يد تيمورلنك عام 1401، بها قبري صلاح الدين الأيوبي و الظاهر بيبرس، سورديل معجم الإسلام التاريخي، تر :أ، الحكيم، الدار اللبنانية للنشر الجامعي، لبنان 2009، ص422.423، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج1، دار الفكر للطباعة و النشر بيروت 1995، ص11، محمد كرد علي، خطط الشام، ج2، المطبعة الحديثة دمشق، 1925، ص20.

2- هي ايالة منذ الفتح العثماني لبلاد الشام على يد السلطان سليم 1517 لقبت بولاية العرب، ضمت 14 أو 17 ألوية و هي دمشق، حلب، حماه، حمص...وظلت هذه الألوية في تغير مستمر إلى أن اقتصرت على 7 في القرن 18 م، فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي ط1، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، 2007، ص160-177-178.

3- سميت بالشام لشامات البلد أي اختلاف أراضيه في ألوان ترابه من أحمر أسود، أبيض و أصفر، أبي البقاء عبد الله ألبدري، نزهة الأنام في محاسن الشام، ط1، دار الرائد العربي، بيروت، 1980، ص11-12-13-14-16

4 -Volney, op.cit., p248.

5- رحلة ابن جبير، ص202.

6- ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار و عجائب الآثار، ج1، ط1، المطبعة الخيرية، ص66 67-68.

7- عادل زيادة، من فنون العمارة الإسلامية، دار الكتاب الحديث، القاهرة 2009، ص17.

بينما أعجب بها الرحالة الجزائري **أحمد المقري التلمساني** [1] أيما إعجاب حين كتب: <<**تذكرت بلادي تلمسان النائية، بذلك المرأى الشامي الذي يبهر رائيه، فما شئت من أنهار ذات انسجام وحدائق تغشى أنوارها الأحداق**"[2] و هو نفس الوصف نسجله عند ياقوت الحموي الذي أشاد بكثرة أنهارها وجريان الماء في قنواتها [3].

تحدث **فولني** عن طبيعة سطحها الحجري بتربته الحمراء [4]، و لكن ليس إلى حد اعتباره عائقا أمام ممارسة النشاط الزراعي، بل عاملا مهما في تنوع محاصيلها من خضر و فواكه[5].

تقع دمشق في سفح فسيح بالجنوب الغربي الأوسط من سوريا، لا تبعد عن الأراضي اللبنانية إلا بحوالي 50 كم، يشرف عليها من الشمال جبل قاسيون [6]، أين تبدأ حدودها من سفوحه إلى الصحراء، غربها و شرقها مفتوح، فهي أرض سهلية جبلية هي هبة نهر بردى[7] كما مصر هي هبة النيل.

وصفها فولني بكثرة مياهها و وفرة ينابيعها، بل أكد على أن كل بيت دمشقي يتمتع بنافورته

1- هو أحمد بن محمد بن أحمد بن يحي أبو العباس المقري التلمساني (992-1041ه/1584-1631م)المؤرخ الأديب و الحافظ، صاحب نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب بأربع مجلدات، ولد و نشأ بقرية المقرة ، إحدى قرى تلمسان انتقل إلى فاس فكان خطيبها و قاضيها، ثم إلى القاهرة فالحجاز فالشام، توفي في مصر و قيل انه توفي في الشام مسموما عند عودته من اسطنبول، الزر كلي، ج1، ص237، المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن 11، محمد بن لخضر فورار، المقري التلمساني و دمشق في كتاباته، مجلة التراث العربي، العدد110 دمشق، 2008، عبد القادر شرشار، كتاب الرحلة في المغرب و المشرق مجلة التراث العربي، العدد98، السنة 25 دمشق، 2005.

2- سميرة أنساعد، مجلة التراث العربي، العدد 97، السنة 24، دمشق، مارس 2005.

3- ياقوت الحموي، ج4، ص1144.

4 - Volney, Ibid., p149.

5- للتفصيل أكثر في محاصيل بلاد الشام عد إلى نعمان قسا طلي، الروض الغناء في دمشق الفيحاء، ط2 دار الراشد العربي 1982، ص10.

6- هو جبل دمشق، علوه عن البحر، 1200م، و عن المدينة 500م، علي الطنطاوي، دمشق، ط2 دار المنارة للنشر و التوزيع، جدة، 1997، ص15.

7- هو نهر يجري من غرب دمشق نحو شرقها، عرف قديما بنهر أبانية، و قيل سماه العرب بردى لبرودة مياهه يفصل دمشق إلى شطرين ، ابن كنان الدمشقي، المواكب الإسلامية ، ص223، عبد الرحمان بك سامي، العمل الحق في بيروت و دمشق دار الرائد العربي، بيروت، لبنان 1981، ص42.45.

الخاصة، لذا فهو يراها أجمل مدن تركيا كلها [1]، رأي يشاطره فيه عديد الرحالة الفرنسيين على غرار **ريتشارد بوكوك** بقوله: **هي مشهورة بحدائقها و هذا يعود لوفرة المياه بها و لا أظن يوجد مثل هذا الجمال في الشرق كله** [2]والرحالة الأب **جوزيف بيسون**[3] حين قال: **دمشق تضم أجمل العوالم في كل سوريا** [4].

1- **السكان في دمشق:** قدرهم فولني بحوالي 80 ألف نسمة[5] من مجموع سكان الايالة كلها والمقدر حسبه دائما ب 120 ألف نسمة[6]، وهو نفس التعداد الذي أشار إليه المؤرخ أندري ريمون أواخر القرن 18م[7] في حين أشارت بعض الكتب إلى 40 ألف ما بين عامي 1770-1771[8]، حيث أكدت معظم الدراسات التاريخية أن حجم مدينة دمشق وتعداد سكانها في نهاية القرن الثامن عشر كان دون تعداد سكان مدينة حلب، المدينة الداخلية الكبرى في بلاد الشام، وربما يعود هذا لكون مدينة حلب مفتوحة على الأجانب خاصة الأوربيين منهم من جهة ولكثرة هجرة أبناء الريف إليها من جهة أخرى[9]، فقد كانت حلب تزيد عن دمشق ب50ألف /ن، إذ وصل تعداد المدينة الأولى إلى 150ألف/ن[10].

أ-**العرب:** السكان الأصليين و يمثلون الأغلبية.يعتبرهم فولني مصدر قلق دائم للدولة العثمانية لكثرة تمرداتهم على الباشوات وهو ما جعل الأتراك يصفونهم بالسيئين، عكس سكان حلب الذي استحقوا صفة الأسياد الصغار.

---

1 - Volney, op.cit., p249.

2 - Richard Bockocke, Description de l'Orient, Tome 3eme, Paris, J.Pcostard p 365.

3 - Joseph Besson, la Syrie et la Terre Sainte au 17eme siècle, Paris, Victor Palmé-Libraire, P4.

4- هو رجل دين قام برحلة إلى فلسطين لزيارة الأماكن المقدسة و لتأدية الحج المسيحي في القرن 17م زار خلال رحلته سوريا و فلسطين، المصدر السابق، المقدمة.

5 -Volney, Op.cit., p249.

6 -Ibid, p336-337.

7- أندري ريمون، المرجع السابق، ص50.

8- ليندا شيلشر، دمشق في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر ، تر، عمرو ودينا الملاح ، مطبعة دار الجمهورية، دمشق 1998 ، ص142.

9- يوسف جمال نعيسة، مجتمع مدينة دمشق ، ج1، ط1، طلاس للنشر والدراسات والترجمة ، 1986 ص86

10- جب وبون ، ج2 ، ص119

يشير فولني في حديثه عن سكان دمشق إلى تعصبهم الديني الشديد مثلهم مثل سكان القاهرة ، و هو ما يعلل كرههم للفرنسيين فلا يسمحون لهم بحرية التجول في المدينة أو ممارسة شعائرهم الدينية، إذ لا يمكن للفرنسي أن يتجول في شوارع دمشق بالزي الأوربي الأمر الذي اعتبره فولني وقاحة منهم[1].

أرجع فولني حدة طباع الشوام هذه إلى سببين رئيسيين أولهما ، أن السكان يعتبرون مدينتهم مقدسة[2] فهي باب الكعبة حتى أن قلعة دمشق التي يقيم بها الباشا تسمى بباب الله لأن بابها يشرف على الطريق المؤدية إلى القدس و مكة ، أما ثانيهما فيعود لكونها منطقة تجمع و عبور قافلة الحج الشامي كل سنة .

شهدت دمشق مع مطلع القرن 18م، بروز نفوذ الأسر المحلية على غرار أسرة آل العظم التي تولت شؤون الولاية باسم السلطان العثماني من بداية القرن 18 إلى مطلع القرن 19م.

المتتبع للتاريخ العثماني خلال هذه الفترة ، يلاحظ أن الدولة العثمانية لم تمانع مطلقا في قيام الأسر المحلية بولاياتها[3]، طالما أنها تحافظ على ولائها و خضوعها لها، و تتمكن من فرض هيمنتها على ولاياتهاو تعمل على توفير الأمن و الإستقرار بالقضاء على حركات التمرد، و تأمين طرق الحج، خاصة مع ضعف المؤسسة السلطانية وهو ما ينطبق على أسرة آل العظم- التي برز نجمها منذ القرن 17م، حينما تحقق لجدهم الأكبر إبراهيم[4] تسلم قيادة موقع عسكري سنة 1650 م في منطقة المعرة شمال حدود دمشق- التي تمكنت طيلة حكمها الممتد ما بين 1725-1800م من إخماد تمرد البدو كما حاربت تمرد الولاة من ظاهر العمر بفلسطين إلى علي بك و أبي الذهب بمصر، كما تمكنت و بامتياز من تأمين طريق الحج إضافة إلى استمراريتها في تأدية الإلتزامات المالية والمشاركة في الحملات السلطانية بقواتها [5].

---

1 - Volney, op.cit, p250, 251

2- فهي مهد المسيح عليه السلام، انطلاقا من قول الله تعالى: " و جعلنا ابن مريم و أمه آية و آويناها إلى ربوة ذات قرار و معين" فالربوة مكان بالغوطة بدمشق استنادا إلى قول الرسول الكريم: " هل تدرون أين هي؟ قالوا: الله و رسوله أعلم، قال هي بالشام، بأرض يقال لها الغوطة بمدينة يقال لها دمشق و هي خير مدائن الشام، ابن الإمام أحمد بن محمد، تحفة الأنام في فضائل دمشق الشام ، دار الكتب المصرية، ص77-78-79

3- على غرار أسرة آل جليلي بالموصل (1726-1834)، للمزيد من التفصيل انظر فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، ص379-381، مونتران، ج1، ص593-597 و أندري ريمون، ص29.

4- ليندا شيلشر، المرجع السابق، ص41.

5- فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، ص151 .

يعتبر إسماعيل باشا أول وال على دمشق من آل العظم ، تسلم الولاية سنة 1725م عقب تمرد كبير قضاة دمشق المفتي خليل البكري ضد الوالي السابق فنجح بسياسته الحكيمة من تحقيق المصالحة مع علماء دمشق بدعمه لهم بل وتزوج من بنت أحدهم فأمكن له بهذه المصاهرة من إحلال الإستقرار في دمشق [1].

أما أهم وال حكم دمشق من هذه الأسرة فكان أسعد باشا [2] والذي يمثل أقوى فترات هذه الأسرة الحاكمة خاصة في مجال العمران حيث اشتهر ببنائه القصر الذي يحمل اسمه.

ب- الأتراك شكلوا عنصر المدينة الثاني، بقيادة الباشا المقيم بالقلعة -و لصعوبة الحكم الذي يضاهي صعوبة الحكم في مصر[3] ساعدته في مهامه، فرقة عسكرية من المغاربة [4] يستعين بها للقضاء على تمرد السكان الذي طالبوا طردوا الباشا أو منعوه من دخول المدينة بعد عودته من إمارة قافلة الحج، و هو ما يفسر ارتفاع عدد ولاة دمشق من خمس و أربعين وال خلال القرن السادس عشر إلى خمس و سبعين وال خلال القرن 17م [5] إضافة إلى فرقة من الإنكشارية بقيادة الأغا يتراوح عدد أفرادها ما بين 600-700 جندي [6]. تميزت العلاقة بين العرب والأتراك بالتوتر، عكسه صراع انكشارية السلطان القابيقول[7] مع الإنكشارية المحلية -البرلية- [8] المدافعة عن مصالح السكان، صراع بدأت ملامحه منذ النصف الثاني من القرن 17م، لكن آثاره السلبية

1- ليندا شيلشر، المرجع السابق، ص44-45 .

2- أعظم باشوا ت أل العظم ، هو اسعد بن إسماعيل بن الأمير إبراهيم ببك /ولد عام 1701م ، درس العلوم و اللغات على عادات عصره دامت ولاية حكمه 14سنة ، وصف بحبه للمال ، اذ خلف ورائه ثروة قدرت ب 330الف ليرة انجليزية كما اشتهرت فترة حكمه بازدهار العمران خاصة ببنائه قصر العظم الذي استغرق بناؤه3سنوات، عبود الصباغ ص40 أندري ريمون ، ص 28 ، ليندا شيشلر ، ص45.

3 - Richard Bockocke, op.cit., p366

4- هم من القوات النظامية يتشكلون من الجنود المشاة، كان يعتمد عليهم الأتراك في المعارك، سميوا بهذا الاسم نسبة إلى المغرب الذي يضم طرابلس، تونس، الجزائر و مراكش، يعود وجودهم في بلاد الشام إلى ما قبل الفتح العثماني، نعمان قسا طلي، المصدر السابق، ص57.

5- روبير مونتران، ص531.

6- أندري ريمون، ص56، Richard bockocke ,op.cit ,p 366

7- أو عبيد السلطان

8- هي قوات من العناصر المحلية وصل عددها في 1770-1771 إلى حوالي 2000 جندي محلي، ليندا شيلشر، ص142.

شملت دمشق طيلة النصف الأول من القرن 18م خاصة في عهد أسعد باشا باندلاع الإشتباكات بين الطرفين لاسيما من قبل القابيقول الذين رأوا في البرلية ثوارا متمردين حملوهم مسؤولية كل الفوضى الحاصلة بالمدينة، و لم ينته هذا الصراع إلا في عهد والي دمشق الجديد عبد الله باشا الذي تمكن من إخضاع البرلية و معهم تمكن من إخضاع سكان دمشق عام 1757 [1].

ج- **أهل الذمة** [2] ثالث عنصر في بنية المجتمع الدمشقي ، تشكل من النصارى و اليهود، تمتعوا بحماية السلطان مباشرة على اعتبارهم من أهل الكتاب، فكثيرا ما كان ينادى في دمشق على لسان السلطان بأنه من ظلم من اليهود أو النصارى فعليه بالأبواب الشريفة، كما طلب أخذ الجزية[3] منهم بالمعروف و من دون إجحاف [4].

استقر أهل الذمة شرق دمشق، و هذا ما يوضح عدم توسع المدينة خلال القرن 18م في هذا الاتجاه عكس ما حصل للجهة الشمالية الشرقية، الغربية و الجنوبية الغربية [5].

تميز أهل الذمة في دمشق بسوء أخلاقهم حيث أصبح المسيحيون مسيحيين بالاسم فقط، فكثيرا منهم من دخل الإسلام أو تظاهر بذلك نكاية في مسيحي آخر لعداوة معه [6]، و هو نفس الأمر الذي أكده فولني حينما أبدى استغرابه من رجل دين حاوره بالقدس عن سبب رهبنته فأجابه بأن الرهبنة هي الطريقة الوحيدة التي تمكنه من جمع الأموال و من عدم دفع الضرائب الباهظة للسلطة المحلية [7].

يرتبط تواجد المسيحيين في بلاد الشام بأسباب دينية بحتة، وهي تواجد الأماكن المقدسة لذا أعدادهم كانت كبيرة من قبل الوجود العثماني ليتعزز من بعده ، عكستها مكانتهم الاقتصادية في المدينة، قدر فولني عددهم بحوالي 15 ألف نسمة يتمركزون شرق المدينة إلى جانب اليهود

1- أندري ريمون، ص59.

2- هم من اليهود و النصارى أو من أهل الكتاب.

3- هي مبلغ من المال، يقدمه أهل الذمة للدولة العثمانية مقابل الحماية و الإعفاء من الخدمة العسكرية يوسف نعيسة يهود دمشق، ط1، دار المعرفة، دمشق، 1988، ص6.

4- عادل زيادة، المرجع السابق، ص52

5- أندري ريمون، المرجع السابق، ص59، 60.

6 -Richard Bockocke, op.cit., p368

7 -Volney, op.cit., p327-328-329..

المتواجدين في بلاد الشام منذ سنة 1492، هروبا من الأندلس بعد سقوطها[1].

أطلق على يهود اسبانيا الفارين إلى بلاد الشام لقب السفا رديم ، وقد برز تأثيرهم المباشر على اقتصاد المنطقة بتحكمهم في مجال التجارة و الصيرفة على غرار أسرة فارحي الأندلسية التي هاجر أفرادها إلى الأناضول في القرن الخامس عشر ومنها إلى دمشق.نالت هذه الأسرة شهرة واسعة في بلاد الشام، نتيجة تعاقب أفرادها على أمور الصيرفة و الشؤون المالية وإدارة الخزينة في ولايتي دمشق وصيدا بدءا من عهد ظاهر العمر.

أول من برز من أفرادها شحاتة فارحي الذي كان صرافا ذا نفوذ كبير وخلفه ولداه رافاييل وجوزيف ، أما ابنه الثالث حاييم فقد استدعاه والي دمشق وصيدا أحمد باشا الجزار إلى مقره في عكا نحو1790م وأوكل إليه أمر الصيرفة إلى سنة 1804 م.وقد تعدى نفوذ هذه الأسرة إلى المجال السياسي بدورها في تعيين والي صيدا لعام 1818م[2].

2 – قافلة الحج الشامي:

أولى سلاطين الدولة العثمانية اهتماما بالغا بقوافل الحج [3] وذلك من خلال إشرافهم المباشر والفعلي عليها، أكدته مجموع الأحكام الواردة من السلطان العثماني نحو حكام ولاية الشام سنة 1545م والتي اعتبرت حفظ وسلامة الحجاج من المحروسة دمشق إلى كعبة الله أمرا مهما ولازما [4]، لاسيما و أن سلطان الدولة العثمانية و منذ دخول سليم الأول إلى الشام عام 1516م تلقب بحامي الحرمين الشريفين و خادمهما، إضافة لما يعتبره واجبا على عاتقه في تسيير الحج أمام الراغبين فيه باعتباره ركنا من أركان الإسلام الخمسة.

1- لمزيد من المعلومات عد إلى: فتحي زغروت، العثمانيون و محاولات إنقاذ الأندلس، ط1، دار التوزيع و النشر، 2011، القاهرة.

2- يوسف نعيسة ، يهود دمشق ، ص18.

3- قوافل الحج في العهد العثماني ثلاث رئيسية، فبالإضافة إلى قافلة الحج الشامي، وجدت قافلة الحج المصري المنطلقة من القاهرة و قافلة الحج اليمني التي أوجدت عام 1556 لكنها ألغيت عام 1635 عند استقلال اليمن عن الدولة العثمانية عبد الكريم وافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، دمشق، ص193، و للتفصيل في ركب الحج المصري انظر حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص222-223 .

4- هو حكم صادر عن السلطان العثماني سليمان القانوني إلى بكلربكي الشام في 18 شوال 951ه الموافق ل 2 جانفي 1545 تضمنت ضرورة توفير الأمن و الأمان في طريق الحج بدءا من دمشق حتى الحرمين أو العكس أنظر الملاحق فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، النصف الأول من القرن 16، المجلد 1، مركز الأبحاث للتاريخ و الفنون والثقافة الإسلامية باسطنبول، 2010، ص112.

حولت قافلة الحج الشامي مدينة دمشق إلى منطقة التقاء كل المسلمين على اختلاف أجناسهم، فشبهها فولني بالمعرض الكبير الذي يضم مسلمي نواحي تركيا كلها بل و حتى من بلاد فارس[1]، فمثلما القاهرة ملتقى لحجاج إفريقيا هي دمشق كذلك بالنسبة لحجاج أسيا[2].

اختلفت الإحصائيات في تحديد تعداد قافلة الحج التي حصرها فولني ما بين ثلاثين ألف وخمسين ألف في الحالة العادية بينما وصلت عام 1757م إلى ستين ألف [3] حاج من الشوام الحلبيين والأتراك الذين يصلون دمشق حتى قبل خمسة أشهر من موعد انطلاق الحافلة المحدد عادة ما بين اثنا عشر و عشرين من شهر شوال بقيادة أمير الحج أو والي دمشق عادة[4].

تسلك قافلة الحج الشامي من دمشق نحو الحجاز ما يسمى بالطريق السلطاني [5] الذي يبدأ من بوابةدمشق وبالتحديد من عتبة الحاج خارج منطقة باب الله نحو منطقة المز يريب ومنها إلى حوران [6] فمعان [7] بوابة الصحراء جنوبا، و هذا بعد احتفال كبير ينظمه قائد الجيش و بعد أن يحمل فيه أمير الحج المحمل و السنجق. انطلاقة وصفتها الكتابات التاريخية " بالعظيمة و الحافلة" [8] حيث ترافق أمير الحج في خروجه قوات كثيرة من الفرسان و المشاة و رد ذكرها في جملة الأحكام السلطانية الصادرة عن سلاطين الدولة العثمانية خلال القرن 16م و التي أكدت في

---

1 - Volney, Op.cit , p251.

2 - Ibid. p251.

3- فولني، ص251، محمد كرد علي، خطط الشام، الجزء 5، مطبعة الترقي، دمشق 1967، ص 184.

4- عينت الدولة العثمانية منذ بداية انطلاق قافلة الحج أمراء السناجق التابعة لولاية الشام (ولاية العرب) كغزة، عجلون نابلس وصفد كأمراء للحج لضمان سيره في أحسن الظروف اعتمادا على هؤلاء الأمراء المحليين لما تمتعوا به من نفوذ محلي وسلطة خاصة عند البدو، و لكن منذ 1708 م أصبح أمير الحج هو والي دمشق و هو ما عززمن طول فترة حكم ولاة هذه المدينة كولاة آل العظم الذين أمنوا سلامة القافلة و حكموا بذلك 60 سنة و استمر ولاة دمشق هم أمراء للحج إلى سنة 1866 م تاريخ فصل المنصبين حيث استحدث منصب محافظ الحج- الباش بوزوق- إلى سنة 1916 تاريخ توقف الحافلة .عبد الكريم رافق، ص197-198.

5- هو طريق قافلة الحج الرسمي إلى جانب ست طرق أخرى رئيسية و هي طريق مصر، عدن، بغداد، البصرة الاحساء، عمان، مجلة حراء، العدد 2، من دون صفحة .

6- تقع جنوبي دمشق، تبعد عنها بحوالي 103 كم، و هي مدينة في طرق بادية الشام اتجاه الحجاز ،ابن طولون، المصدر السابق ص13، عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص198.

7- منطقة جنوب دمشق إلى جوار هضبة الجولان، ظلت محافظة على إستراتيجية موقعها كنقطة عبور هامة من سوريا إلى الأردن، العراق فالسعودية، معجم الإسلام التاريخي، ص374

8- ابن طولون الصالحي، المصدر السابق، ص412-413، رافق عبد الكريم، المرجع السابق، ص204.

مجملها على ضرورة توجيه فرسان السبايهية الإنكشارية لخدمة قافلة الحج، كما أشار المؤرخ ابن طولونإلى مرافقة كل من شيخي المذهب الحنفي و الحنبلي لهذا الموكب [1].

اكتسبت قافلة الحج الشامي مكانة هامة، لذا سعى سلاطين الدولة العثمانية و منذ عام 1517 [2] إلى توفير الأمن و ضمان سلامة الحجاج و هذا بتأمين مرورها من خلال توفير الأموال، شق الطرق، إقامة الحصون وحفر الآبار مع بناء الخانات [3] على طول طريق الحج[4].

واجهت قافلة الحج مخاطر شتى، فبالإضافة إلى قساوة الظروف الطبيعية من طول الطريق [5] وصعوبة تضاريسه و تقلبات المناخ (السيول و الجفاف) كانت معرضة إلى هجمات البدو التي عمل سلاطين الدولة العثمانية على استمالة مشايخهم إليهم بالمنح و العطايا، فقافلة الحج لم تكن مؤمنة إلا بجوار بلدة المز يريب بحوران [6] و هو ما يلمح إليه فولني عند إشارته إلى طريقة تأمين القافلة حيث يقول : <<**و بما أن هذه القافلة تمر عبر أراضي عديد القبائل المستقلة عن الدولة العثمانية، كان لزاما على هذه الأخيرة أن تعقد اتفاقيات مع شيوخ البدو من أجل حق المرور و اتخاذهم كدليل للقافلة و هو الأمر الذي يحدث عادة صراعا بين شيوخ هذه القبائل و هو ما**

1- شمس الدين محمد بن علي بن احمد بن طولون الصالحي (880-953ه) الدمشقي الحنفي ولد بالصالحية على سفح جبل قاسيون بدمشق، ترجم لنفسه ترجمة وافية سماها الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون، تعددت علومه الغزيرة إلى أكثر 38 علما أوردها في كتابه اللؤلؤ المنظوم ترك حوالي 750 مؤلفا، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان المقدمة ص413.

2- أشار رافق عبد الكريم إلى توقف قافلة الحج الشامي لسنتين بعد الفتح العثماني و هذا لتردي الأوضاع الأمنية نتيجة تبدل السلطة الحاكمة، ص7.

3- بناء ظهر في البلاد الإسلامية منذ عهد المماليك و استمر في العهد العثماني يتألف من طابقين، الأرضي يخصص للبضائع و الدكاكين و مكاتب التجار و العلوي يترل فيه التجار الأجانب فيكون بمثابة ما يطلق عليه اليوم بالفندق، بينما حدد البعض باللفظ الفارسي الدال على البيت أو المترل فالخانوت هو مترل التاجر، و الفندق هو مترل المسافر و كانت تعرف الخانات التجارية باسم الوكالة في مصر و القيسارية في الشام، الممالك الإسلامية، ص 224.

4- الصفصافي احمد القطوري، قوافل الحج في العصر العثماني، مجلة حراء، تاريخ و حضارة، العدد جانفي-مارس 2006، من دون صفحة.

5- قدرت المسافة بين دمشق و مكة ب 490 ساعة، موزعة على 40 مرحلة منها 90 ساعة من المز يريب إلى حوران، كرد علي، الجزء5 ، ص186.

6- المصدر نفسه ، ص185.

يستغله الباشا العثماني لصالحه>> [1] وعادة ما تكلف قبائل حوران جنوب دمشق بهذه المهمة حيث يرسل الباشا لشيخ القبيلة المعين كمية من الأسلحة، خيمة و علم للدلالة على اختياره دليلا للحافلة [2].

إذن، لم تكن المخاوف المتعلقة بإمدادات الغذاء و الماء للحجاج السبب الوحيد الذي جعل السلاطين العثمانيين يجدون ضرورة لإرسال مبالغ كبيرة من المال إلى الحجاج كل عام، إلى جانب عدة سفن محملة بالحبوب، فقد كانت قوات البدو مسئولة أيضا على أمن الطرق الصحراوية وكان يعني هذا قبل كل شيء أن يمتنعوا هم أنفسهم عن مهاجمة الحجاج كما كان لزاما عليهم الدفاع عنها إذا قام طرف آخر بمهاجمتها بل أكثر من هذا كان لزاما عليهم -بحكم العطايا التي كانوا يتلقونها و التي تجعلهم تابعين للسلطان العثماني و يدينون بالولاء له[3] — توفير حاجيات القافلة خاصة من الجمال لنقل حمولتها [4].

غير أن هذه الترتيبات لم تشكل ضمانة كافية للحجاج و أمنهم، لذا تواجدت فرق الحجاج المغاربة المسلحة مع قوة من المسلمين ترافق أمير الحج مشكلة من الإنكشاريين، إضافة إلى أن القافلة كانت تحمل مدافع صغيرة يمكن نقلها على ظهور الجمال و كانت تكفي عادة لتوفير الحماية اللازمة لمواقع الخيام [5].

لا يمكن الحديث عن قافلة الحج الشامي، دون ذكر أهميتها التي مست مختلف المجالات، على الأقل تجاريا كما يرى فولني حيث يقول: **<< فلا تظنوا أن هذه المرحلة فقط من أجل التعب والمصاريف فحسب بل على العكس، لها أهمية تجارية كبيرة>>** [6].

1- يخرج الباشا و فرقته من الانكشارية المتكونة من 600-700 جندي حوالي 3-4 شهور قبل الحج لجمع الضرائب و نشر الذعر و محاولة تأمين الطرق

Loarty Hadj, la Syrie, la Palestine et la Judée, pèlerinage à Jérusalem et aux lieux sains, 16 Edition, chez ballé-la salle Editeur, Paris, 1854, p136

2 -Volney, op.cit p251, 252.

3- ثريا فاروقي، المرجع السابق، ص164..

4 - Volney, op.cit, p252

5- ثريا فاروقي، المرجع السابق، ص 165 .

6 -Volney, op.cit,t2, p252-253

فقافلة الحج محمية و الضرائب لا وجود لها إذ أن احترام الدولة العثمانية لشعيرة الحج جعلها تعفي الحجاج حتى من تفتيش حمولاتهم ، ولم يكن يعني هذا الأمر حجاج الشام بل حتى الحجاج المغاربة[1].

هكذا كان يحمل الحجاج معهم، إلى جانب مؤنهم الغذائية بضائع لا حصر لها ، ينقلونها من دمشق إلى الحجاز ويحملون بالمقابل عند عودتهم بضائع تلك المناطق أو بضائع الهند كالتوابل واللؤلؤ و الحرير و البن اليمني بيعا أو مقايضة .

مبادلات يصعب تحديد قيمتها المالية بدقة ، لكنها ساعدت على الأقل في تنشيط اقتصاد مدينة دمشق ورخائه[2] كما ساهمت في تطوير عمرانها الحضري ، إذ توسعت المدينة نحو الجنوب على طول مسافة تزيد عن الكيلومترين[3].

4-2 مدينة حلب: تكشف أوضاع الولايات العربية في القرن الثامن عشر عن تنوع كبير يتراوح بين التبعية الكاملة للسلطة العثمانية و بين الحكم الذاتي الذي يقترب من الإنفصال [4].

بقيت سلطة الباب العالي في ايالة حلب [5]، على حالها منذ الفتح العثماني لبلاد الشام عام 1517م وهذا لأسباب عديدة أهمها، قرب هذه الولاية من مركز السلطة العثمانية، فهي منطقة وسطية واقعة على التخوم الفاصلة بين العالمين العربي و التركي [6]، و موقعها الإستراتيجي الذي يشرف

1- عبد الكريم رافق ، بحوث في التاريخ الإقتصادي و الإجتماعي لبلاد الشام ، ص 21، 22

2- ليلى صباغ ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1983، ص89 .

3- مهند أحمد مبيضين ، مظاهر من الحياة الإقتصادية في دمشق وجوارها خلال القرن 18 م، مجلة المنارة المجلد 14 العدد2 ، 2008 ، ص 53، 54، 55

4- مثل ايالة الجزائر التي أصبحت تتمتع باستقلالها الذاتي منذ 1671م، روبير مونتران، المرجع السابق ص618-621.

5- تمتد ايالة حلب من نهر الفرات شرقا إلى المتوسط غربا بين خطي الإسكندرونة في الجبال و بلبيس في البحر تتشكل من سهلين: أنطاكية في الغرب و سهل حلب في الشرق، ظلت تابعة لايالة الشام حتى عام 1549 تاريخ تحولها إلى مركز الايالة مستقلة حملت اسمها أي ايالة حلب و هو إجراء اتخذه السلطان سليمان القانوني للحد من الاضطرابات التي كان يقوم بها البدو، تشكلت من تسع ألوية بداية ليتقلص عددها في القرن 18 م إلى سبعة و هي: حلب، المعرة بلبيس، العزيز، جبلة المتخ و كليس، فولني، ج2 ص128، فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، ط1 مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 2007، ص182-183.

6- ادهم الدم، دانيال غوفمان، بروس ماسترز، المدينة العثمانية بين الشرق و الغرب حلب أزمير ، تعريب رلى ذبيان اسطنبول ، ط1، الرياض، 2004، ص59.

على مواصلات الإمبراطورية مع كل من العراق، بلاد فارس، سوريا، مصر و بلاد الحجاز [1].
و انطلاقا من هذا ، لم يكن بمقدور الباب العالي السماح بقيام سلطة مستقلة في حلب، الأمر الذي لا يعني سيادة الهدوء خلال هذه الفترة في هذه المدينة الكبيرة [2] التي ستشهد مع أواخر القرن الثامن عشر و بداية القرن التاسع عشر نزاعا كبيرا بين الأشراف [3] و الإنكشارية- كاد أن يؤدي إلى حرب أهلية- صراع استغله الباشاوات في تعزيز سلطاتهم.

تقع مدينة حلب [4] شمال سوريا و هي عاصمة الإيالة و مقر الباشا، تقع في الهضبة الفاصلة بين نهري العاصي و الفرات و تتشابك في الوسط مع الصحراء.

تتميز بالإضافة إلى إستراتيجية الموقع [5]، بتربتها الخصبة و أوديتها التي لا تجف فهي المسئولة عن اخضرارها الدائم، وصفها فولني بأنها أجمل مدن سوريا بل و الأنقى و الأحسن في كل مدن تركيا كلها لنصاعة بياض صوامع مساجدها الذي يكسر سواد الهضبة التي تقع عليها.

تضم المدينة القلعة القديمة بأسوارها الهشة التي لا تتعدى ارتفاعها حسب فولني التسع (09)

1- فاضل بيات، المرجع السابق، ص188.

2- نشير هنا إلى تمرد أهل حلب عام 1566م ضد الباشا الجديد المعين (أحمد باشا)، باشا مدينة قونية سابقا الذي سبقته سمعته المفزعة فرفض السكان استقباله و اضطر لمحاصرة المدينة شهرين و نصف و في النهاية تم تعيين حاكم آخر، أندري ريمون، ص29، روبير مونتران، ج1، ص272

3- هي عائلات يعود نسبها إلى الرسول عليه الصلاة و السلام، و احتراما لنسبهم الشريف منحتهم الدولة العثمانية امتيازات بأن أعفتهم من دفع الضرائب، انتظموا في هيئة ترأسها نقيب الأشراف اختلف في تحديد عددهم بحلب ما بين 10 ألاف، 12 ألف أو 3 ألاف أو 4 ألاف نسمة، توزعوا على جميع طبقات السكان و الحرف، قاموا بدور الموازنة في مواجهة قوات الانكشارية، لذا دخلوا في صراع معهم تحول إلى معارك دموية ما بين 1769-1770 م لتتوالى في بدايات القرن 19 منتهية بضعف الأشراف جب و بون المجتمع الإسلامي و الغرب، ج2، ص30-31، أندري ريمون ص68، روبير مونتران، ج1 ص570-572، فاضل بيات، ها، ص130، دانيال غوفمان، ادهم ألدم ص155-157-156.

4- شيدت مدينة حلب على سبع (07) ربوات في وطأة من الأرض ، في مكان توفرت فيه كل شروط المدن العامرة من خصوبة التربة، سعة المكان و اتصال الطريق بين مواقع البلدان و العمران و القوافل و مسالك الفاتحين، ابن الحنبلي (رضي الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف الحلبي 908-971ه)، تحقيق محمد الفاخوري و يحي زكرياء، دار الحب في تاريخ أعيان حلب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1972، ص2م، 3م.

5 -Volney, op.cit, p136-138

أمتار، تضم داخلها حوالي 350 انكشاري [1]، بينما أطراف المدينة تحيط بها صخور مربعة الشكل مشكلة أسوارا لا تصل إلى مستوى التحصينات [2].

شهدت مدينة حلب عدة تغييرات عمرانية بتوسع حدودها الشرقية و الشمالية بل و حتى في وسطها و هذا لتزايد عدد السكان كما سيرد لاحقا- الذي تضاعف معه نشاطهم الاقتصادي داخل المدينة و عند أطرافها على غرار صناعة النسيج و المصابغ التي أقيمت حول بيوت الحرفيين والصناع أو المساهمة في حركة القوافل التجارية التي حولت المنطقة الشمالية الشرقية من منطقة ريفية بدوية إلى مركز تجاري.

على هذا الأساس توسعت المدينة باتجاه الشرق، غير أنه و حسب فولني توسع غير مدروس لما صاحبه من انعدام للتهيئة العمرانية كضيق للشوارع و غياب تام للنظافة [3].

أ-السكان في حلب: قدر فولني سكان حلب بأقل من 100 ألف نسمة رغم أنه وصفها بالمدينة التي لا تضاهي كثافتها إلا اسطنبول [4] أو القاهرة [5] و اعتبر أي عدد غير هذا مبالغ فيه مستندا في حكمه إلى ملاحظاته القائمة أساسا على طبيعة منازل حلب التي لا تتعدد طوابقها، و على مقارنته لمساحة ذات المدينة مع كل من نانت أو مرسيليا الفرنسيتين.

غير أن هذا يطرح الكثير من التساؤل حول حكم فولني، خاصة إذا عرفنا أن أندري ريمون قدم تطورا إحصائيا لسكان المدينة ذاتها، اذ ارتفع تعدادهم من 80 ألف نسمة عام 1517م إلى 115 ألف نسمة عام 1683م إلى 120 ألف نسمة أواخر القرن الثامن عشر [6] بالإضافة إلى عدم صحة المقارنة بين مدنيتين غير متعادلتين كحلب و نانت من حيث عادات و تقاليد السكان التي تحكمها المعتقدات الدينية المختلفة ، و لا حتى من حيث إستراتيجية الموقع الذي منح حلب

---

1 - Martineau, op.cit., p95.

2- و ليس باتجاه الغرب بسبب عقبة مجرى نهر القويق الذي يمر بالسور الغربي من المدينة و فيضاناته تعرض المنطقة للأخطار كما لم تتوسع باتجاه الجنوب لوجود المدافن هناك، أندري ريمون، ص158.

3 - Volney, op.cit., p138, Martineau, op.cit , p95.

4- اسم تركي لبيزنطة قديما ثم للقسطنطينية، اسم قديم حتى قبل الفتح العثماني، مأخوذ من اليونانية ، فتحها العثمانيون على يد السلطان محمد الفاتح 29 ماي 1453، معجم الإسلام التاريخي، ص96-97.

5 - Volney, op.cit., p136 , Paul Masson, op.cit., p 522.

6- و هذا انطلاقا من إحصائيات الفارس دارفيو، أندري ريمون، المرجع السابق، ص46.

رفاهية اقتصادية كان من المنطقي أن تؤثر إيجابا على واقع السكان و كثافتهم [1] دون إغفال تغير طبيعة مساكن حلب التي أصبحت أقل اتساعا مما كانت عليه مع بروز نوع أخر منها و هو المساكن الأسرية التي نما عددها من ستين مسكنا عام 1570 م إلى 477 مسكنا عام 1683 م [2] ناهيك عن بروز مناطق سكنية جديدة وسط المدينة حيث تم نقل المدابغ منه إلى الأطراف [3] وهو ما يوحي بتجاوز عدد السكان 100 ألف نسمة [4] أو يساويه [5].

ب-التجارة في حلب: رغم اعتبارها مفتاح سوريا من جهة الشمال، و هو ما يؤهلها إلى احتلال مكانة عسكرية هامة في الدولة العثمانية، إلا أن فولني لا يعتبرها كذلك بل يؤكد على دورها التجاري الذي ما فتئ يتضاعف منذ توسع حدود الإمبراطورية نحو الشرق [6].

و مهما قيل عن انكماش دور المدينة [7] لاسيما أواخر القرن السابع عشر نتيجة خطورة الصراع الصفوي – العثماني [8]، إلا أنها ظلت أهم المحطات التجارية التي اعتمدت عليها الدول الأوربية في تجارتها و بسط نفوذها في المشرق العربي، فهي تقوم في أفضل بقعة لا للتاجر فحسب بل للسائح أيضا، إذ تقع بين خمس موانٍ على المتوسط [9] و تتحكم بمدخل نهر الفرات، و على الطريق الطبيعية لبغداد و الخليج العربي و الهند و قبل أن تتركز فيها الجاليات الأوربية، فانه طرقها

1- روبير مونتران، المرجع السابق، ص561.

2- أندري ريمون، المرجع السابق، ص48

3- تم نقل المدابغ بموجب فرمان سلطاني عام 1570، أندري ريمون، ص97-98، مونتران، ج1 ص528.

4- قدره مارتينو ب 125 ألف نسمة، ص93.

5- أورد Loarty Hadj أن عدد سكان حلب هو 100 ألف نسمة ، المصدر السابق، ص116.

6 -Volney, op.cit., p138

7- بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الذي ربط مباشرة الهند بأوربا، حسين عصمت المدرس، أوليفيه سالمون العلاقات ما بين هولندا و سوريا العثمانية في القرن 17م، ط1، دار شعاع للنشر و العلوم، حلب، سوريا، 2008 ص85.

8- خاصة في عهد الشاه عباس (1589-1628) أين تحولت المدينة إلى مركز عبور الجيوش العثمانية و محطة يعسكر فيها السلطان إذا كان مرافقا لها و هو ما يزعج حركة القوافل، بالإضافة إلى عدم وصول حرير فارس إليها كإستراتيجية من الشاه لإضعاف منافسه اقتصاديا والمتاجرة به مباشرة مع أوربا و روسيا، ليلى صباغ، الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين 16و17م، ج1، ط1، مؤسسة الرسالة بيروت ، 1989، ص310 دانيال غوفمان، ص104-106، فاضل بيات، ص185.

9- منها ، الإسكندرية ، بيروت ، الإسكندرونة .

الإسكندرونة، اللاذقية طرابلس، عكا، صيدا و رام الله مع وجود أسبقية زمنية لقنصلية البندقية منذ العام 1548م و منافسة بريطانية ابتداء من1583م، مع امتلاكها لرصيفين تجاريين بالإضافة إلى هولندا برصيف تجاري واحد منذ 1613 م[1].

إذا كانت فرنسا قد فرضت هيمنتها التجارية في مدينة حلب خلال هذه الفترة، فالحال لم يكن ذاته خلال القرن السادس عشر، أين فرضت البندقية سيطرتها على المنطقة منذ عهد المماليك وإلى غاية النصف الأول من القرن ذاته لاسيما و أن السلطان سليم الأول أكد مع الفتح العثماني لبلاد الشام امتيازاتهم السابقة إلا أن هذه الأفضلية بدأت تتراجع في النصف الثاني من القرن نفسه لتضطر البندقية بعدها إلى إلغاء قنصليتها في حلب عام 1675 م و هذا نتيجة عدة عوامل أهمها:

1- حروب البندقية مع الدولة العثمانية سنة 1570 و التي كلفتها أموالا طائلة و خسائر تجارية فادحة.

2- منافسة المنتجات البريطانية و الهولندية و الفرنسية لمنتجات البندقية سعرا و نوعية.

3- اشتداد عمليات القرصنة البحرية ضد مراكبها في بحر الأدرياتيكي [2].

الأمر الذي استغلته فرنسا لصالحها-باعتبارها أول دولة منافسة لها منذ حصولها على امتيازات 1535م، بتواجد عدد كبير لجالياتها في كل الإسكالات السورية و قنصل في طرابلس منذ 1538م، غير أن هذا البروز الفرنسي سرعان ما انكمش لبداية فتور العلاقات الفرنسية-العثمانية[3] بسبب المساعدة السرية التي قدمتها فرنسا لاسبانيا و البندقية في معركة لبيانتو 1571 م[4] ضد الدولة العثمانية.

ظلت مكانة فرنسا هذه متراوحة بين المد و الجزر طيلة القرن السابع عشر و مطلع القرن الثامن

1- فتحت هولندا أول قنصلية لها بحلب عام 1613، حيث كانت قبل هذا التاريخ مجبرة على الإبحار تحت حماية فرنسية أو بريطانية، حسين عصمت المدرس، المرجع السابق ، ص30.

2- ليلى صباغ، ص208، 491، 495، 496، ثريا فاروقي، المرجع السابق، ص242، 243، 244-245، 246.

3- ليلى صباغ، المرجع السابق، ص496.

4- هي معركة بحرية وقعت في أكتوبر 1571 بين الأسطول العثماني و نظيريه من اسبانيا و البندقية انهزمت فيها القوة العثمانية مع تدمير شبه كامل للأسطول جرت هذه المعركة في عرض البحر قبالة المدينة ليبانتو بالايطالية و نوباكتوس باليونانية، و عين بختي بالتركية، معجم الإسلام التاريخي، ص381.

عشر [1] لتبسط هيمنتها التجارية بعد توقيعها مع الدولة العثمانية لمعاهدة 1740 [2].

معاهدة جعلت من فرنسا " **الأمة الأكثر رعاية**" في نظر الدولة العثمانية [3] اكتسب الفرنسيون بموجبها حق دفع نسبة 3% كرسوم جمركية على السلع و هي أخفض نسبة يمكن تطبيقها على الأجانب [4]. و ظلت فرنسا منذ هذا التاريخ تمثل الشريك التجاري رقم واحد للدولة العثمانية في كل أساكل الشام إلى غاية ثمانينات القرن الثامن عشر [5].

كل هذا الكلام لا يمكن معه إغفال دور بريطانيا المنافس في المنطقة منذ عام 1581 م تاريخ إنشاء شركة الليفانت [6] و التي احتكرت التجارة مع الشرق ليظل ازدهارها قائما بتحقيق أرباح وصلت إلى 300 بالمائة خاصة بعد 1592 و لمدة أربعين سنة أي حين اندلاع الثورة الداخلية في بريطانيا و اندلاع الثورة ضد هولندا عام 1653 كما ساهمت المنافسة التجارية والعداوة السياسية الفرنسية في إضعاف هذه الشركة [7].

في أواخر القرن 17م، كان الفرنسيون الأكثر غنى و عددا في كل بلاد الشام، و مع ذلك ظل الانجليز منافسين خطرين لهم لاسيما في حلب و الإسكندرون بل أن الانجليز حافظوا على أولويتهم في حلب حتى بعد 1720م، ولم يفقدوا مكانتهم فيها إلا في النصف الثاني من القرن ذاته [8].

1- ليلى صباغ، المرجع السابق، ص499-504.507، ثريا فاروقي، ص248، 254.

2 - La Reforme Judicaire en Egypte et les capitulations, op.cit., p15-16.

3- خليل أينا لجيك و دونا لد كواترت، التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي للدولة العثمانية، تر قاسم عبده قاسم، ، ج2 ط2، دار المدار الإسلامي، 2007، ص452-453 و ، Le comte de saint Priest, op.cit., p312...315.

4- تشير ليلى صباغ إلى أن هذا الامتياز سبق و أن تحصلت عليه بريطانيا نهاية القرن 16، المرجع السابق، ها، ص184.

5 - Paul Masson, op.cit., p520

6- تأسست هذه الشركة في 11 سبتمبر 1581 بموجب مرسوم ملكي، احتكرت التجارة مع الشرق، تجاوز عدد تجارها 300 تاجر مع اشتراط العضوية فيها بأقدمية 7 سنين للممارسة التجارية و دفع رسم الدخول ب 25 جنيه للتاجر الأكبر من 25 سنة و 50 جنيه إذا كان دون هذا السن، احتكارها للتجارة لم يكن فقط مع بلاد الشام بل في كل موانئ المتوسط ما عدا فرنسا، اسبانيا و ايطاليا، حلت نهائيا عام 1825، ليلى صباغ، الجاليات الأوربية ، ص508، ادهم الدم، ص92-93.

7- ثبت لدى الشركة أن فرنسا أغرقت أو أسرت عام 1649، ثمانية (08) مراكب بقيمة 300 ألف جنيه و هو نفس ما حدث عام 1693 بخسارة قدرت ب 600 ألف جنيه، ليلى صباغ، الجاليات الأوربية ، ص513.

8- ليلى صباغ، المرجع السابق، ص514 .

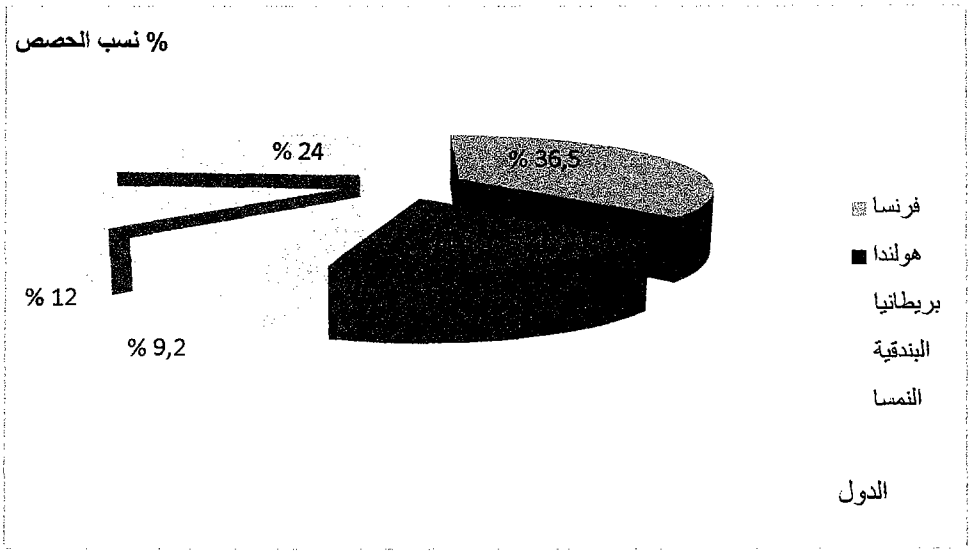

المصدر: التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي للدولة العثمانية، خليل اينا لجيك، ص452.

استعادت إذن حلب انتعاشها الاقتصادي، فأصبحت تتاجر في كل شيء كتصدير الزبيب القمح [2] البن اليمني، صوف الماعز [3] وخاصة المنتجات القطنية و الجلود التي ازدهرت شمال المدينة فارتفعت مثلا واردات فرنسا من هذه المنتجات القطنية المخططة [4] طيلة القرن الثامن عشر على النحو التالي:

استعادت إذن حلب انتعاشها الاقتصادي، فأصبحت تتاجر في كل شيء كتصدير الزبيب القمح البن اليمني ، صوف الماعز و خاصة المنتجات القطنية و الجلود التي ازدهرت شمال المدينة

1- خليل أينا لجيك، المرجع السابق، ص452.

2- منذ عهد السلطان سليمان القانوني، رفضت الدولة العثمانية السماح بتصدير القمح إلى خارج الولايات العربية، لكنها كانت تتراجع استثناءا في حال تحقيق فائض في الإنتاج أو لمجاعة تمس أحد الدول الصديقة، كما حدث مع فرنسا عام 1563، ليلى صباغ 479. و لمزيد من التفاصيل حول صادرات و واردات حلب عد للمرجع نفسه ، ص479-485-490 و أيضا أنظر Le comte de saint Priest, op.cit., p330-

3- يستورد من الأناضول، ليعاد تصديره عبر حلب إلى أوربا، فولني، ص138.

4- تسمى هذه المنتجات أيضا ب ألاجا أو ألاتشا نسبة للفظ التركي Alaca أي المخطط، أندري ريمون، ص198-199.

المدينة فارتفعت مثلا واردات فرنسا من هذه المنتجات القطنية المخططة [1] طيلة القرن الثامن عشر على النحو التالي:

استعادت إذن حلب انتعاشها الاقتصادي، فأصبحت تتاجر في كل شيء كتصدير الزبيب القمح البن اليمني ، صوف الماعز و خاصة المنتجات القطنية و الجلود التي ازدهرت شمال المدينة فارتفعت مثلا واردات فرنسا من هذه المنتجات القطنية المخططة طيلة القرن الثامن عشر على النحو التالي:

الفتـــــــــرات	1700-1702م	1754-1785م	1785-1798
قيمة المشتريات من الأنسجة القطنية	85 ألف	1.326	1.696

المصدر: المدن العربية الكبرى، أندري ريمون، ص198.

فالإحصائيات تشير إلى ارتفاع نسبة مشتريات مرسيليا من المنتجات الحلبية إلى 67 بالمائة من مجموع قيمة المنتجات المستوردة من بلدان المشرق و هو ما يعزز شهادة فولني حول نوعية وجودة المنتج الحلبي.

هذا عن الصادرات، اما فيما يتعلق بالواردات فقد شكلت المحاصيل المدارية مثل البن والسكر الأمريكي و الملابس و الأنسجة الأوربية و التوابل و الحرير الهندي ، الأساس.

لاشك أن هذا الإنتعاش الإقتصادي الذي استعادته مدينة حلب، كان له إيجاب الأثر على سكانها من المسلمين أو غيرهم (مسيحيين-يهود)، فبرزت طبقة من التجار الأثرياء شكلت قوة اقتصادية مسيطرة على المنطقة [2] سماها أندري ريمون بالطبقة البرجوازية [3] على غرار أسرة أميري[4]، غير أن ما يعاب عليها هو فشلها في ترجمة ما استحوذت عليه من نفوذ إلى سلطة سياسية موازية لمكانتها الإقتصادية لاسيما في الجانب التجاري إذا ما قارنا ذات الدور مع التجار المسيحيين أو اليهود .

1- تسمى هذه المنتجات أيضا ب ألاجا أو ألاتشا نسبة للفظ التركي Alaca أي المخطط، أندري ريمون، ص198-199.

2 - Volney, op.cit, p138-139.

3- ادهم الدم، دانيال غوفمان، المرجع السابق، ص162.

4- أندري ريمون ، المرجع السابق ، ص70.

موازاة مع هذا النمو الإجتماعي الذي شهدته النخبة المسلمة الجديدة [1] ، برز عدد من العائلات المسيحية التي شكلت نسبتها مابين 10الى12 %من مجموع سكان حلب[2] والمتمركزة في الشمال الغربي ، عكست الكنائس العديدة و جودة الطرق العامة و تنظيم المنازل و الأحياء التي يقيمون بها، رفاهية الحياة التي تمتعوا بها [3]، و هو ما يدل على أهمية الدور الذي لعبوه كوسطاء تجاريين بين السكان و الأوربيين كما تاجروا لحسابهم الخاص[4]، على غرار أسر **عايدة** Aida **غضبان** Ghadban، **دلال** Dallal، و التي سبق لبعض من أفرادها العمل خلال النصف الأول من القرن 18م في خدمة القنصل الانجليزي بحلب و لما تراجع النفوذ الانجليزي في النصف الثاني خدموا الفرنسيين و الهولنديين على حد سواء [5].

أما بالنسبة لليهود الذين قدر عددهم أواخر القرن 18م، بحوالي 5000 آلاف أسرة ، برزت منهم عائلات تجارية **بارزة، مثل سيلفيرا** Silvera ، **ألتراس** Altras ، **بيجيو** Begio و **بيشيوتو** Picciotto هيمنت على تجارة الإستيراد من حلب نحو أوربا أواخر هذا القرن و طيلة القرن 19م لاسيما و أنهم حصلوا على وكالات حصرية من السلطان العثماني جعلت منهم رسميا محميين أجانب معفيين من الضرائب [6]. و مع النصف الثاني للقرن الثامن عشر تعدى نفوذهم إلى المجال السياسي بتعيين اليهودي روفائيل بيشيوتو قنصلا للنمسا عام 1784م، و عندما أخرج التمثيل القنصلي من الإمبراطورية بسبب الحرب التي نشبت عام 1788م بين النمسا و الباب العالي أخذ Picciotto على عاتقه التمثيل القنصلي لكل من توسكانا و نابولي [7].

1- من أهم الأسر الحلبية خلال القرن 18م، مثلها ابنها موسى أغا (1688-1764)، حقق نجاحا باهرا في التجارة سافر إلى الهند بعدما خصص وقفا كبيرا لصالح الجامع الذي شيده عام 1763، و قد تضمن هذا الوقف 4 خانات، 7 قيساريات أي محال للأعمال الحرفية ،3 مدابغ، حمامين، و 82 حانوتا، كل هذا في الضاحية شمال المدينة، كما برزت عائلات حلبية أخرى هيمنت على المناطق الزراعية داخل حلب في نهاية القرن 18م،كعائلات الجابري العامري و طه، أندري ريمون ص70، مونتران، ص569، ادهم الدم، المرجع السابق، ص160.

2- ادهم الدم، دانيال غوفمان، ص162-163.

3- قدرهم أندري ريمون ب 10 %، ص82-83، أما Loarty Hadj فقدرهم ب 12 % ،ص116.

4- أندري ريمون، المرجع السابق،ص82، 83، 87.

5- ادهم الدم، دانيال غوفمان، المرجع السابق، ص178.

6- نفس المرجع ، ص 186، 185، 184.

7- نفسه، ص188.

الفصل الثالث

كتاب فولني والكتابات المعاصرة له

أولا :الكتابات الأوربية

ثانيا :الكتابات العربية

ثالثا : قيمة كتاب فولني

أولا : الكتابات الأوربية:

إن التساؤل الذي يمكن أن يطرحه أي دارس لهذا الفصل من هذه الرسالة هو لماذا وقع الإختيار على الرحالتين سافاري وأنتيس دون غيرهما؟

الإجابة بقدر بساطتها ووضوحها ،تحمل الكثير من التشعب ،يمكن أن نلخصها فيما يلي :

أ-تزامن رحلة الشخصيتين المذكورتين مع رحلة فولني الى مصر و سوريا،وهو الأمر الدي يمنح مجالا أوفر للمقارنة .

ب-اختلاف أسباب ودوافع رحلة كل واحد منهم،وهو ما يفرض حتما اختلاف زوايا رؤيتهم للدولة العثمانية وأوضاع ولاياتها .

ج-إتقان الرحالة جون أنتيس للغة العربية بحكم طول بقائه في هذا الفضاء العثماني عكس فولني الذي تعلمها في فترة قصيرة ولما غادر مصر نحو سوريا ،وهو الأمر الذي أعابه عليه أنتيس في كتابه وأعاب على كل رحالة يدفعه الفضول إلى مصر من أجل اكتشاف سحر الشرق، فجهل اللغة يجبر الرحالة على التخمين أحيانا أو جمع المعلومات بطريقة خاطئة من الأهالي أو من التجار الأوربيين الذين قد تنقصهم في بعض الأحيان دقة الملاحظة ،وهو ما تسبب حسبه في الوقوع في أخطاء تاريخية ناجمة عن عدم الفهم [1].

د- عدم زيارة فولني خلال فترة بقائه في مصر كل مناطقها، حيث اكتفى بزيارة مدن الوجه البحري فقط من الإسكندرية، رشيد، دمياط ،القاهرة ووصولا إلى السويس ،عكس أنتيس الذي توغل داخل مدن الوجه القبلي ،وهو ما يشير إليه بقوله :<<...**إن كتابات السيد سافاري و فولني لا تعدو أن تكون تكرارا لكتابات سابقة .فالأول يصف صعيد مصر كله بالرغم من أنه لم يخط خطوة واحدة خارج القاهرة ،أما الثاني ،فقد جاء إلى القاهرة بعد عام من رحيلي عنها ،ولم يمكث فيها سوى سبعة أشهر دون أن يكلف نفسه عناء تعلم اللغة العربية،كما أنه جاء في وقت عصيب كان السفر فيه إلى أعماق البلاد مخاطرة كبيرة ،وبالتالي يجب ألا نتوقع لرواياته أن تكون صحيحة بقدر كاف لتصل إلى درجة التصديق** >>[2].

1-جون أنتيس ،المرجع السابق،ص37.

2-نفس المرجع ،ص 30.

هـ- التنافس والصراع الإستعماري الكبير الذي ميز العلاقات الثنائية بين فرنسا وبريطانيا،وما أحدثه من ضغائن سياسية بينهما،لا سيما أواخر القرن 18م ،وسعي كل طرف للسيطرة على الطرق التجارية البحرية ومناطق النفوذ،وهو ما يفسر الهجوم العنيف الذي شنه هذا الرحالة على كل من فولني وسافاري.

1-جون أنتيس: هو رحالة انجليزي من أصل ألماني،حمل الجنسية الانجليزية بعد تجنس والده الذي عمل موظفا في الإدارة الإنجليزية بأمريكا قبل حرب استقلالها .

ولد سنة 1741م ،التحق في شبابه بالبعثة التبشيرية المورافية[1] التي كلفته بالسفر إلى القاهرة للإلتحاق بأعضاء من نفس الجمعية، ومنها الإلتحاق ببعثة الرحالة جيمس بروس لزيارة الحبشة بغية نشر المذهب البروتستانتي،غير أن إصابته بالملا ريا جعلته يبقى بمصر مدة 12سنة،تعلم خلالها اللغة العربية، أي أنه لم يغادر مصر إلا في 26جانفي 1782[2].

1-1رحلته إلى مصر :جاءت كما تقدم الذكر لأسباب دينية محضة،حيث رغب في نشر المذهب البروتستانتي بين الأقباط في مصر ،التي وصلها في جانفي من سنة 1770م[3] بعد رحلة شاقة بدأها من جزيرة قبرص إلى الإسكندرية ثم رشيد ومنها عبر نهر النيل إلى بولاق في القاهرة .لذا سافر إلى البهنسا في مصر الوسطى،حيث تعيش جالية قبطية كبيرة في 23أوت 1770م وظـــل فيها حوالي ستة أسابيع،غير أن،أقباطها كانوا يجاملونه ويستمعون إليه لكنهم ظلوا رافضين التحول عن عقيدتهم.

1-2كتابـــه :اعترف الرحالة جون أنتيس أنه فقد مذكراته ويومياته عند عودته البحرية من مصر لهذا لم يشرع في كتابة مؤلفه عن المصريين إلا عندما بلغ الستين وهو كان ابن الواحد و الأربعين عند رجوعه ،أي في عام 1799م [4].

إن أهم ما يميز مؤلف الرحالة جون أنتيس عن غيره من الرحالة الأوربيين الآخرين،أنه لم يشغل نفسه بالأحوال السياسية،عكس الأوضاع الإجتماعية التي حازت الرصيد الأكبر ،فقد درس

1-نسبة إلى منطقة مورافيا بتشيكوسلوفاكيا ،جون أنتيس المرجع السابق ،ص 16.

2-نفس المرجع،ص16.

3-في هذه السنة التي دخل فيها أنتيس مصر ،كان الجبرتي طالبا في الجامع الأزهر ،نفسه، ها ، ص 17 .

4-نفسه ،ص17.

في كتابه :<<**مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر من خلال وصف الرحالة جون أنتيس1770-1782**>>، عادات تقاليد وسلوكيات المجتمع المصري خاصة وأنه أقام بينهم مدة 12سنة كاملة،وهي أطول فترة أقامها رحالة أوربي تعلم خلالها اللغة العربية ،لغة التواصل مع السكان و التجار ،فمن الصعب على المرء أن يقيم عقلية وشخصية أمة دون معرفة لغتها ،فما ينقله المترجمون لا يمكن أن يكون له نفس تأثير التخاطب المباشر ذاته،وبدون البقاء وقتا كافيا لا يستطيع المرء أن يخرج بحكم وتصور سليمين[1] .

1-3 مواقف أنتيس: تباينت مواقف هذا الرحالة الإنجليزي بين تأييد ورفض للأفكار التي ضمنها فولني في كتابه الرحلة إلى مصر و سوريا، فنجده تارة مؤيدا له، غير أنه سرعان ما ينتقده في الكثير من المواقف و الأحداث، نوردها كما يلي:

أ/استبداد المماليك: رصد الرحالة جون أنتيس كمن سبقه ومن جاء من بعده من الرحالة عيوب الإدارة وأمراض المجتمع في مصر خلال الفترة قيد الدراسة ،ممثلة في الرشوة والفساد والمحاباة التي ارتبطت بتعسف المماليك البكوات واستبدادهم،فلا يمكن القيام بأي شيء في مدينة القاهرة من دون تقديم الهدايا[2]، كما تحدث عن ظاهرة وجود الحماية من ذوي النفوذ للضعفاء،بل تهكم قائلا أنه لا يوجد شحاذ واحد في القاهرة ليس له شخص يحميه،كما أشار مؤيدا فولني ومعه عديد الرحالة إلى جشع البكوات الذين يسعون وراء الذهب و السلاح بالإستغلال و القمع،إذ يروي أنتيس حكاية القبض عليه وضربه بالفلقة حتى تورمت قدماه،وتجريده من معظم ثيابه وما كان في حافظته من أموال على أيدي أحد زعماء المماليك الذي كان وحشا في صورة آدمي[3].

إن استرسال أنتيس في وصف تعسف البكوات المماليك ، لم يجعله يعمم الرأي –مثل فولني– على الحكام العثمانيين ،بل حمل مسؤولية هذا الإستبداد للحكام المحليين،فهولا يلقي اللوم على السلطان العثماني أو كما أسماه بLe Grand Seigneur بل البكوات،ضاربا مثالا على ذلك .إذ كان السلطان يخصص أموالا كل عام لحمل القمامة إلى أماكن بعيدة عن القاهرة،إلا أن هذه الأموال كانت –يشير أنتيس– تذهب إلى جيوب البكوات المماليك.

1-يشترك جون أنتيس مع الرحالة فولني في أهمية تمكن الرحالة من لغة المنطقة المقصود زيارتها .

2-نفس المرجع ،ص 19.

3-انظر تفاصيل هذه الحادثة كما رواها أنتيس،نفسه ،ص 156،157،158،161.

فالعيب حسب أنتيس ،ليس في القوانين العثمانية وإنما في الطريقة الفاسدة التي يطبقها بها هؤلاء البكوات،وهنا يكمن الفرق بين نظام الحكم العثماني في مصر ونظام الحكم في دول أوربا خلال القرن 18م،لهذا وصف حكم المماليك لمصر بأنه وصمة عار في جبين الإنسانية[1] .

لم يكتف جون أنتيس بمعارضة فولني ، بل تجاوزه إلى حد الإعتراف بأن استبداد ا لمماليك ليس ظاهرة عامة قائلا :<<...**إن المعاملة المجحفة التي لقيتها على يد بعض منهم لا تعميني إلى درجة إدانة الكل بلا تفرقة ،إذ إنني مقتنع تماما أن كثيرا منهم خيرين بطبيعتهم،وأنشئوا على تربية حسنة ومتمسكين بعقيدتهم فيما يتعلق بالحلال و الحرام،أصبحوا أصدقائي،بل إنني كنت على ثقة من أن ائتمنهم على أسراري من دون أي خوف .**>>[2].

ب/تردي الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية :اهتم جون أنتيس- كما يبرزه عنوان كتابه – بدراسة الأوضاع الإجتماعية للمصريين،لذا ركز وباهتمام بالغ على تدقيق معلوماته عن بعض الأمراض التي طبعت حياة المجتمع المصري،خاصة الطاعون،الذي اعتبره أقسى أنواع البلاء الذي يترل الرعب بالجنس البشري[3].أشار أنتيس ،إلى أنه وخلال المدة التي قضاها في هذا الفضاء العثماني،ظهر وباء الطاعون ثلاث مرات.فعند وصوله إلى الإسكندرية ،كانت هناك بعض حالات هذا المرض لينتشر بسرعة إلى مدينة رشيدوما جاورها،غير أنه لم يصل إلى القاهرة،وفي العام الموالي-1771-جلب بعض المماليك من القسطنطينية هذا الوباء،وعم كل القاهرة وبعض مناطق الصعيد،لينقطع ظهوره منذ تلك السنة إلى حدود عام 1781م،معللا هذا الإنقطاع باندلاع الحرب الروسية العثمانية ،والتي أدت إلى قطع الإتصال بين القسطنطينية وموانئ مصر .وفي سنة 1781م عاود الوباء مدينة الإسكندرية ،رشيد و القاهرة على يد بعض التجار اليهود الذين جلبوا ملابس موبوءة من أزمير لبيعها في القاهرة.

انطلاقا من هذا،يقر هذا الرحالة ويؤكد إلى ما ذهب إليه فولني من عدم صحة مقولة أن أصل الوباء مصر ،فحسبه مصر لا يمكن أن تسمى بأم الوباء بأية حال من الأحوال،وفي رأيه ،إتباع العزل الصحي على المدن الساحلية كفيل بتجنيب مصر خراب هذا الوباء،مثلما تفعله مدن أوربا.وهو بهذا ينتقد على غرار فولني ،كل الكتابات الأوربية السابقة القائلة بأن مصر هي موطن

1-جون أنتيس ،المرجع السابق ،ص19،20 .

2-نفسه،ص65

الطاعون بسبب فياضان النيل السنوي وما يخلفه من كميات كبيرة من الماء و الطين في المستنقعات[1] .

ج/التجارة وقناة السويس: لم يختلف هذا الرحالة عن فولني في تأكيد أهمية مصر التجارية التي لا يضاهيها فيها أي بلد آخر ،وخاصة مدينة القاهرة المؤهلة في نظره لأن تكون محور التجارة العالمية.فهي ملتقى القوافل التجارية الأسيوية والإفريقية نحو أوربا عبر ميناء الإسكندرية،وهي بهذا مؤهلة لأن تكون همزة وصل بين مختلف هذه العوالم،لهذا نجده يتفق مع فولني حول تقديم اقتراح توسيع الطرق التجارية بتجديد فتح القناة الرابطة بين مدينة السويس ونهر النيل ،أو بين ميناء القصير على البحر الأحمر ومدينة قنا على نهر النيل،مستبعدا كما فولني فكرة شق قناة بين البحر الأحمر و المتوسط لاعتبارات مختلفة عن تلك التي دافع عنها فولني والمتمثلة في :

1-عدم وجود ميناء أو ملجأ للسفن على طول سواحل البحر الأحمر .

2-عدم وجود الماء العذب في أي مكان بالقرب من هذه القناة في حال حفرها وهو ما يعرقل الحكة والنشاط التجاريين .

د/ضرورة الخضوع للإستعمار :رغم التنافس الإستعماري الذي ميز العلاقات الفرنسية البريطانية حول الممتلكات العثمانية ،نجد توافقا صريحا بين موقفي فولني وأنتيسالداعيان الى ضرورة إخضاع هذا المجال الجغرافي إلى سيطرة قوة كبرى كفيلة بإخراجه من حالة التخلف الإقتصادي و الجمود الفكري ،خاصة وأن تاريخه الحضاري لا يعكس واقعه المأساوي [2].في هذا الصدد،كتب أنتيس متمنيا: **<< ياليت هذا البلد يسقط في أيدي أمة متحضرة قادرة على توطيد نفسها هناك،فتعمل على تطوير مزايا موقعه لصالح التجارة ،فتنتشر الحضارة،عندئذ تصبح إفريقيا- التي لا تعرف عنها حتى الآن سوى الترر اليسير -مصدرا لكم هائل من الثراء >>**[3].

هـ/طبيعة مصر وهوائها :رغم بعض التقاطع الذي لمسناه في كتابات الرحالتين ،إلا أننا نجد اختلافا في بعض الأفكار،عبر عنها الرحالة الإنجليزي برفضه الصريح لها بل وطالب القراء بضرورة

1-جون أنتيس،المرجع السابق،ص178.

2-نفس المرجع،ص179.

3-نفسه،ص180.

قراءة كتابات لمؤلفين آخرين على غرار نيبور ،بوكوك،إذ اعتبر أنهم قدموا معلومات كافية أكثر مما قدمه فولني بل وذهب إلى حد اتهام هذا الأخير بتكرار كتابات سابقيه [1].

لعل من أبرز نقاط الإختلاف التي أكدها أنتيس في كتابه وأبدى سخرية من مواقف فولني حيالها طبيعة مصر وهوائها .لقد أورد فولني في جزئه الأول عن مناخ مصر :<<**شدة جفاف الهواء خاصة في صحاري مصر إلى حد بقاء جثث الموتى على حالتها بعد جفافها بل وتستطيع الإنسان أن يرفع بيد واحدة جيفة جمل بأكمله**>>.أثار هذا الوصف سخرية أنتيس واعتبره سخافة تستحق الرثاء،فلو بذل-يقصد فولني-قدرا كبيرا من التفكير لأدرك أنه بالرغم من شدة الجفاف الذي يجفف الأجزاء كثير اللحم إلى درجة كبيرة،إلا أن عظام الجمل لا يقل وزنها عن 300رطل وهي لا تجف كلية [2]. كما أن فولني وصف الرياح الجنوبية أو السموم بالخطيرة والقاتلة،وهو ما نفاه أنتيس بقوله:<<**خلال إقامتي،لم أسمع عن شخص واحد اختنق بسببها،بل إنني تعرضت لها عدة مرات في الحقول وفي إحدى المرات لم يكن معي شيء لأحتمي به،غير أنني لم أشعر بمتاعبها أكثر من صعوبة التنفس عن الحد المعتاد وأتربة لا تطاق**>>[3].

2-كلود إتيان سافاري[4]:هو من الرحالة الفرنسيين الذين تزامنت رحلتهم مع رحلة فولني إلى مصر وسوريا ،غير أن الفرق بينهما كان واضحا وضوح اختلاف المدرسة التاريخية التي ينتمي كل واحد إليها .

فسافاري هو من كتاب القرن الثامن عشر الرومانسيين الذين اهتموا بالزخرف اللفظي،إذ في الوقت الذي اتسمت فيه كتابات فولني بالتشاؤم والإحباط في رحلته وبابتعاده عن جماليات الأسلوب و ا لألفاظ،كانت رسائل سافاري تشع حياة وحيوية وتفاؤلا[5] .

رأى فولني مصر بنظرة سوداوية،رسمها ذهنه الناقد اللاذع ،أما سافاري فقد كانت نظرته وردية بل وأكثر مما ينبغي .ففي الوقت الذي وصف فولني ميناء الإسكندرية بالقديم ،الرث و البالي وغير الصالح للملاحة البحرية ،نجد سافاري يستمتع بوصف حركية الميناء وفرحة البحارة

1-جون أنتيس ،المرجع السابق،ص30.

2-نفس المرجع ،ص37.

3-نفسه،ص38.

4-تم التعريف بسافاري وكتابه في الفصل التمهيدي من هذه الرسالة .

5-اعترف فولني شخصيا بهذا في جزئه الأول .

وموسيقاهم الصاخبة التي تمنح مشهدا متحركا يضج بالحياة .وفي الوقت الذي يعتبر فيه فولني ريف مصر مجرد تجمع لقرى طينية مهدمة في معظمها ،تفتقر إلى اللون الأخضر ،نجد سافاري يقدم وصفا آخر عن ذات المكان وكأنك بمنطقة مختلفة.فسافاري يقدم وصفا رائعا عن الريف المصري واخضراره كقوله:<<...**أما الدلتا فهي حديقة مترامية الأطراف لا تمل أرضها من منح خيراتها من الخضر ، الفواكه ، الورود و الحبوب على مدار العام،وهو تنوع يروي العين و القلب معا.في شمالي المدينة حدائق تتناثر فيها بشكل عشوائي أشجار الليمون و البرتقال** >> [1].

ذات الإختلاف نجده في وصف كليهما لنهر النيل،ففي الوقت الذي يصفه سافاري بكل شاعرية،نجد فولني يقدم وصفا قبيحا ومغايرا له تشمئز منه روح القراء.[2]

لقد انتقد فولني كتابات سافاري واعتبرها غير واقعية ومبالغ فيها خاصة لما تحدث عن اتساع الدلتا وتمرد علي بك.لقد حرص فولني على التأكيد بأن سافاري لم يتجاوز في رحلته إلى مصر حدود منطقة الجيزة وهذا النقد يعتبر غريبا من فولني الذي لم يغادر هو أيضا القاهرة ومع هذا كتب عن الأهرامات .رغم هذا الإصطدام بين الرحالتين والذي تسبب فيه اختلاف أسلوب كل واحد منهما نجدهما يتفقان على أمر رئيسي وهو:

أ/استبداد الأتراك:في جزئه الثاني من كتابه **رسائل مصر**،ظهر جليا موقف سافاري المعادي للأتراك الذين حملهم مسؤولية فقدان مصر لجمالها ،فمنذ قرابة 112سنة،سقطت مصر تحت حكم شعوب بربرية ،هدموا كل شيء وتركوا العديد من الآثار تزول،فقناة الإسكندرية لم تعد صالحة للملاحة [3] .

لقد وصف المماليك بالغرباء -الذين جيئ بهم من جورجيا والأناضول كأطفال ،سرقوا وبيعوا في القسطنطينية-الذين أصبحوا الآن يحتكرون في مصر لقب الباي ويهتمون بشؤون الدولة .

ب/تمرد علي بك:بالرغم من الإنتقاد الكبير الذي وجهه فولني لحركة علي بك ممثلة في شخصه الذي عاب فيه بساطته إلى حد إيمانه بالخرافات كغيره من بقية المماليك الجهلة،نجد سافاري معاكسا له تماما،لما استحسن اتصاله بالقوات الروسية واعتبره خيارا استراتيجيا ينم عن ذكاء

1-جون ماري كاريه،المرجع السابق،ص150.

2-نفس المرجع ،ص151.

3 -Savary,Opcit,T2 ,p28.

سياسي،فلو قدر لهذا التحالف النجاح ،لكان غير من وجه الشرق كله[1].

لقد كان شديد الإعجاب بشخص علي بك،وعند وفاته كتب:<<**قتل علي بك،نصير المصريين ضد استبداد وطغيان الأتراك**>>[2].أما عن هزيمته أمام أبي الذهب،فقد أرجعها —وهو الأمر الذي لم يشر إليه فولني-إلى ثورة المدن السورية ضد علي بك بسبب الإدعاءات التي نشرها أبو الذهب ضده قصد تشويه صورته لاتصاله بالروس وتحالفه معهم ضد الدولة العثمانية المسلمة،مؤكدا لهم أنهم سوف يمتلكون بلادهم كما فعل الإنجليز في الهند،مع اتهام علي بك برغبته في إدخال المسيحيين إلى سوريا [3].

رغم اختلاف طبيعة هؤلاء الرحالة واختلاف انتماءاتهم واتجاهاتهم السياسية،إلا أنهم اشتركوا في فكرة واحدة وهي كرههم للأتراك المسلمين ورغبتهم في سيطرة دولة قوية —أوربية- على هذا الجزء من الشرق الغني بثرواته المادية والمعنوية.

ثانيا :الكتابات العربية :إذا كان الرحالة الأوربيون على اختلاف جنسياتهم ،كتبوا بروح الحقد عن الدولة العثمانية ورغبة في التوسع على حساب ولاياتها ،فكيف كانت كتابات المؤرخين العرب المحليين في مقدمتهم البديري الحلاق و الجبرتي ؟

1-البديري الحلاق:

1-1 مولده ونشأته:هو شهاب الدين أحمد بن بدير،الشهير بالبد يري الحلاق،مدون شعبي متصوف في حياته ومعاشه.

ينحدر من أسرة شعبية غير معروفة،تقطن في ضاحية القبيبات في حي الميدان[4] ،ولم تحدد المصادر تاريخ ولادته،ولم تذكر الا القليل عن أخباره أو أخبار أسرته التي كانت تمتهن الحلاقة،فورث البديري عن جده وأبيه تلك المهنة،ونسب إليها ،فمارسها في دكان صغير اتخذه بالقرب من قصر أسعد باشا حاكم دمشق،وكان هذا الموضع يجتذب إليه الناس من كل الفئات بحكم حيوية موقع وسط المدينة.كان البد يري يشاهد مختلف الأحداث اليومية للمدينة ويعاينها

---

1 -Savary ,Opcit ,T2 ,p240.

2 -Ibid ,p242.

3- Ibid ,p254.

4-يقع هذا الحي جنوب غرب دمشق في طريق الحج،ازدهر بشكل كبير خلال القرن18م،مهند مبيضين المرجع السابق،ص70.

باستمرار،فتختزنها ذاكرته ويسجلها بقلمه،إضافة إلى مرويات زبائنه من أحداث معاشية وأمنية يومية في عصر كانت تسود فيه فتن القوات العثمانية وتمردهم المستمر .

كما تمت الإشارة إليه، لم تحدد المصادر تاريخ ولادة البد يري ولا تفاصيل حياته التي لم يشر إليها في يومياته إلا النذر القليل منها،غير أن تاريخ وفاته حدد نحو 1175هـ الموافق ل1762-1762م[1].

1-2 كتـــابه:بحكم مهنته الشعبية،وقف البد يري على ماكان يجري في أنحاء دمشق من حوادث وأفراح،مواسم وأعياد.كل هذه المشاهدات و المسموعات ،حركت إحساس البد يري فراح يسجلها بعفوية المدوت الشعبي على مدى20سنة في صفحات عرفت بعدما ظهرت باسم حوادث دمشق اليومية أو مذكرات البديري[2].

ظلت مذكرات البديري مغمورة وضائعة لمدة طويلة ،وقد تعددت الروايات في كيفية العثور عليها واستقرارها عند الشخ القاسمي[3] عكف على دراستها وتنقيحها وتهذيبها في أواخر حياته وفي أقل من شهر عن وفاته.[4]ولما كان البديري قد دون يومياته بالعامية فقد عمل الشيخ القاسمي على تنقيحها وإخراجها بحلة جديدة وبعنوان جديد: **تنقيح الشيخ محمد سعيد القاسمي لحوادث دمشق اليومية**،ومنذ ذلك الحين،اختفت النسخة الأصلية العامية ولم يبق إلى اليوم إلا تهذيب الشيخ القاسمي.في سنة 1959م ،قام الدكتور أحمد عزت عبد الكريم بدراسة لهذه النسخة وتعهدها بالإصلاح والتعليق ثم نشر هذه اليوميات مع مقدمة لها [5].

بدأ البديري تسجيل يومياته سنة1154هـ/1741م،واستمر في التسجيل إلى سنة 1175هـ / 1762م ،ولعل هي سنة وفاته،إذ توقفت بعدها يومياته التي اكتسبت أهميتها من كونها عفوية وصادقة عن العصر الذي عاش فيه من النواحي السياسية،الإقتصادية ،الإجتماعية والأمنية.

1-3مواقـــفه:تنوعت مواضيع يوميات البديري الحلاق ،مابين الحياة الإجتماعية والإقتصادية

1-أحمد عزت عبد الكريم،دراسات في تاريخ العرب الحديث،دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت 1970،ص163.

2-نفس المرجع،ص169،172.

3-هو محمد سعيد القاسمي(1259-1317هـ)الموافق ل(1743-م1900)،من أسرة دمشقية عريقة وأحد علماء دمشق،أحمد عزت عبد الكريم،ص174،175.

4-توفي في 22شوال1317هـ/فيفري 1900م،نفس المرجع،ص175.

5-نشر أحمد عزت عبد الكريم مخطوط البديري باسم حوادث دمشق اليومية ،من مطبوعات الجامعة المصرية للدراسات التاريخية،القاهرة ،1959،نفسه،ها،ص162.

وهو ما يربطها بانعكاسات وتأثيرات الجانب السياسي الذي ارتأينا أن نسلط الضوء عليه،مادام الرحالة الفرنسي فولني ركز على استبداد الحكم العثماني في بلاد الشام ،بدءا من السلطان وانتهاء بنوابه كالولاة .

أ/الأوضاع السياسية:لقد أصدر فولني فولني حكما على العثمانيين بالفساد،وعدم الإصلاح،غير أن ما ذهب إليه البديري في يومياته يدحض هذا الإدعاء،ويؤكد على سعي الدولة العثمانية-ممثلة في أعلى رموزها السلطان-إلى الإصلاح و التعمير وهو ما نلمسه في يوميات البديري لسنة 1172ه إذ كتب فيها: **وفي نهار السبت الثاني والعشرين من رجب ،جاء قبجي من طرف الدولة العلية واسمه سبانخ زادة لأجل الكشف على الجامع الأموي وعمارة قبته وجهتنه الشمالية ومآذنه المهدومة في الزلازل ومعه باش معماري ورجال لأجل مباشرة تعمير الجامع المذكور**[1]،أما الوالي فقد كتب البديري عنه في شخص والي الشام سليمان باشا إذ تحدث عن كرمه سنة 1156هـ:**وفي غرة ربيع الأول من هذه السنة،شرع حضرة والي دمشق سليمان باشا ابن العظم في فرح لأجل ختان ولده ،فاجتمع الأعيان والأكابر من أفندية وحتى من النصارى و اليهود،فأمر الزينة لأسواق الشام وأمر من صدقاته أن يطهر من أولاد الفقراء وغيرهم ممن أراد،فصارت تقبل الناس بأولادهم،وكلما طهروا ولدا يعطوه بذلة وذهبيتين وأنعم على الخاص و العام والفقراء و المساكين بأطعمة وأكسية وغير ذلك مما لم يفعل أحد بعض ما فعله،ولم نسمع أيضا هذا الكرم والإنعام على الخاص و العام فرحمه الله وجازاه أحسن الجزاء**[2]،كما أشاد بدوره في ترميم نهر القنوات[3] في ظرف لم يتجاوز 15يوما وعلى حسابه الخاص.نفس الإشادة بعدل هذا الوالي نلمسها عند سرده لموقف له من حادثة وقعت في 28جمادى من السنة المذكورة سلفا:**فلما هجم العامة على المحكمة وطردوا القاضي ونهبوا الأفران بسبب غلاء الأسعار وقلة التفتيش على صاحب القمح والطحان والخزان،أرسل سليمان باشا يشدد على الطحانة و الخبازة ويهددهم،فحالا وجد الخبز،وتحسن وكسد،بعدما كانت غالب الناس تبات بلا خبز،فابتهلت الناس بالدعاء لحضرته**[4].

1-البديري الحلاق،مذكرات دمشق اليومية،مكتبة المصطفى الإلكترونية،ص56،57.

2-نفس المصدر ،ص07.

3-هو من أهم فروع نهر بردى،يزود مدينة دمشق بالماء،ابن كنان،المصدر السابق، ها،ص228.

4-البديري الحلاق،المصدر السابق،ص08.

لقد وصف البديري عدل سليمان باشا قائلا عند وفاته:...**كان وزيرا عادلا،حليما صاحب خيرات ومبرات، محبا للعلماء وأهل الصلاح وقد أبطل مظالم كثيرة على أهل الشام مثل"الشاشية" "المشيخة" و "العرض"،وهي أموال تفرض على العرف و الصنائع و الحارات في الشام مرتين أو مرة في السنة**[1]. إن ثناء البديري لم يقتصر على الوالي،بل تعداه إلى إبراهيم أغا القابيقول المتوفى سنة 1164هـ حين وصفه بأنه كان دينا،متواضعا وملازما لصلاة الجماعة،أما كيخيا أسعد باشا المتوفى سنة1164هـ ،فقد كتب عنه:**في هذه السنة ،توفي موسى كيخية أسعد باشا،والي الشام وكان رحمه الله هضيم النفس،طالب علما في أول أمره،عنده شفقة ورأفة ويحب المسألة ومصالحة الخصوم،حتى صارت الشام وما حولها حتى من العربان طوع يده**[2].

ب/تردي الأوضاع الإقتصادية :بحكم احتكاكه مع كل فئات المجتمع الدمشقي،كان البديري على اطلاع بكل مشاكلها اليومية،مؤكدا على تردي أوضاعها،مقرا بأنها ليست عائدة إلى العوامل الطبيعية بل كثيرا ما كان يشير في بداية كل سنة إلى سقوط الأمطار ،غير أن غياب مراقبة السلطة للأسعار سمح بارتفاعها،عدا بعض الحالات التي ارتبطت بالكوارث الطبيعية كالزلازل و الطاعون أو حتى إلى الفيضانات والتي عادة ما تؤدي إلى ندرة المواد الغذائية ومن ثمة إلى ارتفاع أسعارها .في هذا الصدد،أورد البديري سوء أوضاع الناس أيام حكم أسعد باشا –الذي أشاد باهتمامه للعمران وتجديده للعديد من طرقات دمشق-بسبب الغلاء الفاحش وعدم قدرته على التحكم في الوضع،و لم يتمكن من تهدئة ثورة وغضب السكان حتى لقبوه **بسعدية باشا** كدليل على عجزه في حل مشكل ارتفاع أسعار المواد الغذائية[3] .

2- عبد الرحمان الجبرتي :

2-1 مولده ونشأته:هو عبد الحمان بن حسن الجبرتي ،مؤرخ مصري،ولد في القاهرةسنة 1167هـ/1754م،من أسرةمسلمة حنفية المذهب،ترجع أصولها الأولى الى قرية جبرت وهي بلاد زيلع في لحبشة،أهلها من المسلمين[4].لايعرف شيئا عن طفولة وصبا الجبرتي ،غير أنه عاش في أسرة

1- البديري الحلاق،المصدر السابق ، ص9.

2- نفسه ،ص40.

3-أحمد عزت عبد الكريم ،المرجع السابق،ص191.

4-الزركلي ،ج3،ص304.

ثرية ذات علم وجاه،حيث تتلمذ على يد والده[1]،وأكمل دراسته في الأزهر على يد مشايخ عصره.عاصرعبد الرحمان الجبرتي عدة أحداث هامة ،أبرزها الحملة الفرنسية على مصر سنة1798م ، وعينه قائدها نابوليون بونابرت كاتبا في الديوان الذي أنشأه،كما ولاه محمد علي إفتاء الحنفية قبل أن تسوء العلاقة بينهما ،ليتوفى سنة1337هـ/1822م في ظروف غامضة[2].

2-2 مؤلفاته: لا يمكن الحديث عن عبد الرحمان الجبرتي من دون الإشارة إلى مؤلفاته خاصة:

أ- عجائب الآثار في التراجم والأخبار وهو من 4أجزاء، اعتبره المؤرخون موسوعة للتاريخ المصري لاسيما أحداث القرن الثامن عشر.

ب-مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس،وهو كتاب أرخ فيه الجبرتي للحملة الفرنسية على مصر بكل تفاصيلها .

2-3 آراؤه:إذا كان الوجود العثماني في مصر ،قد شهد في بدايته بروز مؤرخ كبير على غرار ابن إياس،فان آخر هذا الوجود شهد مرة أخرى بروز مؤرخ كبير هو الجبرتي،الذي أرخ لكل شيئ في مصر وعنها خاصة خلال القرن 18م ومطلع القرن19م،فجاءت كتاباته مرآة عاكسة للوضع السياسي،الإقتصادي وخاصة الإجتماعي .ومن هذا المنطلق،لا يمكننا استعراض مواقف الرحالة الفرنسي فولني حول مصرمن دون مقارنتها بكتابات الجبرتي باعتباره أهم شاهد على أحداث هذه الفترة،والذي رغم مصريته ،إلا أنه ابتعد عن الذاتية قدر الإمكان ملتزما الدقة والموضوعية في مواقفه،لذا نجدها مشابهة لآراء فولني حينا ومختلفة معه أحيانا كثيرة[3].

أ/ تدهور الوضع الإجتماعي: أشار فولني في جزئه الأول إلى تدهور وسوء الأوضاع الإجتماعية المرتبطة بمدى وفاء النيل في فيضانه،مما أدي إلى ارتفاع عدد الفقراء و المتسولين المنتشرين في القاهرة،وهو الأمر الذي نلمسه عند الجبرتي إذ أورد :**انقضت سنة 1198هـ/1784م في الشدة والغلاء،وقصور النيل،وانتشار الجباة في كل النواحي لجمع المال حتى هلك الفلاحون**

1-هو حسن بن ابراهيم الجبرتي،رجل علم ودين وتاجر ثري،له كتاب العقد الثمين فيما تعلق بالموازيم،رزق ب40ولدا ،ماتوا دون سن البلوغ عدا ولده عبد الرحمان المؤرخ،الموسوعة العربية،ليلى صباغ،المجلد 7 م.د د،ن،ص468.

2-للتفصيل أكثر في حياة الجبرتي،انظر ،محمود الشرقاوي،مصر في القرن الثامن عشر:دراسات في تاريخ الجبرتي ج1 ،الهيئة العامة لقصور الثقافة ،2010،ص3وما بعدها .

3-محمد أنيس،مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني،معهد الدراسات العربية العالمية جامعة الدول العربية 1962،ص29،30.

وضاق ذرعهم واشتد كربهم ورحلوا من بلدانهم...وانتشروا في القاهرة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ويأكلون ما يتساقط في الطرقات من قشور البطيخ فلا تجد الكناس شيئا يكنسه،واشتد الحال حتى أكل الناس الميت من الخيل و الجمال و الحمير ،فإذا خرج حمار ميت تزاحموا عليه...ومات كثيرا من الفقراء من الجوع [1].

ب/المماليك:أرخ الجبرتي لأيام المماليك منذ هزيمتهم على يد السلطان سليم الأول سنة1517م والى غاية القرن 18م،تاريخ استرجاعهم لمكانتهم في حكم مصر . كتب بإعجاب عن بطولاتهم ولكن رغم صداقته لكبار المماليك،كما كان والده صديقا للكثير منهم ، كتب أيضا وبتذمر عن تصرفاتهم في الحكم والإدارة[2]وكثيرا ما رثى لحال المصريين الخاضعين لهذا الحكم خاصة وأن مصر في هذه الفترة كانت تعيش على وقع صراع البيوت المملوكية وهو ما يظهر جليا في قوله: **وفي هذه السنة 1197هـ/1783م،قصر مد النيل ،فشرقت الأراضي القبلية و البحرية وعزت الغلال بسبب ذلك،وبسبب نهب الأمراء وانقطاع الوارد من الجهة القبلية،وشطح سعر القمح واشتد جوع الفقراء،ووصل مراد بك إلى بني سويف وأقام هناك،وقطع الطريق على المسافرين ونهب كل ما مر بهم في المراكب الصاعدة ز الهابطة** [3].

إن المتصفح لكتاب الجبرتي،يلمس أن هذا المؤرخ المصري لم يسع إلى تبرئة ذمة المماليك من التهم والمساوئ التي ألحقت بهم بحكم علاقته المقربة منهم ،بل أكد عكس غيره –فولني-على أنهم لم يحتكروا الإستبداد دون غيرهم و لم يكونوا خارجين عن القانون طيلة مراحل حكمهم ،إذ وجد فيهم الظالم و العادل ،الجاهل كما العالم،معارضا بهذا موقف فولني السلبي منهم حين اتهمهم بالجهل والأمية،رافضا فكرة التعميم من خلال ذكره لأحد المماليك حين وصفه بأنه أكبر بناء في القاهرة العثمانية لبنائه عديد المنشآت العمرانية وانجازه لعديد الترميمات،حيث وصل عدد المساجد المشيدة إلى 18مسجدا بخلاف الزوايا،الأحواض و القناطر،كما أورد مثالا للمملوك عثمان بك ذو الفقار الذي لم يكن يجالس إلا العلماء[4] والمملوك إبراهيم كتخدا المتوفى عام

1-عبد الرحمان الجبرتي،عجائب الآثار في التراجم والأخبار،تح، عبد الرحمان عبد الرحيم، ج2،مطبعة دار الكتب المصرية،1998،ص120.

2-عصمت محمد حسين،المرجع السابق،ص34.

3-الجبرتي ،المصدر السابق، ج2،ص107.

4-عصمت محمد حسين،المرجع السابق،ص36،41.

1198هـ/1784م الذي تعلم القرآن في صغره وحبب إليه العلم وأهله ،ولما مات سيده – يوسف كتخدا-اشترى المماليك وعلمهم القراءة،فكان بيته مأوى الفضلاء وأهل المعارف والخطاطين،واقتنى كتبا كثيرة جدا في كل فن وعلم أن الكتاب المعدوم إذا احتيج إليه لا يوجد إلا عنده،ويعير للناس ما يرومونه من الكنب للإنتفاع و المطالعة[1] .

ج/موقفه من علي بك:اعتبر الرحالة الفرنسي فولني علي بك،مجرد رجل مغامر،يفتقد إلى الخبرة و الحنكة ،جاهل ومؤمن بالخرافات،كلها عوامل أدت إلى فشل حركته.عكس هذا الموقف ،نجد اعجاب الجبرتي به،،حين يصفه بالرجل الفذ والقائد المحنك مستدلا على استعانة الدولة العثمانية به قبل- انفصاله عنها-لدعم شريف مكة الفار إليه بعد نزاع مع شقيق له،فالسلطان العثماني كان بوسعه تكليف واليه[2] في مصر على حل هذا الإشكال ولكنه فضل علي بك،كما أشاد بسياسته التي أشاع بها الأمن والإستقرار حيث كتب:**وتتبع المفسدين الذين يتداخلون في القضايا و الدعاوى بأخذ الرشوات وعاقبهم بالضرب الشديد حتى أن الشخص كان يسافر بمفرده ليلا راكبا أو ماشيا ومعه حمل الدراهم و الدنانير ويبيت في الغيط أو البرية آمنا مطمئنا لا يرى مكروها أبدا**[3]،وعكس فولني ،أكد الجبرتي على ثقافة علي بك وتعلمه،فهو لا يحتاج في التفهيم إلى ترجمان أو إلى من يقرأ له الصكوك و الوثائق[4].

ثالثا:قيمة كتاب فولني :رغم الإنتقاد الذي وجه لكتاب فولني خاصة من قبل غيره منالرحالة الأوربيين ،ورغم العيوب التي شابت وصفه لمصر وسوريا ،يبقى هذا الكتاب ن أهم المصادر التي يمكن لدارس التاريخ العثماني أن يستعين بها ،لما يحمله من قيم متعددة.

1- تاريخـــيا:ان المتصفح لكتاب فولني"الرحلة الى مصر وسوريا خلال سنوات 1783-1784-1785م،يلاحظ أن فولني ابتكر أسلوبا جديدا في الكتابة الرحلية .

فإذا كان سافاري، دي ماييه أو نيبور ،قد اعتمدوا على أسلوب الحوليات في تدوين مشاهداتهم اعتمادا على نقاط ثلاث في الرحلة (نقطة الإنطلاق-المسار-الوصول)،نجد فولني في كتابه لا ينتقل من مكان لآخر وفق خط سير واضح ،بل ينتقل من قضية لأخرى،وهو ما صعب علينا تتبع

1-الجبرتي ،المصدر السابق،ص131.

2-محمد قنديل البقلي،المختار من تاريخ الجبرتي،مطابع الشعب ،1954،ص60.

3-نفس المرجع ،ص97.

4-الجبرتي ،المصدر السابق،ص 120.

مسار رحلته،مادام قد أحجم عن ذكره في كتابه.انه لم يمنح لنا نسقا ومسارا رحليا،بل قدم لنا محصلة معلوماته عن مصر وسوريا بعد تجميع وترتيب نتائج مشاهداته،ومن ثمة،لا نأمل في اقتفاء خطواته أو الإلمام بجدول أعماله كغيره من الرحالة السابقين له أو اللاحقين من بعده.

إن فولني،ليس بقاص،حتى لو توفرت لديه القدرة على ذلك،فهو يكتب بأسلوب ايديولوجي فلسفي،بعيد عن الأسلوب التجميلي،سبق به الكتاب الموسوعيين الذين سيمبزون القرن 19م،وهو بهذا يختلف عن كتاب القرن 18م الرومنتيكيون كسافاري مثلا،فهو يخاف من كل شيئ جذاب.حرم على نفسه أي انحراف للخيال رغم إدراكه التام لمزايا الوهم وتأثيره على القراء،وهذا لقناعته التامة بأن الرحلات ملك للتاريخ وليس للروايات،فهو لم يقدم البلاد-كما أشار هو- بأجمل مما هي عليه ولا الأشخاص بما يزيدهم أو ينقصهم [1].

إن رغبة فولني في إيجاد فرصة لبناء قدراته على الحكم واضحة من خلال كتاب الرحلة إلى مصر وسوريا،فهو ارتحل إليهما بمنظور مزدوج،يقارن بين ما كانتا عليه وما آلتا إليه،أي العمل في آن واحد كمؤرخ،جغرافي وفيلسوف.ولتحقيق ذلك،كان يتوجب عليه رؤية الأشياء عن قرب و الإحتكاك بمظاهر الحياة في هذه الولايات والإقتراب من سكانها ومراقبتهم وحصد المعلومات بشكل مباشر من خلال إتقانه للغة العربية.فهو لم يكن بحاجة لوسيط أو مترجم،لأنه واثق بأن المعلومة المترجمة لا تكون في غالب الأحيان صحيحة .

باعتماده على أفكار من سبقوه بدءا من هيرودوت وسترابون مرورا بالقلقشندي وابن بطوطة وانتهاء عند معاصريه من دي ماييه وغيره،سلط فولني الضوء على الكثير من القضايا التاريخية لمصر وسوريا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر.لقد انطلق من جغرافية مصر و لم تكن هذه الإنطلاقة بالعبثية ،بل كانت أساسا للدراسة الإجتماعية التي قدمها عن سكان هذه الولاية بشكل عام والمماليك بشكل خاص،الذين أثروا بشكل مباشر على واقع مصر السياسي الإقتصادي والإجتماعي ببروز حركة تمرد علي بك ورغبته في الإستقلال عن الدولة العثمانية المتصارعة مع روسيا،ونفس المراحل اتبعها في جزئه الثاني .

إن اعتماده الملاحظة وتحليل الأحداث التاريخية،كان هدفه الوصول الى مقارنة الأوضاع بمثيلتها في أوربا،وكأنه يحاول أن يرسم لقرائه هناك صورة واضحة المعالم ،متفاديا الأحكام

1-فولني ،المصدر السابق، ج 1 ، المقدمة .

المسبقة التي أثبت عدم صحتها [1].

إن فولني ، لم يكن في مؤلفه بالكاتب الحاذق ولا بالرسام الموهوب ،ولكنه أجاد التصوير بدقته اللامتناهية،واختياره الصائب للمفردات رغم عدم اعتماده على الزخرف اللفظي كما فعل سافاري، ورغم جفاف أسلوبه خاصة عند تناوله وصف مصر .

2-ديـــنيا:رغم التحليل السياسي و الإجتماعي الذي تضمنه كتاب فولني ،نستشف وبشكل لا يدعو للشك كراهيته للمسلمين ،وهذا ليس من منطلف تعصبه للمسيحية وانما من منطلق معايشته لمفكري القرن 18م الذين نادوا في أوربا بصرورة التحرر من سيطرة الكنيسة ورجال الدين .لذا نجده يتخذ موقفا هدائيا من المسيحيين عند زيارته للقدس فوصفهم بالمحتالين الخبثاء و الكذابين الحقيرين في فقرهم والوقحين في غناهم،خاصة لما أجابه أحد الكهنة بأنه اتخذ الرهبنة هربا من التسلط وطمعا في المال و الراحة .أما عن الإسلام،فتخلف المؤسسات وجهل الأفراد وتقهقر الأخلاق راجع بصورة أساسية الى حضور الدين الطاغي ،وبدل من أن يحد الدين من تجاوزات نظام الحكم،فانه على العكس يشكل مصدره الأساسي،لذا يرى أنه من المبالغة القول بأن فكر الإسلام يصلح لمعالجة تجاوزات الحكم .

تعود أفكار فولني العدائية اتجاه الأديان عامة والإسلام خاصة الىتأثره الواضح بأهم فلاسفة القرن18م-فولتير-الذي آمن بالتسامح و الحرية ،عكس الأديان السماووية التي تدعو الى التزمت و تسلط رجال الدين ،فكل هجوماته على الإسلام لم تكن في حقيقة الأمر إلا ذريعة للهجوم على المسيحية ولكن بطريقة غير مباشرة،حيث كان مقتنعا بأن الدين ما يمثل إلا التعصب الذي يؤدي إلى الصراع ويغذي الحروب ويحلل القتل و التدمير .لأجل هذا ،اعتبر فولني الرسول-عليه الصلاة والسلام-مجرد "دجال طموح" يلجا بقصص وهمية مليئة بالتناقض أو بالعنف الشديد لتنفيذ مخططاته للسيطرة على الأذهان.

إن الدين عند فولني مرادف للسذاجة،ويقود للخضوع الأعمى ،فيصبح أتباع الدين بائسين معدومي الشخصية ،مسلوبي الإرادة ،فخورين بجهلهم ،ولا يكمن حل أزمة التخلف في الشرق كله إلا بتحرير السكان من وطأة الدين المهيمن على عقلهم وحياتهم كمدخل للإنخراط في حلقة التقدم باعتماد النموذج الأوربي.

1-أشار الى ذلك فولني في جزئه الأول لما تكلم عن حكمه المسبق حول رداءة المناخ في مصر بجرد نزوله ميناء الإسكندرية .

3-سياسيـــا :في سياق التطور التاريخي لعملية الإتصال بين الشرق و الغرب ،لا بد من الإشارة إلى أن المراحل الأخيرة من القرن 18م قد ارتبطت بتوسع دائرة التنافس الإستعماري الذي مثله فولني في كتابه-الرحلة إلى مصر وسوريا -.فالمتتبع لما ورد في الكتاب، والملاحظ لمنهج فولني المعتمد على دقة الوصف ،التحليل،المقارنة والإستنتاج وفق أسلوب إخباري ،ليعتقد أنه أمام مخبر عسكري وليس مؤرخ أو فيلسوف.فطريقة وصفه للقلعة القاهرة وتدريبات المماليك،يتأكد أنه أسلوب المخبرين العسكريين الذين لا يتركون شيئا للصدفة،بل يخضعون كل الصغائر قبل الكبائر للدقة والتمحيص ،وهو ما نستشفه عند مقارنته لموقع كل من مصر وسوريا وحرصه على إبراز مواطن الضعف قبل القوة بقوله:."..**إن مصر إذا هوجمت ،ستدافع عن نفسها من خلال صحاريها ومن شريطها الساحلي عكس سوريا المفتوحة من الداخل في ناحية ديار بكر ومفتوحة أكثر على طول واجهتها البحرية .انه من السهل النزول في سوريا عكس مصر ،غير أنه إذا تم الإنزال في مصر فسقوطها ناجح عكس سوريا التي تستطيع المقومة.إن مصر المهزومة صعب الحفاظ عليها وسهل جدا خسارتها،أما سوريا فمن المستحيل خسارتها وسهل جدا الإحتفاظ بها**"[1] ،**والسبب في رأيه،يعود الى طبيعة سطح كل واحدة منها ، فمصر هي بلد** الهضاب ،الحرب تسير فيها بسرعة وأي حركة تؤدي إلى معركة وكل معركة ستكون حاسمة أما سوريا فعلى العكس هي بلد جبلي ،الحرب لا تتم إلا بالتموقع في الأماكن[2] .

إن وصف فولني للوضع العام في مصر وسوريا هو وصف استخباراتي ،ومن ثمة لا نستغرب دعوته وبكل صراحة إلى ضرورة احتلال هذه المناطق لتخليصها من التخلف ،مفندا بذلك نظرية مونتسكيو القائلة بأن المناخ هو سبب تخلف هذا الجزء من الفضاء العثماني.فالشرق في نظر فولني بين يدي حكام لا يجيدون فن الحكم سواء كانوا من الأتراك ،العرب أو المماليك،فالعقل التركي يهدم ولا يبني ،والعربي ينتصر ولا يحكم بفن،أما المماليك فلا يعرفون المؤسسات[3].

في هذه الأجواء التي لا تحكمها لا القواعد ولا الأصول ،يرى فولني أنه من الطبيعي أن يشكل العنف لدى الحكام ،الوسيلة الوحيدة للسيطرة،إذ يرى أن المشكلة الحقيقية غي هذا الجزء العثماني

---

1 -Volney, Opcit , T2,p335,336.

2 -Volney ,Opcit ,p336.

3- جان جبور، النظرة إلى الآخر في الخطاب الغربي،الطبعة الأولى ،دار النهار ،2001، ص10-11.

ليس مشكلة قلة الموارد بل هي فساد المؤسسات القائمة-نظام الحكم والدين-،وحل أزمة التخلف في نظره تكمن في تحرير الناس من وطأة النظام العثماني القائم على القمع وكبت الحريات والحامي للفساد في كافة مؤسساته و المعيق لتطور كل الأنشطة الإقتصادية ،الثقافية و العلمية .وهو نظام يعتبره غريب عن السكان الذين لن يدافعوا عنه،وسينهار عند أي خطر خارجي أو داخلي بدليل الثورات المتأججة في أكثر من جهة(علي بك في مصر،ظاهر العمر في فلسطين،هجومات البدو).

لأجل هذا،اعتبر فولني أنه لا حل لمشاكل الولايات العربية العثمانية إلا بإتباعها نموذجا سياسيا واجتماعيا مطابقا لفكر التنوير القائم في الغرب،ولن يتأتى ذلك طبعا إلا من خلال مساعدة دولة قوية .فمصر مثلا-عند فولني- تجمع بين نقيضين هما نقيض الطبيعة التي جادت عليها بنهر النيل وغزارة مياهه،يقابله نقيض آخر ممثلا في مظاهر الحرمان لسوء الإدارة .فالمشكلة في مصر ليست في نفاذ الثروات بل في سوء الإستغلال ،إذ يقول ملمحا :"**مشاهد الحرمان تزيد من عذوبة استمتاع الأتراك...ثروة الطبيعة اليوم لا نتاج منها** "[1] .،ويواصل فولني قائلا :**مصلحة الشعب هي التي تملي علينا ولا شك التمني بأن يتولى زمام مصر غير حكامها اليوم فالإنقلاب لازم الحدوث**[2] .

إن دعوته لاحتلال الولايات العثمانية كانت صريحة ،إذ قدم نصيحة في كتابه الأطلال ،أن من يريد احتلال مصر عليه بمواجهة ثلاثة أعداء وهم الدولة العثمانية ،الشعب المصري وبريطانيا وهي النصيحة التي عمل بها نابوليون بونابرت عند توجيه حملته على مصر عام **1798**م ،حيث كان كتاب فولني هو دليله العسكري الذي لا يمكن أن يخدعه -في غياب صاحبه الذي رفض دعوته للمشاركة في الحملة متحججا بكبر سنه- بدليل انتهاجه نفس مسار رحلة فولني ،إذ جاءت بداية الإنزال العسكري في الإسكندرية ومنها كان التوسع و الإنتشار[3] .

1 - Volney , Opcit , p168.

2 -Ibid,p178.

3 -Carre, Opcit , T1 ,p210.

الخـــاتمـــة

الخاتمة :

اهتم المؤرخون بدراسة الرحلة كوسيلة من وسائل التأريخ للأحداث على اختلاف أنواعها لما لها من دور بارز في تسجيل مختلف الملاحظات والوصول إلى عديد الإستنتاجات المتعلقة بمجال أو بآخر .

وفي موضوع دراستنا هذه"**الرحالة الأوربيون في الدولة العثمانية :فولني نموذجا** "الذي تناولنا فيه تفاصيل رحلة وكتاب فولني إلى مصر وسوريا خلال سنوات 783، 1784، 1785م، لم تكن غايتنا منه تقديم قائمة عن سير الرحالة الفرنسيين خاصة والأوربيين عامة الذين ارتحلوا إلى ولايات الدولة العثمانية خلال القرن 18م بدوافع شتى، وإنما كان الهدف هو السعي إلى بناء تصور مركز وعميق عن هؤلاء الرحالة من خلال تفاصيل سيرهم الذاتية التي تحدد انتماءاتهم الثقافية و الإجتماعية ووجهت نظرتهم للعثمانيين المسلمين .

إن الرحالة الغربيين الذين زاروا الدولة العثمانية ووفدوا إلها خلال هذه الفترة، حملوا معهم بالتأكيد أفكارهم وأحكامهم وثقافتهم ومعارفهم السابقة التي كانت تشكل عناصر أساسية في توجيه آرائهم وتقييمهم للأشياء، وبناء على ذلك، فان تقديمهم للمجتمع الإسلامي العثماني لن يكون، ولم يكن بطبيعة الحال تقديما موضوعيا، وان كنا نقدر أن ثمة موضوعية نسبية متضمنة في رحلاتهم، فالمجتمع الإسلامي من خلال هذه الكتابات ومن خلال الموروث الثقافي و الإجتماعي للرحالة، تعرض لقدر كبير من التشويه و التحريف وهو ما لمسناه في كتاب الرحالة الفرنسي فولني .

إن شخصية الرحالة، تكوينه، مهنته، ديانته وسنه عند الرحلة كلها عناصر ذات أهمية بالغة، لكونها تؤثر بشكل عميق ومباشر في النظرة والحكم على الأشياء أو في إدراك الواقع المرتحل إليه .

انطلاقا من هذا، واعتمادا على فصول هذه الرسالة التي تمحورت تفاصيلها حول مضمون كتاب الرحالة الفرنسي فولني كنموذج عن الرحالة الأوربيين الذين زاروا الدولة العثمانية خلال القرن 18م، فانه توصلنا إلى مجموعة استنتاجات قد استوقفت انتباهنا وهي :

1- إن الرحالة الفرنسيين الذين زاروا الدولة العثمانية خلال هذه الفترة من التاريخ عامة وفولني بدرجة خاصة، وانطلاقا من سيرته الذاتية التي استعرضناها للتعرف إلى العناصر المميزة فيها، قد خضعوا لتكوين إنساني تنويري-نسبة إلى المدرسة الإنسانية التي برزت في أوربا خلال القرن

18م- ويظهر هذا جليا من خلال تأثره بأفكار فولتير الداعية إلى التحرر من كل القيود على اختلاف طبيعتها سواء كانت سياسية أو دينية .

2- إن كتاب فولني الموسوعي، تناول وصف مصر وسوريا في كل المجالات، بعيدا عن الإلتزام الزمني –أسلوب الحوليات- متبعا منهجا فلسفيا يعتمد على طرح القضايا ومعالجة مختلف الإشكاليات، وهو ما نلحظه في جزئيه من الكتاب، سواء تعلق الأمر بمصر وسوريا، إذ نراه ينتقل من إشكالية قسوة الطبيعة وآثارها على نشاط الإنسان الذي وبفضل استبداده تسبب في سوء الأوضاع العامة، وهو بهذا ينتقل من إشكالية لأخرى، خالف بها رحالة عصره كسافاري أو غيره من المعتمدين على الرحلة الزمنية .

3- إن رحلة فولني إلى مصر وسوريا وكتابه الخاص بهما، تركا مؤثرات عميقة في فكره وكتاباته، جعلته يؤلف كتابا عن الولايات المتحدة الأمريكية بنفس الأسلوب و المنهج، رغم اختلاف الزمان و المكان والعمر باعترافه الشخصي، إذ الرحلة الأولى قام بها وهو في سن الشباب (26سنة) في حين كانت الثانية في قمة نضجه الفكري و السياسي .

4- اعترف فولني في جزئه الأول، أن قدومه إلى مصر تم وهو يحمل معه كما من الأفكار الخاطئة والمسبقة، سرعان ما صححها بمجرد نزوله الأرض المصرية وسواحل الإسكندرية.

5-سوداوية الفكر و الرؤية التي كتب بهما فولني كتابه خاصة جزئه الأول، إذ ومن خلال كل الصفحات، لم نلمس أية عبارات للإعجاب بمظاهر الحياة في مصر، فالمنتزهات في رأيه تحولت إلى مراعي، والقصور إلى أكواخ، و المدينة إلى قرية والسكان إلى وحوش و المرأة إلى أشباح و الأهرامات إلى مجرد قبور عدا نهر النيل الذي اعتبره الإستثناء الوحيد لأنه هبة إلهية، مستنكرا على بقية الرحالة مبالغاتهم في ذكر محاسن مصر، متهما إياهم بالمبالغة والتحايل على القراء .

6-خطئه في الحكم على البدو الذين اعتبر ترحالهم هروبا من استبداد الحكم العثماني، متناسيا أن أصل العرب جميعهم هم البدو، فتحدث عنهم من منطلق بيئته الأوربية الغربية والغريبة عن البيئة العربية .

7-تناقض موقفه من البدو كفئة مشكلة لسكان سوريا ومن تمرد ظاهر العمر البدوي كحركة انفصالية، فهو من جهة يعتبرهم قبائل مرتحلة، تعودوا على حياة الحرية و التنقل، غير جديرة بتكون الدولة لبساطة تفكيرهم التي لا تتعدى حدود تأمين الماء و الكلأ، ومن جهة أخرى نجده يدافع عن تمرد ظاهر العمر و يبارك ويثمن حركته الإنفصالية ضد الدولة العثمانية .

8-عداؤه الشديد للأتراك العثمانيين الذين حملهم مسؤولية كل استبداد وتجويع وإفقار للسكان الخاضعين لحكمهم، وهو ما يعكس النظرة الأوربية تجاه الدولة العثمانية المتهاوية خلال هذا القرن.

9-عداؤه الشديد للإسلام ولمعجزته القرآن و لنبيه محمد –عليه أفضل الصلاة والسلام- معتبرا إياهم رموز التخلف و الإستبداد و الجهل، داعيا إلى ضرورة التحرر من قيودهم متخذا من الفكر التنويري الأوربي نموذجا للوصول الى التقدم والنهضة .

10-ولعل أهم استنتاج يمكننا الوصول إليه من خلال كتاب فولني وأفكاره هو دعوته الصريحة إلى ضرورة استعمار هذه المناطق مادامت تزخر بثرواتها وتمتلك رصيدا حضاريا كدليل على تقدم شعوبها فيما سبق، منافيا بذلك نظرية مونتسكيوالقائلة بتأثير المناخ على إبداع الشعوب والأمم، متهما الحكومة الحالية –الأتراك-مسؤولية هذا التخلف الذي لن يتم التخلص منهالا بوجود دولة قوية بديلة عن الدولة العثمانية تحمل من المبادئ ما يمكنها من تحرير هذه الشعوب و الرقي بها إلى مصاف شعوب أوربا ومن تكون هذه الدولة غير فرنسا التي ستحقق أحلام وتأملان فولني بتوجيه حملة عسكرية على مصر سنة 1798م بقيادة نابوليون بونابرت، هذا القائد الذي فضل أن يكون دليله في الحملة كتاب فولني بينما وزع على جنوده الشباب كتاب سافاري الحالم، فحق عليه أن يكون فولني عراب الحملة الفرنسية على مصر كما سيكون من بعده الجاسوس بوتان عراب الحملة الفرنسية على الجزائر .

قائمة الملاحق

الملحق رقم01

صورة للرحالة الفرنسي قسطنطين فرانسوا دي فولني[1]

[1]- Œuvres Complètes ,Op.cit. ,P01.

الملحق رقم 02

صورة من الرسالة التي بعث بها فولني لملكة روسيا كاترين الثانية[1]

Paris, 1 décembre 1791.

« Monsieur,

« La protection déclarée que S. M. l'impératrice des Russies accorde à des Français révoltés, les secours pécuniaires dont elle favorise les ennemis de ma patrie, ne me permettent plus de garder en mes mains le monument de générosité qu'elle y a déposé. Vous sentez que je parle de la médaille d'or qu'au mois de janvier 1788, vous m'adressâtes de la part de S. M. Tant que j'ai pu voir dans ce don un témoignage d'estime et d'approbation des principes politiques que j'ai manifestés, je lui ai porté le respect qu'on doit à un noble emploi de la puissance; mais aujourd'hui que je partage cet or avec des hommes pervers et dénaturés, de quel œil pourrai-je l'envisager? Comment souffrirai-je que mon nom se trouve inscrit sur le même registre que ceux des déprédateurs de la France? Sans doute l'impératrice est trompée, sans doute la souveraine qui nous a donné l'exemple de consulter les philosophes pour dresser un code de lois, qui a reconnu pour base de ces lois l'*égalité* et la *liberté*, qui a affranchi ses propres serfs, et qui, ne pouvant briser les liens de ceux de ses boyards, les a du moins relâchés; sans doute Catherine II n'a point entendu épouser la querelle des champions iniques et absurdes de la barbarie superstitieuse et tyrannique des siècles passés; sans doute enfin sa religion séduite n'a besoin que d'un rayon pour s'éclairer; mais en attendant, un grand scandale de contradiction existe, et les esprits droits et justes ne peuvent consentir à le partager: veuillez donc, monsieur, rendre à l'impératrice un bienfait dont je ne puis plus m'honorer; veuillez lui dire que si je l'obtins de son estime, je le lui rends pour la conserver; que les nouvelles lois de mon pays qu'elle persécute, ne me permettent d'être ni ingrat ni lâche, et qu'après tout de vieux pour une gloire utile à l'humanité, il m'est douloureux de n'avoir que des illusions à regretter.

C.-F. Volney. »

[1] - Œuvres Complètes, Op.cit. ,p XVII ,XIX .

الملحق رقم 03

الصفحة الرئيسية لكتاب فولني[1]

الإطار الزماني	الإطار المكاني
جانفي 1783م	الوصول إلى الإسكندرية
جانفي–26سبتمبر1783م	الذهاب للقاهرة
سبتمبر–نوفمبر1783م	من دمياط إلى الإسكندرونة
ديسمبر1783–5جانفي1784م	الوصول إلى حلب
16جانفي–30جانفي1784م	من حلب إلى طرابلس
فيفري1784م	أيام في طرابلس
مارس–أكتوبر 1784م	أيام في دير ماري الشوير
نوفمبر1784م	أيام في القدس
جانفي1785م	غزة
نهاية فيفري–بداية مارس1785م	من يافا إلى الإسكندرية فمرسيليا

[1]- الجزء الأول من كتاب فولني،المصدر السابق.

الملحق رقم 04

صورة من غلاف كتاب فولني في جزئه الثاني[1]

VOYAGE
EN SYRIE
ET
EN ÉGYPTE,

PENDANT LES ANNÉES
1783, 1784, & 1785,

Avec deux Cartes Géographiques & deux Planches gravées, repréſentant les ruines du Temple du Soleil à Balbek, & celles de la ville de Palmyre dans le Déſert de Syrie.

Par M. C—F. VOLNEY.

TOME PREMIER.

J'ai penſé que le genre des voyages appartenait à l'Hiſtoire, & non aux Romans.

A PARIS,
Chez VOLLAND, Libraire, Quai des Auguſtins.
DESENNE, Libraire, au Palais Royal, près le Théâtre des Variétés, N°. 216.

M. DCC. LXXXVII.
Avec Approbation & Privilége du Roi.

[1]- الجزء الثاني من كتاب فولني،المنصدر السابق.

الملحق رقم 05

خريطة تبين مسار رحلة فولني في مصر وسوريا ذهابا وإيابا.[1]

VOYAGE
EN SYRIE
ET
EN ÉGYPTE,

PENDANT LES ANNÉES
1783, 1784, & 1785,

AVEC deux Cartes Géographiques & deux Planches gravées, repréſentant les ruines du Temple du Soleil à Balbek, & celles de la ville de Palmyre dans le Déſert de Syrie.

Par M. C—F. VOLNEY.

TOME SECOND.

J'ai penſé que le genre des voyages appartenait à l'Hiſtoire, & non aux Romans.

A PARIS,

Chez { VOLLAND, Libraire, Quai des Auguſtins.
DESENNE, Libraire, au Palais Royal, près le Théâtre des Variétés, N°. 216.

M. DCC. LXXXVII.

Avec Approbation & Privilège du Roi.

---

[1]- انطلاقا من كتاب فولني ،ومن : Jean Gaulmier ,Note sur l,Itiniraire de Volney en Egypte et en syrie,Bulletin d,Etudes Orientales,numero XIII,1949,1951,p.p 159,169.

الملحق رقم06

جدول زمني بتحركات فولني في مصر وسوريا[1]

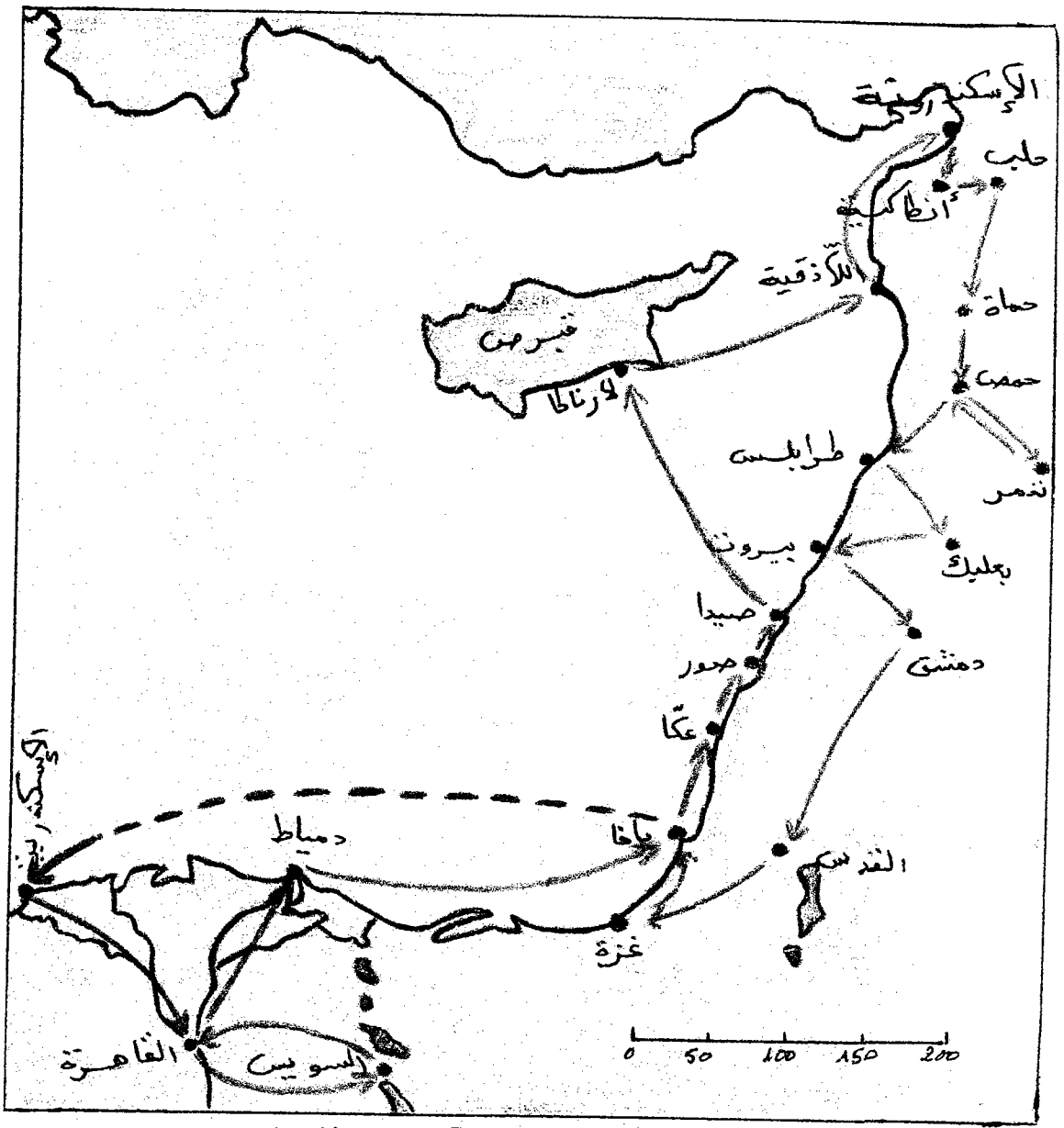

مسار رحلة فولني من الإسكندرية إلى يافا .

مسار عودة فولني من يافا إلى الإسكندرية.

1 - Jean Gaulmier ,Opcit ,p169.

قائمة البيبليوغرافيا

قائمة المصادر و المراجع بالعربية

1- المـــصادر:

1-1 القرآن الكريم ،سورة قريش،الآية 2.

1 -2 الوثائق المنشورة :

1- بيات فاضل ،بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة(951-971هـ/1544-1566م)،إعداد وترجمة،ج1 منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام،الجامعة الأردنية عمان 2005.

2- بيات فاضل ،بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة (975-977هـ/1570-1576م)،اعداد وترجمة،ج2،منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام،الجامعة الأردنية عمان،2006.

1-3 الكتب:

1- ابن الإمام أحمد بن محمد،تحفة الأنام في فضائل دمشق الشام ، دار الكتب المصرية .

2- أنتيس جون ، مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر من خلال وصف الرحالة جون أنتيس1770-1782 ، ترجمة سيد أحمد علي الناصري ،المجلس الأعلى للثقافة 1997 .

3- أوبنهايم ماكس فرايهر فون ، ،البدو ،مابين النهرين العراق الشمالي وسوريا ، تحقيق وتقديم ماجد شبر ، الجزء الأول ،الطبعة الثانية ،شركة دار الوراق للنشر ،لندن ،2007 .

4- بازيلي قسطنطين ،سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني ،دار التقدم ،موسكو ،1989 .

5- البدري أبي البقاء عبد الله ،نزهة الأنام في محاسن الشام ،الطبعة الأولى،دار الراشد العربي بيروت ،1980 .

6- البديري الحلاق،مذكرات دمشق اليومية ،مكتبة المصطفى الإلكترونية .

7- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد اللواتي(ت.779هـ/1377م)، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الجزء الأول، الطبعة الأولى ،المطبعة الخيرية.
8- بيتس جوزيف ، رحلة جوزيف بيتس الى مصر ،مكة المكرمة والمدينة المنورة،ترجمة، عبد الرحمان عبد الله الشيخ ، ،الهيئة المصرية العامة ، 1995.
9- الجبرتي عبد الرحمان ،عجائب الآثار في التراجم والأخبار،دار الكتب العلمية ، الجزء الثاني والرابع الطبعة الأولى، بيروت ،1997.
10- ابن جبيرمحمد بن أحمد بن جبير الكناني،رحلة ابن جبير،الطبعة الأولى،دار بيروت للطباعة والنشر،بيروت.
11- جلبي أوليا، سياحتنامة مصر، ترجمة محمد علي عوني، تحقيق عبد الوهاب عزام وأحمد السعيد سليمان، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة،2003.
12- ابن الحنبلي، رضي الدين محمد بن ابراهيم بن يوسف الحلبي،(ت.971هـ)، در الحبب في تاريخ أعيان حلب، الجزء الأول، حققه محمود حمد الفاخوري، ويحي زكرياء ، منشورات وزارة الثقافة دمشق،1972.
13- ابن دقماق،التحفة المسكية في الدولة التركية ،تحقيق ،عمر عبد السلام تدمري ،الطبعة الأولى المكتبة المصرية ، بيروت ،1999.
14- دوسان بيير، بيجيه، الدولة الدرزية، ترجمة حافظ أبو مصلح،المكتبة الحديثة للطباعة والنشر الطبعة الأولى، بيروت،1983.
15- دوسون مراد جه،نظام الحكم والإدارة في الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ،ترجمة ،فيصل شيخ الأرض،الجامعة الأمريكية ،بيروت،1942.
16- سامي عبد الرحمان بك ،القول الحق في بيروت ودمشق ،دار الراشد العربي ،بيروت 1981.
17- الصباغ عبود ، الروض الزاهر في تاريخ ظاهر، تحقيق ،عبد الكريم محافظة ،عصام مصطفى هزايمة ، الطبعة الأولى مؤسسة الخدمات والدراسات الجامعية ،1999.
18- ابن طولون، محمد(ت.953هـ)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت،1998.

19- ابن عربي،رسائل ابن عربي،دراسة وتحقيق،قاسم محمد عباس،الطبعة الأولى،منشورات المجمع الثقافي،أبو ظبي،1998.
20- قساطلي نعمان،الروض الغناء في دمشق الفيحاء ،الطبعة الثانية ،دار الراشد العربي،1982 .
21- القلقشندي، أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الأنشا، الجزء الرابع، دار الكتب المصرية القاهرة،1922.
22- فريد محمد بك المحامي،الدولة العلية العثمانية ،تحقيق،احسان حقي ،الطبعة 11،دار النفائس،بيروت،2009.
23- فولني س ،ف ، ثلاثة أعوام في مصر و بر الشام ،تر ،ادوار البستاني ، ،الجزء1 الطبعةالثانية منشورات دار المكشوف ،بيروت ، 1949 .
24- ابن كنان، محمد بن عيسى، المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، القسمين الأول والثاني، تحقيق و ودراسة ، حكمت اسماعيل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،1992.
25- مجهول، تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم، نظر فيها ونقحها ووضع فهارسها ،سليم حسن هشي، دار لحد خاطر، بيروت،1984.
26- مجهول، تاريخ هيرودوتس الشهير ،المجلد الأول ،مطبعة القديس جاورجيوس ،بيروت 1886-1887.
27- المقريزي تقي الدين ،المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار،خطط المقريزي الجزءالأول،الطبعة الأولى،مطبعة مدبولي،القاهرة .
28- ميتوديوس زهيراني، الإسكندر الأكبر ، الطبعة الأولى، دار طلاس للدراسات ،1999 .
29- النابلسي عبد الغني ،الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام مصر و الحجاز،تحقيق،رياض عبد الحميد مراد، الطبعة الأولى ،دار المعرفة،1989 .
30- نيبور كارستن ،ترجمة ،مصطفى ماهر ،رحلة إلى بلاد العرب وما حولها ،رحلة إلى مصر الجزء الأول ،االهيئة المصرية العامة للكتاب ،2012.
31- ابن الوكيل يوسف الملواني ، تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك و النواب ، تحقيق محمد الششتاوي ،الطبعة الأولى ،دار الآفاق العربية ،1999 .

قائمة المراجع:

1- إحسان أوغلي، أكمل الدين، الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، المجلد الأول، ترجمة، صالح سعداوي الطبعة الثانية، دار الشروق الدولية، القاهرة،2010.

2- أدهم ألدم،دانيال غوفمان،بروس ماسترز،المدينة العثمانية بين الشرق و الغرب، تعريب ،رلى ذبيان،الطبعة الأولى،الرياض،2004.

3- الإسكندري عمر ،سليم حسن ،تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر ،الطبعة الثانية مكتبة مدبولي ،القاهرة ،1996.

4- آصاف يوسف بك،تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن،تقديم،محمد زينهم محمد عزب،الطبعة الأولى،مكتبة مدبولي ،القاهرة ،1995.

5- أوزتونا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، الجزء الأول، ترجمة ،عدنان محمود سليمان، الطبعة الأولى منشورات فيصل للتمويل، اسطنبول،1988.

6- أنيس محمد،مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني،معهد الدراسات العربية العالمية،جامعة الدول العربية،القاهرة،1962.

7- اينالجيك خليل، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، المجلد الأول،(1300-1600م) ترجمة، عبد اللطيف الحارث، الطبعة الأولى، دار المدار الاسلامي، بيروت،2007.

8- اينالجيك خليل بالتعاون مع دونالد كواترت، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية المجلد الثاني، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى، دار المدار الإسلامي بيروت،2007.

9- البرغوثي عمر الصالح ،تاريخ فلسطين ،مكتبة الثقافة الدينية .

10- البقلي محمد قنديل،المختار من تاريخ الجبرتي،مطابع الشعب،1954.

11- بيات فاضل، البلاد العربية في الوثائق العثمانية(النصف الأول من الرقن10هـ-16م)، المجلد الأول، الطبعة الأولى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول،2010.

12- بيات فاضل ،دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، الطبعة الأولى، دار المدار الإسلامي، بيروت،2003.

13- بيات فاضل،الدولة العثمانية في المجال العربي، دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرا(مطلع العهد العثماني-اواسط القرن التاسع عشر الميلادي) الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،2007.
14- تاريخ هيرودوت ،ترجمة ،عبد الإله صلاح،المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، 2002 .
15- جب هاملتون وبوون ،هارولد، المجتمع الإسلامي والغرب الجزئين 1-2، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، مصر،1971.
16- جب هاملتون،دراسات في التاريخ الإسلامي،تحرير،يوسف أيبش،الطبعة الثانية،نيسان للنشر و التوزيع،بيروت.
17- جبور جان ، النظرة الى الآخر في الخطاب الغربي،الطبعة الأولى ،دار النهار ،2001.
18- الجميل سيار، تكوين العرب الحديث، الطبعة الأولى، دار الشروق،1997.
19- حسين محمود حسين ،أدب الرحلة عند العرب ، الطبعة الثانية ،دار الأندلس ،لبنان ،1983.
20- حسين محمد زكي،الرحالة المسلمون في العصور الوسطى،دار الرائد العربي،1981.
21- ذهني الهام محمد علي ،مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن 16و17م ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1991 .
22- ذهني الهام محمد علي، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن 18م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1992.
23- ذهني الهام محمد علي،مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن 19، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1992 .
24- رافق عبد الكريم، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت(1516-1798م)، الطبعة الثانية،دمشق،1968.
25- ريمون،أندري، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، الطبعة الأولى، دار الفكر للدراسات، القاهرة،1991.
26- زيادة خالد ،الخسيس و النفيس،الطبعة الأولى ،رياض الريس للكتب و النشر ،بيروت 2008 .
27- زيادة عادل ،من فنون العمارة الإسلامية ،دار الكتاب الحديث ،القاهرة ،2009 .
28- زيادة نيكولا ،الجغرافيا و الرحلات عند العرب ،الشركة العالمية للكتاب ،1987.

29-زغروت فتحي،العثمانيون ومحاولات انقاذ الأندلس،الطبعة الأولى،دار النشر و التوزيع القاهرة 2011.
30-ساحلي أوغلي، خليل، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني: بحوث ووثائق وقوانين مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول،2000 .
31-سعد يوسف،نابوليون،الطبعة الأولى،المركز العربي الحديث،1988.
32-السيد،عبد العزيز سالم،تاريخ الإسكندريةوحضارتها في العصر الإسلامي،الطبعة الثانية،دار المعارف،1961.
33-الشناوي عبد العزيز محمد، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها،الجزء الأول، مطبعة جامعة القاهرة ،1980.
34-الشرقاوي محمود،مصر في القرن الثامن عشر،دراسات في تاريخ الجبرتي،الهيئة العامة لقصور الثقافة،القاهرة ،2010.
35-الشامي صلاح الدين،الرحلة عين الجغرافي المبصرةفي الكشف الجغرافي و الدراسة الميدانية الطبعة الثانية ،منشأة المعارف ،الإسكندرية،1999.
36-الشلي فيصل، بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية الثانية، الطبعةالأولى، دار الزمان ، دمشق 2008.
37-شوقي ضيف ،الرحلات ،الطبعة الرابعة ،دار المعارف .
38-الصباغ ليلى،الجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين العاشر والحادي عشر الهجريين، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة بيروت،1989.
39-الصباغ ليلى،المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، مطبعة وزارة الثقافة دمشق،1973.
40-طريح شرف عبد العزيز ،الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي ،مؤسسة الثقافة الجامعية 1993.
41-الطنطاوي علي،دمشق،الطبعة الثانية،دار المنارة للنشر و التوزيع ،جدة ،1997.
42-عاصي حسين،ابن إياس،مؤرخ الفتح الإسلامي لمصر،الطبعة الأولى،دار الكتب العلمية 1993.

43-عامر محمود علي ،تاريخ الدولة العثمانية ،منشورات جامعة دمشق ،2006-2007 .
44-عبد الرحيم، عبد الرحمان عبد الرحيم، فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1990.
45-عبد الرحيم عبد الرحمان ، الريف المصري في القرن الثامن عشر، جامعة عين شمس القاهرة 1974 .
46-عصمت محمد حسين ،جوانب من الحياة الإجتماعية لمصر من خلال كتابات الجبرتي ،مكتبة الأسرة ،القاهرة ،2003.
47-علي محمد حمدي،الإكتشافات الجغرافية من القرن15-19م،الطبعة الأولى،المطبعة الجمالية القاهرة،1913.
48-أبو علية حسن عبد الفتاح،تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للوم أ،دار المريخ للنشر الرياض،1987.
49-عبد المعطي محمد حسام،العلاقات المصرية-الحجازية في القرن الثامن عشر،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1999.
50-عمر سمير ابراهيم،الحياة الإجتماعية في مدينة القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1992.
51-عبد المنعم إيمان محمد ،العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1997 .
52-عمر عبد العزيز عمر ،التاريخ الأوربي و الأمريكي الحديث ،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية 1992.
53-عبد الكريم أحمد عزت،دراسات في تاريخ العرب الحديث،دار النهضة العربية،بيروت،1970.
54-غربي الغالي ،دراسات في تاريخ الدولة العثمانية و المشرق العربي ،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 2007.
55-عبد الغني محمد حسن،الشريف الإدريسي،الهيئة العامة للتأليف و النشر،القاهرة،1971.
56-قاسم عبده قاسم،النيل و المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك،الطبعة الأولى،دار المعارف،1978.

57-فاروقي ثريا ،ترجمة حاتم الطحاوي ،الدولة العثمانية و العالم المحيط بها ،الطبعة الأولى ،دار المدار الإسلامي ،2008 .
58-فكري محمد أمين،جغرافية مصر،الطبعة الأولى،مطبعة وادي النيل المصرية،1396هـ.
59-فهيم محمد حسين،أدب الرحلات،عالم المعرفة،1989.
60-كرد علي، محمد، خطط الشام، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، مكتبة النورين دمشق، بدون تاريخ.
61-كرد علي،خطط الشام، الجزء الخامس، مطبعة الترقي، دمشق،1927.
62-كرسيون أندري،فولتير،حياته،آثاره وفلسفته،ترجمة،صباح محي الدين،الطبعة الثانية،منشورات عويدات باريس،1984.
63-كوثراني، وجيه، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،1988.
64-كاري جون ماري،رحالة وأدباء فرنسيون في مصر ،ترجمة،سونيا نجار،رشا صالح،مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين،الكويت،2006.
65-لنبول ستانلي،سيرة القاهرة،ترجمة حسن إبراهيم حسن،الطبعة الثانية،مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 2001.
66-ا لمدرس حسين عصمت،،أوليفيه ، سالمون،العلاقات ما بين هولندة وسوريا العثمانية في القرن السابع عشر،الطبعة الأولى،دار شعاع للنشر و العلوم،حلب ،سوريا،2008.
67-مونتران، روبير وآخرون، تاريخ الدولة العثمانية، ،ترجمة بشير السباعي،الجزئين1-2، دار الفكر للدراسات، القاهرة،1992.
68-نعيسة جميل يوسف،يهود دمشق،الطبعة الأولى،دار المعارف،دمشق،1988.
69-نعيسة جميل يوسف،مجتمع مدينة دمشق، الجزء الأول،الطبعة الأولى،طلاس للنشر و الدراسات والترجمة،1986.
70-هريدي صلاح أحمد علي،الجاليات الأوربية في الإسكندريةفي العصر العثماني،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية،1989.
71- وصفي أحمد زكريا ،عشائر الشام ،الجزء الأوزل ،الطبعة الأولى ،دار الفكر بيروت 1945.

قائمة المقالات

المقالات المطبوعة:

1- أنساعد سميرة، "رحلة ألمقري التلمساني"،**مجلة التراث العربي**، العدد97،دمشق، مارس2005.

2- بومارون باسكال معوض ،"دير ماري الشوير"،**مجلة الجيش اللبناني**،العدد237، مارس 2005 .

3- رافق،عبد الكريم:" قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني" **بحوث في التاريخ الاقتصادي والإجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث**، دمشق،1985،ص ص193-216.

4- صافي خالد،"حسين باشا مكي"،**مجلة الجامعة الإسلامية**،المجلد 13،العدد2،2005،ص35.

5- الصفصافي أحمد القطوري،"قوافل الحج في العصر العثماني"،**مجلة حراءتاريخ وحضارة** العدد2 جانفي-مارس2006 ،من دون صفحة.

6- الغاشي مصطفى،"الرحالة الفرنسيون و الدولة العثمانية"، **مجلة التاريخ العربي**،العدد45،من دون صفحة.

7- الكندري،فيصل عبد الله"الفرمانات السلطانية: دراسة في نظم الفرمانات الهمايونية ورسومها" **حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية**، صادرة عن مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت الرسالة151 الحولية21، سنة2000،ص ص01-90.

8- بن لخضر فورار محمد ، "المقري التلمساني ودمشق في كتاباته" ، مجلة التراث العربي، العدد98 دمشق 2005.

9- مبيضين مهند أحمد ،"مظاهر الحياة الإقتصادية في دمشق وجوارها خلال القرن الثامن عشر" **مجلة المنارة**،المجلد14،العدد2،2008 ،ص ص 53-55.

10- من دون مؤلف،"الرحلة"،مجلة الفكر العربي،العدد32،ماي1983،ص59 .

رسائل الماجستير

1. درويش ماهر محمد سعيد،"هجرة الشوام الى مصر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين"، جامعة النجاح الوطنية،فلسطين،2003،ص10.
2. حسنة كمال،العلاقات الفرنسية العثمانية في عهد السلطان سليم،كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية ، جامعة الجزائر ، 2005،2006

قائمة الموسوعات والمعاجم

1- أوزتونا، يلماز: موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية: السياسي والعسكري والحضاري (1231-1922)، المجلد الأول، ترجمة محمود سليمان، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى بيروت،2010.

2- بدوي عبد الرحمان،موسوعة المستشرقين، الطبعة الثالثة،دار العلم للملايين،بيروت ،1993.

3- تيسير خلف،موسوعة رحلات العرب و المسلمين إلى فلسطين،الجزء الثالث،الطبعة الأولى،دار كنعان للدراسات والنشر و الخدمات الإعلامية ،دمشق،2010.

4- جراتيان لوسير،موسوعة وصف مصر ،مدينة الإسكندرية ،ترجمة زهير الشايب ،دار الكتب المصرية ،من دون تاريخ الطبع .

5- الحموي ياقوت،معجم البلدان، المجلد الرابع ،دار صادر، بيروت،1977.

6- الزركلي خير الدين،الأعلام،الأجزاء1-2-3-4-5-6-8،دار العلم للملايين،بيروت، 1980.

7- سورديل جانسن ودومينيك، معجم الإسلام التاريخي، ترجمة أ. الحكيم وآخرون، الدار اللبنانية للنشر الجامعي، لبنان،2009.

8- سيمون بيير جيرار،موسوعة وصف مصر ،الحياة الإقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر ترجمة زهير الشايب ،الجزء الأول ،دار الكتب المصرية ،1968.

9- صابان سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض 2000.

10- الصباغ ليلى، الموسوعة العربية،الحضار العربية الإسلامية،المجلد السابع. من دون دار و سنة النشر.
11- ابن عساكر،تاريخ مدينة دمشق،الجزء الأول، دار الفكر للطباعة والنشر،بيروت،1995.
12-العفيفي عبد الكريم،موسوعة ألف مدينة اسلامية،الطبعة الأولى،أوراق شرقية،2000.
13-المرادي أبي الفضل محمد خليل بن علي،سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، الجزء1-3،دار الكتاب الإسلامي .
14-ابن منظور،لسان العرب المحيط،المجلد الأول،دار لسان العرب،بيروت.
15-موستراس ، المعجم الجغرافي للمصطلحات العثمانية ،ترجمة وتعليق عصام محمد الشحادات دار ابن حزم، الطبعة الأولى،بيروت،2002.
16-أبي فاضل وهيب،الموسوعة الكبرى لتاريخ الشعوب وحضاراتها،الجزء الخامس والسادس عشر الطبعة الأولى،مركز الشرق الأوسط الثقافي،2012

المصادر و المراجع باللغة الأجنبية

المصادر بالفرنسية:

1. Besson Joseph ,La Syrie Et La Terre Sainte Au 17eme Siecle,Victor Palme –Librairie ,Paris ,Sans Date D,Edition.
2. Bockocke Richard,Description de l,orient,tome3,j.p,Costard,Paris.
3. Le Duc d,Harcourt,l,Egypte et les Egyptiens,Librairie Plon, Paris 1893.
4. Laorty Hadj, la Syrie, la Palestine et la Judée, Pèlerinage a Jéru - salem et aux lieux Saints ,16eme édition, chez , ballé- la salle éditeur, Paris, 1854.
5. Lucas Paul,Voyage du Sieur Paul Lucas au Levant, chez Nicolas Simart Libraire.
6. Martineau Alfred, le commerce Français dans le levant, Guillaume Librairie, Paris 1902

7. de Maillet Benoit, Description de l, Egypte .T1. Paris 1735.

8. Masson Paul ,Histoire du Commerce Français dans le Levant Guillaume Librairie ,Paris ,1902.

9. Le compte de saint Priest , Mémoires sur l ,Embrassade de France en Turquie et sur le commerce des Français dans l e Levant , Ernest Le Roux Editeur ,1877.

10. Savary Claude Etient , Les lettres de l, Egypte, 2eme Edition, T1 Oufrier. Libraire Paris1785.

11. Seché Leon,Volney1757-1820,Librairie Historique des Provinces Paris,1899.

12. Volney, Constantin –François ,Voyage en Syrie et en Egypte Pendant les Anneés1783,1784 et1785,Tome 1-2, Bossange Fréres Libraires, Paris.

13. Volney,C.F, Discours sur l'Etude Philosophique des Langues, Paris 4eme , Edition, Bossanges Libraire ,1821.

14. Volney, Les ruines,ou Meditationsur les Revolutions des Empires Desenne,vollant-plosan libraries ,Aout1791.

15. Volney : Tableau du climat et du sol des Etats-Unis d,Amerique Tomel ,Coursier Imprimeur-Libraire,Paris,1803.

16. Œuvres complets de C.F.Volney, T1, Bossange, Frères Libraires.

17. Sans Hauteur , La reforme Judiciaire en Egypte et les capitulations, Alexandrie Imprimerie ,1874.

18. Sans Hauteur ,Voyage en Turquie et en Egypte,fait l, Année1784 chez Royer Libraire,1788

المراجع بالفرنسية

1. Carré Jean Marie, Voyageurs et Ecrivains Français EN Egypte, T1 Imprimerie de l, Institut Français d'Archéologie Orientale, 1932.

المقالات بالفرنسية

1. Al hasanat Abdelmadjid Mohamed, La Représentation de la Syrie dans le Voyage en Egypte et en Syrie en1787del,Ideo- logue, Dirasat Humain and Social Sciences,volume32, numero 2,2005.
2. Gaulmier Jean, Volney et la Pedagogie de l, Arabe, Institut Français du Proche Orient, Num1,2006.
3. Gaulmier Jean, Note sur l ,Itinéraire de Volney en Egypte et en Syrie, Bulletin d ,Etudes Oientales, NumeroXIII,1949-1951.
4. Raymond jean,Le Liban Religieux au18eme siècle dans les Œuvres de Volney ,Revue, Parole de l,Orient,Volume 9, 1979-1980.
5. Catacuzene Jean-Michel, Frère André Thevet1516-1590,Biblos15.

القواميس بالفرنسية

1. Mostras ,Dictionnaire Géographique de l,Empire Ottoman ,st. Peter-sbourg ,1873.

المصادر بالإنجليزية

1. . Life of C.F.Volney ,2eme Edition, London ,1840.

المراجع بالإنجليزية

1. Kia Mehrdad,Ottoman Empire,Greenwood Press,London ,2008.

القواميس بالإنجليزية

1. Somel, Selcuk Aksin, Historical Dictionary of The Ottoman Empire,The Scare crow Press, Inc,Oxford,2003.

فهرس الموضوعات

المقدمة **06**

الفصل التمهيدي :نشأة الرحلة وتطورها.....**13**

أولا : مفهوم الرحلة 13

ثانيا : تطور أدب الرحلة 15

1- دور العرب المسلمين.....15

2- دور الأوربيين في تطور الرحلة 18

ثالثا : نماذج عن الرحالة الأوربيين في الدولة العثمانية قبل فولني 20

الفصل الأول:رحلة فولني الى مصر وسوريا.....**28**

أولا : حياة فولني 28

1- مولده ونشأته.....28

2- ملامح من شخصيته.....29

ثانيا : رحلته.....38

1- دوافعها.....39

2- مسارها.....42

ثالثا: كتابه.....45

1- الجزء الأول.....45

2- الجزء الثاني.....47

الفصل الثاني:الأوضاع السياسية ،الإقتصادية والإجتماعية لمصر وسوريا في كتاب فولني.. 50

أولا: مصر في ظل هيمنة المماليك.....**50**

1- تسلط المماليك.....55

2- تمرد علي بك.....62

3- المدن والعمران.....69

4- الأمراض و الأوبئة..... 89
ثانيـــا: حكم الأتراك في سوريا.....93
1-طبيعة الحكم العثماني.....93
2- تهديدات البدو.....103
3- حركة ظاهر العمر 112
4-نشاط المدن السورية.....124

الفصل الثالث:كتاب فولني و الكتابات المعاصرة له.....146
أولا: الكتابات الأوربية.....146
1- جون أنتيس.....147
2- كلود ايتيان سافاري.....151
ثانيا: الكتابات العربية.....153
1- البديري الحلاق.....153
2- عبد الرحمان الجبرتي.....156
ثالثا: قيمة كتاب فولني.....159
1- تاريخيا.....159
2- دينيا.....161
3- سياسيا.....162
الخاتمة.....165
قائمة الملاحق.....169
قائمة المصادر والمراجع.....176
الفهرس